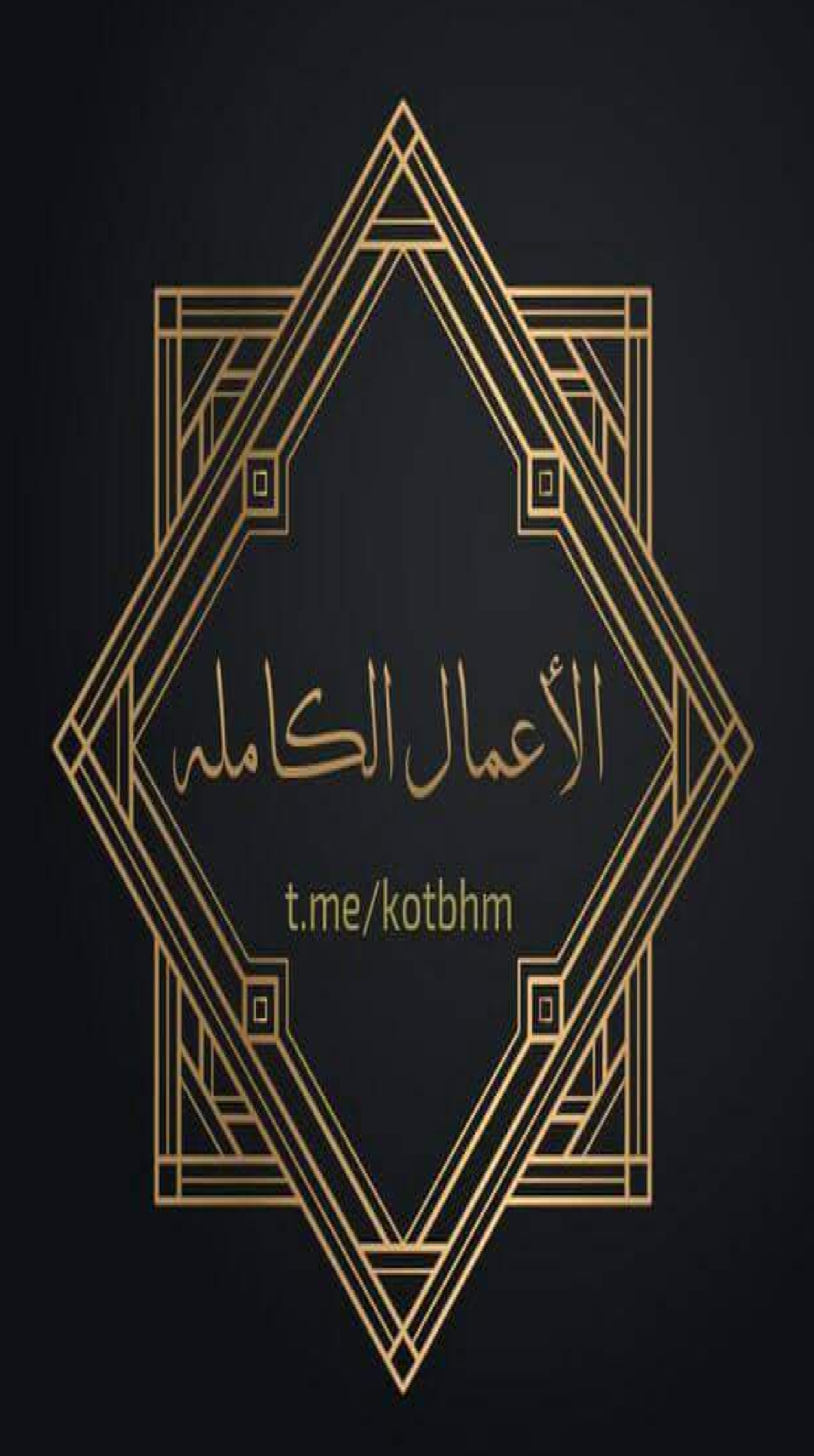
مـروى جـوهـر

رواية

يحدث ليلاً في الغرفة المغلقة

"مستوحـاة من أحـداث حقيقيـة"

دار دوِّن


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

مروى جوهر: يحدث ليلًا في الغرفة المغلقة، رواية
الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠١٨
رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٣٩٢٥ - الترقيم الدولي: 9 - 095 - 807 - 977 - 978

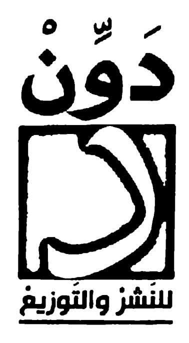
عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.
القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com

مروى جوهر

يحدث ليلًا في الغرفة المغلقة

رواية

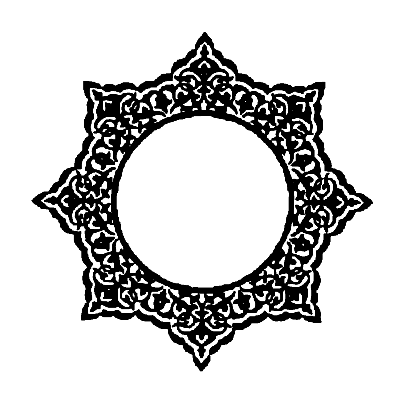


إلى زينب أبا يزيد...

«صاحبة البصمات الأولى لبدء رواية

أحداث خرجت عن إطار العقل والمنطق»

«إلى كل من سقى الأجنة حباً ليفرحوا بالحياة»



رجل في أواخر الثلاثينيات من عمره، يميل لونه إلى السُمرة النادرة الرؤى، له عينان واسعتان، ثاقبتان، حالمتان، سوادهما مُتفحم ساحر يدعوك للإبحار بحرية داخلها، قلعتان تحميهما أهداب كثيفة وطويلة، ذو أنف مستقيم، شفتاه متوسطة السُمك، أسنانه بيضاء متساوية مُتراصة، شعره بين أملس ومُجعد يُلامس كتفيه، يكسوه السواد الفاحم كما عينيه، مُرصع بخصال بيضاء تُضيف وقارًا وتُزيده جاذبية، كث اللحية والشارب، طويل القامة، ممشوق القد، أصابع يديه طويلة رشيقة كعازف موسيقى.

نهض من جلسته في تواضع وابتسم الشيخ «القنائي» ابتسامة هادئة، فلمحت على إحدى خديه فجوة زادت من جمال اشراقه، جعلتني أحلق في سمائه وأنا ما زلت واقفة مكاني أُحدق فيه، ألقى تحيته في خجل وأدب.

- أهلا بكم جميعًا وسهلًا.

وقف بجانبنا شيخ جليل يتحدث إليه في توضيح.

- لقد حضر جعفر يا سيدي ومعه ضيفته كما أخبرتك.
- أشكرك يا شيخ «قرشي».
التفت الينا وأكمل.
- قد حدثني الشيخ القرشي عنك يا جعفر وعن ضيفتك الكريمة وطلبكما رؤيتي.
ربما أحلم، فأنا من أشد مُحبيه ومُريديه، ومع ذلك لم أجرؤ يومًا على تمنى مقابلته، تبسم جعفر وقال في فخر.
- لقد أسعدتني رؤيتك يا شيخنا العزيز، وإني أتشرف بحضور درسك كل أربعاء بعد صلاة العصر كما تفعل دائمًا، لكن ضيفتنا مريم من أشد المعجبين بمدرستك وتريد أن تنهل من بعض علمك.
تبادل نظراته وابتسامته بيني وبين جعفر.
- أهلا بك يا جعفر وبضيفتك، قِيل لي يا مريم أنك قد أتيت من السودان، أليس كذلك؟
كنت أنظر إليه في إعجاب شديد، غير مُصدقة أنه هو بحق الشيخ العالم العارف بالله «عبد الرحيم القنائي»، فقد تخيلته مثل الشيخ القرشي، شيخ كبير أو على قدر قليل من الوسامة، ثم تنبهت إلى ما قاله.. «السودان»، لم أستطع الكذب عليه، فكان الجواب أن هززت رأسي إلى الأمام محيية إياه فقط إلى أن يرحل الباقون، لكنني رأيته ينتظر جوابي، فأجبت بما أشعر تجاهه بصدق إلى أن يحين وقت اعترافي.
- في الحقيقة يا سيدي أنا لا أصدق أني آراك رؤي العين حقًا، لابد أنه حلم، بل إنها رؤية تُبشرني بخير آتٍ إن شاء الله.

ضحك الجميع وخجل القنائي مبتسمًا، ثم نظر إلى نظرة متقدة الذكاء، وكأنه قد فهم ما دار بذهني وقال بيقين.

- الخير قادم قادم لا محالة.

بعد برهة صغيرة استأذن جعفر بعد أن حياني مُشيرًا إلى أنه ذاهب في قضاء حوائجه، وسوف يأتي لاصطحابي للبيت حين أنتهي، أوصله الشيخ القرشي إلى خارج الساحة، ثم نظر إلى الشيخ القنائي في أدب وأشار إلى وسادة على الأرض.

- تفضلي بالجلوس يا مريم.

جلست ومِلت برأسي إلى الأسفل في خجل، فقد كان في عيني شديد الوسامة، جلس هو مستندًا على حائط وراءه في مقابلتي، وضحت ملامحه وازداد جاذبية، مرت لحظات سكون إلى أن لمحت رأسه تنحنى للأسفل وللأمام قليلا، ليرى عيني التي اختفت من أمامه وقد أدرك خجلي منه، فنفذت رائحته وكأنها عُود مُعتق إلى انفي ومنها إلى قلبي، ثم أردف مُبتسمًا.

- أخبريني عن السودان يا مريم، كيف وجدتها؟

***

(١)

في شتاء ٢٠١٠ ميلادية وصلت لآخر سنة دراسية بكلية الحقوق بجامعة جنوب الوادي، وبدأت في البحث كما اعتدت كل سنة عن بيت للطالبات مع صديقتي ياسمين، فبعد خوض تجربة السكن الجامعي في الشهر الأول فقط من السنة الدراسية الأولى بالجامعة قررت عدم طرح الموضوع للنقاش مرة أخرى، كلفنا بعض سماسرة العقارات بالبحث عن شقة سكنية، بالطبع يوجد الكثير منها، ولكن الأهم أن تصلح لسكن فتيات مغتربات للدراسة في وجه قبلي، عندما تأخر ردهم قررنا أن نبحث بأنفسنا علنا نكون الأسرع.

في هذه المرحلة، تذكرت أبى وبكيته كثيرًا، فقد انتقل إلى رحمة الله حديثًا، كان أبى أحد أشهر الشخصيات النوبية، عمل بمجال السياحة لسنوات طويلة، وكان رائدًا بأفكاره، أريد أن أرسل إليه نجاحي في نهاية العام كهدية كان يتمناها، أعطاني وإخوتي قسطًا وفيرًا من الحنان والدلال، رُبما يكفيني ما تبقى من عمري، كُنت أفتقده بشدة، فأوجه عقلي إلى ما يجب على فعله كلما ضللت طريقي، يجب أن أنجح، يجب أن أستحق التقدير الذي كان يتمناه فيفرح بي، لا أدري هل تقبلت فُقدانه؟ أم أنني أعبث بمشاعري التي لابد وأن أختبرها يومًا ما.

وفي إحدى المرات، وبعد أن بحثت وياسمين كثيرًا وأنهكنا التعب، مررنا على أحد المينى ماركت المنتشر في الطرقات (كما يطلقون عليه لكنه أقرب إلى دُكان)، وقفنا لنشتري فطورًا، كان الجوع والعطش قد سيطرا على ياسمين بقسوة فقالت.

- مريم تعالى نشوف أي حاجة ناكلها الأول، أنا هموت من الجوع، وبعدين ندور على الشقة أنا تعبت مش قادرة.

لكننا رأينا الدُكان خاليًا من أي بضاعة، فوقفنا أمامه لنرى أقرب مكان نبتاع منه طعامًا، فأجبتها في يأس.

- أنا تعبت فعلًا، بقالنا كتير قوى بندور على شقة، مش معقول مفيش واحدة مناسبة!

سمع بائع الدُكان حديثنا، رجل قصير القامة، نحيف حد الهزال، نظراته حادة، توسمت فيه الشهامة وقد كان، ابتسامته غير حاضرة وفي عجلة من أمره، جاء إلينا البائع مستفسرًا.

- أنتم بتدورو على سكن؟ أنا غصب عنى سامعكم، صوتكم عالي.

لم تهتم ياسمين بسؤاله وقد غلبها العطش.

- هو مفيش عندك حتى عصير؟

- أصلى كنت قافل فترة طويلة.

أحسست أنه يستطيع مساعدتنا فقصصت عليه بإيجاز، وعرفنا أنه على معرفة بمحام يمتلك شقة ويُريد أن يؤجرها لمن يؤُتمن، وانتهى حديثنا بعرضه توصيلنا إلى المحامي.

- تعالى معايا أوصلك للمحامي بس مش هقدر أسيب المحل وحده.

- أوصفلنا يا حاج.

- الطريق قريب بس يتوه، ممكن صاحبتك تقف هنا ١٠ دقائق بس على بال ما أوصلك وأجيبك؟ المكان قريب جدًا.

- استني هنا يا ياسمين وأنا مش هتأخر.

- ماشي خلي بالك من نفسك.

- وأنتي كمان.

اصطحبني البائع إلى مكتب المحامي دون أن يثرثر في طريقنا مثل باقي السماسرة، عرفته بنفسي وسألته عن اسمه فأجاب «أمين عامر»، يقع المكتب على بعد أمتار من دُكان الحج أمين، رأيت شابًا خارجًا من شقة بالدور الأرضي من البناية، كان واضحًا أنه مغُادر فوقف البائع على الدرج وقدمني إليه.

- «يا أستاذ عماد..آنسة مريم عايزة الشقة هي وصاحباتها».

يبدو أنني كنت من ضمن قائمة سبقتني، هز رأسه محييًا بابتسامة هادئة، ثم اصطحبنا بدوره إلى مكان الشقة المذكورة والذى كان على بُعد أمتار قليلة من مكتبه، أحسست بألفة تجاهه بمجرد رؤيته وكأنه أحد أقربائي، شاب وسيم يقترب من عمرى على ما أظن، عيناه بها حزن أو يهيأ لي ذلك، يرتدي بدلة موديل قديم، من الواضح أنه لا يهتم كثيرًا للموضة لكنه جذاب ووسيم، أحب هذا النوع من الرجال الواثق من نفسه بلا تكلف، تكفي نبرة صوته الهادئة لسماع ما يقول،

والتي تُعلن عن كاريزما خاصة، مشيت معهما حتى أصبحنا في وسط البلد، حي من الأحياء التي لم أر مثيلها من قبل، حي نظيف رغم بساطته، أغلب سكانه من الطبقة المتوسطة التي أوشكت على الانقراض، لابد وأن تمر على الشارع الرئيسي أولًا لتدخل شارع أصغر ثم حارة داخل حارة أخرى، كل شيء متاح حولنا من سلع وخدمات، توقف عماد وأشار إلى المبنى، كان العقار طابقين فقط، متوسط العمر بلا حارس، البوابة حديدية طُليت باللون الأزرق، التفت إلى عماد وقال.

- هنا المكان، الشقة من جوه هتعجبك أنا واثق، للأسف مش معايا المفتاح دلوقتي، أكيد مع أمي، اطلعي خبطي وقوليلها أنك شفتي اليافطة اللي على أول الشارع بتاعة الشقة وهي هتفرجك، على فكرة الشقة أربع أوض عشان أنا فهمت أنك مش لوحدك.

- هو أنت مش طالع معايا؟

- للأسف أنا على خلاف بسيط مع أمي الأيام دي، أحسن قوليلها إنك شفتي اليافطة اللي على الشارع الرئيسي.

- طيب وأنت يا حاج أمين؟

- سامحيني علاقتي بها ضعيفة، أنا بساعد ابنها بس.

- ممممم.

دخلت العقار وصعدت إلى الدور الثاني حيث تسكن سيدة على أعتاب العقد السابع من عمرها، مسح عليها الزمن بقليل من الحزن، وأعطاها الكثير من القوة والصلابة، تطلان من عينيها في تحدٍ، نظرت

لي وكأن عينيها ماسحة الكترونية، من رأسي لآخر قدمي، استأذنت لتحضر مُفتاح الشقة المذكورة بعد أن عرفتها بنفسي وطلبت منها ايجار الشقة، غابت لحظات ثم عادت لننزل سويا إلى الدور الأرضي، فتحت الباب ودعتني لأرى المكان.

غرفة الاستقبال طُليت باللون السيمون وتتكون من جزأين، الجزء الأول والأقرب إلى الباب به كنبه كبيرة وأخرى صغيرة، صالون قيم قديم جهة اليمين، تصحبهم مرآة طويلة وكبيرة، أما الجزء الثاني في العمق والقريب من الطرقة يتكون من منضدة حديدية متوسطة الحجم تحمل بشجاعة تليفزيونًا متوسط العُمر، تصلح للمذاكرة أيضًا، على جانبي المنضدة كُرسيان من البلاستيك، يقع المطبخ في الجانب الأيسر من غرفة الاستقبال، به ثلاجة كبيرة على الجانب الأيمن وبجانبها الحوض، في اليسار مطبخ خشبي كامل به جميع أجهزة المطبخ الحديث لا ينقصه سوى إحضار الطعام فقط، تقع الطرقة تقريبًا بجانبه بحيث يسهل علي من في الغرف أن يسمع من في المطبخ إذا تحدث بصوت عالٍ، الطرقة بها ثلاث غرف على اليمين متوسطة الحجم، أما الغرفة الرابعة والأخيرة مُغلقة، تقابلك في آخر الطرقة، يقع الحمام على يسارها، جميع الغرف مطلية باللون الأبيض، أرضية الشقة كلها موحدة بسيراميك سيئ الذوق، أخضر اللون يتداخل فيه ألوان أخرى لا تجانُس بينها، الحمام والمطبخ أيضًا لا علاقة لهما بذوق الشقة العام، مع ذلك أحسست بشيء يجذبني إلى المكان، فصدقت إحساسي، ويا ليتني ما فعلت، نظرت إلى السيدة في ثقة وقالت.

- عجبتك الشقة؟

- حلوة، أربع أوض على قدنا.

- عفش البيت كله محدش استعمله قبل كده، يعنى شبه جديد، هو موضته قدمت بس، لكن زي ما أنتي شايفة نضيف، حتى المطبخ أدواته كلها بحالها مش محتاجين تجيبوا حاجة، بس حافظوا عليها بس.

- لا بصراحة البيت نضيف ومن ناحية نحافظ عليه متقلقيش خالص.

- أنتم كام واحدة؟

- دلوقتي اتنين وفي اتنين هييجوا بعدنا إن شاء الله.

- يبقى في اتنين لازم يشتركوا في أوضة لأني مش بفتح الأوضة الرابعة، فيها كراكيب وحاجات غالية، عندكم ثلاث أوض وزعوها بمعرفتكم، في مشكلة؟

رأيت المكان نظيفًا وسعره مُناسب لنا جميعًا، لأنني أعرف جيدًا المستوى المادي لزميلاتي، ولا أعتقد أن ثلاث غُرف سوف تكون مُشكلة مع باقي البنات فتصرفت على هذا الأساس.

- طيب خلاص مفيش مشكلة، دي فلوس عربون لحد ما نيجي.

- تمام، أنا مسافرة عُمرة وراجعة على قرايبي في الأقصر لما أرجع آخد الباقي، وأمنتك أمانة بقى إنتي المسئولة قدامي عن الحاجات اللي في الشقة كلها والعفش والأجهزة الكهربائية.

- متخافيش يا طنط، كأنك موجودة معانا.

تم الاتفاق وودعت الحجة سعاد وغادرت، عند مدخل المبنى وجدت الحج أمين مازال ينتظرني، أبلغني أن عماد اضطر إلى الذهاب لقضاء بعض أموره.

- متشكرة جدًا تعبتك معايا يا حج.

- الخير ما يضيعش يا بنتى.

أردت أن أعطيه نقودًا كما تعودت مع أي سمسار، لكنه رفض بشدة وقال إن ما يفعله معي لوجه الله تعالى، فقد رآني أبحث عن مكان مُلائم وتوسم خيرًا في، اصطحبنى لأقرب مكان من دُكانه حيث تنتظر ياسمين، لأنه تذكر شيئًا لابد أن يبتاعه، ما إن وصلت حتى بشرت صديقتي، اتفقنا على ميعاد الانتقال لقنا أخيرًا لمتابعة المحاضرات في بداية العام الدراسي.

انتقلنا ومرت الأشهر الأولى من دراسة السنة الأخيرة بالجامعة سريعة وهادئة، وها أنا في أواخر مدة إقامتي «ببيت الطالبات المغتربات» كما أطلقت عليه لاحقًا مالكته «الحجة سعاد»، لأننا أول من استأجر الشقة، فهو بيت عائلي لا يسكن به غرباء، وكنا أول من يكسر القاعدة على حد قولها، لكنها رأت أننا لن نتسبب بأية مشكلة على الإطلاق، فقد تعودت السفر لأقاربها والرجوع وهي مطمئنة على بيتها، فنحن فقط من يشاركها السكن.

رأيت «عماد» بعدئذ مرة أو مرتين على سُلم العمارة فحياني، بات واضحًا أن خلافه مع أمه قد انتهى، ذات مرة رأيته مُسرعًا باتجاه مدخل العمارة فسألني عن أحوالي.

- إزيك يا مريم كله تمام؟ الشقة عجبتكم؟

- كله حلو الحمد لله.

- أحسن من باقي السكنات، كل واحدة في أوضة أكيد حلو.

- دلوقتي إحنا اتنين بس، كل واحدة في أوضة فعلا، لكن في اتنين جايين وهيشتركوا في أوضة واحدة، بس مفيش مشكلة.

- لو الشقة ضيقة عليكم افتحوا الأوضة الرابعة، هي بس فيها شوية كراكيب حطوهن على جنب، وخلو بالكم عليها لأن ماما بتخاف على حاجتها قوي.

- حاضر لو اضطررنا هنعمل كده.

- طيب أشوفك بخير.. سلام.

- سلام.

كانت الحجة سعاد قبل أن تُسافر لأداء العُمرة من ألطف الناس معنا، تُحن علينا وترسل لنا الطعام عندما ترانا مُتعبين من المذاكرة ليلًا ومن الدراسة في الجامعة صباحًا، أعطت لكل منا مفتاحًا لغلق البوابة الحديدية ليلًا لمزيد من الأمان، ما إن يُغلق الباب الحديدي من الداخل حتى تستطيع دخول شقتنا دون إذن، فقط بتحريك مقبض باب الشقة من الخارج وكأنك تفتح باب غرفة داخل الشقة، لذلك كان لابد أن نغلق ونفتح الباب بمفتاح ونحكم إغلاقه ليلًا بترباس.

أول غرفة على يمين الطرقة تسكنها ياسمين، فتاة أسوانية، تدرس بالسنة الثالثة بكلية تجارة، قصيرة، ممتلئة القوام، مرحة، متفائلة، تمنح الأمل والتفاؤل لكثير ممن حولها وتضيف البهجة في كثير من المواقف،

هذه الغرفة أوسع غرفة بالشقة، تتكون من سريرين بحجم كبير ودولاب متوسط الحجم موضوع بينهما بعناية ومقاييس محسوبة، بها شباك صغير يطل على الشارع.

الغرفة الثانية اخترتها لي لأنها ثاني أوسع غرفة، قررت منذ البداية أن أسكن في غرفة خاصة بي وحدي، أحب الاحتفاظ بأكبر قدر مُمكن من الخصوصية، لا أحب أن يميز أحد شكل ولون ملابسي الداخلية على سبيل المثال، مهما بلغت درجة تقاربنا، أو أن يسمع محادثاتي التليفونية مع أهلي وأقربائي، كثير من الأمور خاصة جدًا وإن كنت أعلن عن بعضها كيفما أريد، لكني أفضل أن أحتفظ بتفاصيل حياتي وكأنها سر كبير غامض، هكذا أكون في راحة، تتكون غرفتي من سريرين صغيرين، ما بينهما من مساحة لا يسمح بوضع أي خزانة صغيرة، يقع الدولاب الصغير الحجم في الجهة المقابلة من السرير، اخترت السرير الذي يوجد بظهره مكتبة صغيرة ورف للنوم، لأنني سوف أحتاج المكتبة بديلًا عن الخزانة الصغيرة، الغرفة بها شباك يطل مباشرة على الشارع، أن يطل شباك غرفتك على الشارع الرئيسي بالدور الأرضي فإنه يجعل معيشتك سهلة وصعبة في آن واحد، الأصوات الخارجية تجلب الونس والدفء، لكنها تُصعب الأمور عندما نريد القليل من الهدوء خاصة أثناء الامتحانات.

أتذكر أول يوم لي أنا وياسمين في السكن، ذهبنا إلى محل لوصلات الدش في أول الشارع لعمل وصلة لنا، لكنه عندما علم أين نسكن رفض بشدة.

- أنتو ساكنين عند الزعنان ... صح؟ معلش مفيش وصلات!

- ليه بس كده؟ هو مين الزعنان ده؟ إحنا عند الحجة سعاد.

- أنتو منين؟

أجابته ياسمين.

- من أسوان بس ساكنين هنا في بيت طالبات عشان الجامعة.

أخذ صاحب المحل ينظر إلي في حيرة وتمعُن ثم قال وكأنه يتفحصني.

- إزيك يا أبلة.

- الحمد لله كويسة!

- سبحان الله شكلك كويسة فعلًا!

- مش فاهمة في حاجة ولا إيه؟

- سلامتك يا أبلة، طيب عمومًا هعملكوا الوصلة بس مش عاوز وجع دماغ في الفلوس الله يكرمكوا؟ أنا راجل على باب الله.

- لا من الناحية دي ما تقلقش خالص.

أحضرنا بعض الطعام وذهبنا إلى البيت وفي إغفاءة قصيرة من تعب السفر، سمعنا صوتًا مدويًا لامرأة تهين زوجها بأقبح الألفاظ، من هي؟ إنها زوجة شقيق «زعنان»، أكبر بلطجي وتاجر مخدرات في قنا، القزم الذي لن تتخيل أنه المعلم الذي يفعل كل هذه الأفعال، إنه حقاً حي محترم كما رشحه صاحب الدُكان، لكني تجاهلت هذا الاحترام لسعادتي بما رأيته من حب ورعاية أصدقائي المشاركين سكنهن وحياتهن معي، عندما تتقاسم الحياة في الغربة بعيدًا عن بيتك وأهلك، فلابد أن تمنح نفسك شيئًا من الأمان وبعض الثقة فيمن حولك،

لا يأتي هذا الإحساس عبثًا وإنما من تجارب ومواقف مختلفة لتثبت معدن الأشخاص كما كان يقول أبي رحمه الله.

استقبلنا الصديقتان قُرب فترة الامتحانات، فقد انضما إلينا «هند» و«ليلى» في الغرفة الثالثة الشاغرة متشاركين اياها، وهي الغرفة المجاورة لي، «هند» من الأقصر، طويلة، سمراء، ممشوقة القوام، وعلى قدر كبير من الجمال، مزدوجة الشخصية مع أمور لا تحتمل الازدواجية، مثل أمور الدين مثلاً، فهي تحرم وتحلل حسب أهوائها الشخصية، لهجتها الصعيدية الحادة جميلة، تتحدث بها معظم الوقت، إلا في وجود أي كائن مُذكر، يتلوى لسانها ناطقًا لهجة أخرى مصطنعة في ثوانٍ معدودة، تفضل ارتداء العبايات أغلب الوقت.

أما «ليلى» فهي من إدفو، سمراء، طويلة، عيناها واسعة تنظر إليك بحذر وغيرة متوارية، أحيانا صارخة، تدرس بكلية تجارة، تتميز بخفة الدم ورجاحة العقل، بعيدة كل البعد عن التهور في تصرفاتها، تظنها بخيلة ولكنها غالبًا تقدر قيمة النقود وتحرص على صرفها في مكانها الصحيح.

ظلت الغرفة الرابعة مغلقة ولم نهتم للأمر، فلسنا في حاجة إليها، يسود أوقاتنا سلام وود ومرح ومحبة حقيقية كأخوات أشقاء، إلى أن بدأت ليلى في الشكوى المتكررة من هند في أيام متلاحقة متقاربة، وبات التوتر زائرًا دائمًا، تظل هند مستيقظة طوال الليل تقرأ أو تصلي، ومؤخرًا غلبت مكالمات الحب في الليل على القراءة والصلاة، في حين تريد ليلى أن تنام، كانت تشكو فقدان السكينة والنوم العميق.

أرادت ليلى الانتقال إلى غرفة ياسمين في البداية، لكن الأخيرة اعتذرت بلطف، حيث إنها أيضًا تستقبل العديد من المكالمات الخاصة، وأنه من الصعب عليها أن تجيب خارج غرفتها خاصة في برد الشتاء القارس.

بعدها جاءت ليلى آملة أن أوافق على طلبها بالنقل إلى غرفتي، فاعتذرت أيضًا، وخطرت لي فكرة تتيح الفرصة لحل مشكلة ليلى وهند، بل أي مشكلة أخرى سببها مُشاركة الغُرف، وتذكرت ما قاله «عماد» عن الغرفة الرابعة.

جمعتهن على الغداء وكان حديثي أشبه بالخطاب.

- شوفوا يا جماعة، دلوقتي طبيعي تكون كل واحدة فينا ليها طقوسها الخاصة، وإحنا لازم نفض أي خلاف مهما كان صغير في بدايته علشان الموقف ميكبرش حفاظًا على اللي بيننا، ليلى مضايقة من هند عشان المواضيع اللي كلنا عارفينها بما فيهم إنتي يا هند.

نظرت هند في عدم اكتراث.

- عارفة يا مريم بس أنا مش شايفاها خلافات جامدة قوي يعني، نقدر نحلها يا ليلى.

نظرت إليها ليلى وبدا أن رد هند قد استفزها، فأردفت بعصبية.

- لأ يا هند أنا قلتلك عاوزة أنام في مواقف كتير قوي، إنتي مش بتقدري، أنا بشوف بصراحة إن ده عدم احترام ليا.

أرادت ياسمين أن تهدئ من ليلى فقاطعتها.

- بلاش نكبر المواضيع كده وكل حاجة ليها حل، قولي يا مريم بقى كان عندك حل أو فكرة، إيه بقى؟

- هو إحنا ليه حابسين نفسنا في ثلاث أوض وهما أربعة؟

لمعت عين ليلى للحظات لكنها انطفأت من جديد وقالت.

- تقصدي نفتح الأوضة الرابعة؟ هي فكرة، طب وافرضي صاحبة البيت عرفت؟ وبعدين هقعد في أوضة لوحدي وأدفعلها نص أجرة إزاي؟

- لأ، خلي الأوضة دي تحل المشكلة مؤقتا لحد ما نشوف بس، يعني اللي عايزة تعمل تليفون أو أي حاجة بالليل تروح فيها علشان التانية تنام، و«طنط سعاد» مش هاتقول حاجة يا بنات، حتى ابنها اللي قابلني أول مرة قالي الشقة أربع أوض وقالي عادي ممكن نفتحها، إحنا هنضفها ونستخدمها بدل قفلتها دي والتراب، بالعكس دي هتنبسط، هي دي أول مرة نفتح فيها أوض مقفولة يا ياسمين؟ فاكرة السنة اللي فاتت عملنا كده وأصحاب البيت انبسطوا قوي مننا.

- أيوه صحيح دي مش أول مرة، وممكن تكون الحجة سعاد مكسوفة مننا عشان الأوضة مش نضيفة ومكركبة، بس إحنا ننضفها وبعد كده نبقى نقولها لما ترجع من عند قرايبها اللي في الأقصر.

قالت هند في رفض واضح.

- وافرضي الحاجات اللي بتقول عليها لقيتها ناقصة؟ تقول إحنا اللي أخدناهم؟ الأحسن هي تفتحها.

دافعت عن فكرتي قائلة.

- إحنا هنبقى نقولها فتحناها، وبعدين يا هند هو إحنا حرامية يعني؟ هشيلها الحاجات دي في كرتونة على جنب ونحافظ عليها، ولما تيجي نقولها أو نديهالها.

- خلاص يبقى إنتي تعاملي في الموضوع ده.

- تمام كده، في حد عنده مانع؟

بموافقة هند جاءت الموافقة بالإجماع من البنات.

- خلاص تمام، نفتحها بكرة إن شاء الله.

كانت ليلة هادئة، لم تشكو فيها ليلى أو تتذمر من هند، فما هي إلا ليلة واحدة تتحملها ثم تُحل مُشكلتها، مارست هند جميع طقوسها الليلية، مكالمات حب، صلاة، قراءة بصوت عالٍ دون مراعاة لليلى كالعادة.

جاء الصباح مُحملًا بالأمل في إنهاء أي خلاف حتى وإن بدا صغيرًا، تناولنا الفطور بنهم وسط جو مرح مُبهج، كنت على استعداد تام لحل مشكلة ليلى فقُمت في حماس.

- يااللا يا بنات نفتح الأوضة، هاتي سكينة يا هند.

قامت هند إلى المطبخ وقد علا صوتها.

- أكبر سكينة من المطبخ عدل إلى الأوضة المقفولة.

استمرت محاولاتي العنيدة في فتح اللسان المعدني المعشق داخل الحائط دون فائدة، مرت أكثر من ساعة، لابد أنه مغلق منذ فترة كبيرة، بعد محاولات عدة استنفذت طاقتي، نظرت إليهن مُرهقة.

- أنا تعبت يا جماعة قوي، هُدنة كده وأحاول تاني.

نظرت ليلى في تحدٍ.

- هاتي كده السكينة دي أنا هاحاول.

لم أستطع إعادة المحاولة لضيق الوقت، يجب أن أستعد للذهاب إلى الجامعة، أما ليلى فقد رفعت راية العند، قررت تجاهلهن لأسرق الوقت، دخلت غرفتي لأتجمل كعادتي قبل اختيار ملابسي، دائمًا ما أهتم بالعيون وأحددها، العيون المُكحلة جزء لا يتجزأ من موروثي الشعبي، أحب رسمة عين الجدات، اتقنها واتفنن فيها، كما أن الكُحل الأسود يناسب لون عيناي العسلية، بل يعطيني الكثير من الجاذبية دون أن أطلبها، فتحت خزانتي لأرى ما سأرتديه وحدي، دون إبداء الآراء كطقس يومي مُعتاد، فجميعهم منشغلون بفتح الباب، دائمًا ما أرى خزانتي فارغة وهي المملؤة عن آخرها بالملابس لهوسي بالموضة، من يُجزم أن المُحجبة لا ترتدي آخر صيحات الموضة؟ أنا أفعل، حتى عندما يهمس شيطاني بأذني «لا ترتدي هذا فأنت ممتلئة القوام»، فإني أطرده على الفور قائلة «قد أكون ممتلئة لكنني طويلة وهذا يعطيني ثقة»، أو حينما يريد أن يتسلى بي «لا ترتدي هذا فأنت خمرية اللون ولست بيضاء» فيكون ردي الأمثل «أحب لوني أكثر من أي شيء في دنياي»، وهكذا أحب الموضة وأثق بنفسي.

أثناء استعدادي ودخولي الحمام وخروجي منه عشرات المرات كالمعتاد، رأيتهن يحاربون الباب في شراسة، سيطر العند عليهن جميعًا، حتى أنهن لم يشعرن بمغادرتي.

هذه هي حواء منذ أن خلقها الله، إذا أرادت شيئًا بشدة فسوف تناضل من أجل الحصول عليه مهما كانت العواقب.

وأخيرًا ارتديت ما أحب وذهبت إلى الجامعة، ونسيت الغرفة والباب إلى أن انتهيت من جميع المحاضرات وعُدت إلى المنزل.

وجدت البنات في استقبالي، واقفات أمامي في زهو مبتسمات، تملأ أرواحهن نشوة غريبة، يمسح ملامحهن بعض الإجهاد.

- فتحنا الباب.

قُلنها وكأنهن فتحن عكة، غلبني الفضول لأرى الغرفة المغلقة.

سرت نحو الغرفة كي أستطلع ما بها؟ لا شيء يبدو مُختلفًا بها، الجدران بيضاء مثلها مثل باقي الشقة، شباك متوسط الحجم، كنبة مشابهة تمامًا للكنبة التي في غُرفة الاستقبال، كرتونة أحذية رجالي قديمة متهالكة، غسالة ملابس تحتضر منذ سنوات، كرتونة قديمة محكمة الإغلاق عليها بعض كتب القانون (يبدو أنها كانت ملكًا لابنها المحامي أثناء دراسته الجامعية) وأخيرًا صندوق خشبي متوسط الحجم قديم، أشبه بقطعة آثار مهملة، يحكم إغلاقه قفل كبير من الفضة، يحتاج مجهودًا ليُعاد إلى صيغته الأولى، نُقشت عليه جُمل بخط قديم مُتداخل يصعب قراءته، من المؤكد أن هذا هو الشيء الثمين الخاص بالحجة سعاد التي تخشى فقدانه، أردفت مُبتسمة.

- بجد.. برافو عليكم، فتحتوها إزاي؟

- جبنا شاكوش ومسمار كبير وفضلنا ندقدق شوية، وبالسكينة شويتين.

هكذا شرحت ياسمين وأكملت هند بعدها.

- تعبنا قوي مش هتتخيلي، باب صعب قوي، تقولي حد مقري عليه!

- طب الحمد لله إنه اتفتح في الآخر، شكلكم كأنكم كنتوا في حرب يا بنات وانتصرتم، نحتفل بقى.

شاركت البنات في نضافة الغرفة بمساحيق النظافة ذات الرائحة النفاذة، بعد أن أزلنا الكثير من الأتربة، نظفت الصندوق الخشبي قدر الاستطاعة، وأعطيته ركنًا يصعُب المرور به، ثم نبهت البنات إلى عدم التعرض له، فبالإضافة إلى أنه من ممتلكات الحجة سعاد إلا أنه يبدو أثريًا وأنا أعرف قيمة كل ما هو قديم كما كان يُعلمني أبي، بلا شك قطعة ثمينة جدًا، جلبنا الكنبة التوأم من غرفة الاستقبال حتى تأنس بأختها هنا، فهذه الغرفة أدفأ كثيرًا من باقي البيت، عندما نخبر الحجة سعاد بما فعلنا تستطيع أن تستفيد منها مثل باقي الغرف، سوف تكون مفاجأة رائعة، وسوف تسعد بنا بلا أدنى شك، لكني أتمنى ألا تزيد الايجار على هند أو ليلى؟

مرت الأيام هادئة لطيفة وأطلقنا على الغرفة اسم «السنترال»، أصبحت هند وليلى وياسمين أيضا يستقبلون فيها جميع مكالمتهم على حده، ثم أصبحنا جميعا نستقبل فيها صديقاتنا من الجامعة للمذاكرة أو الثرثرة أحياناً، هذه الغرفة لها روح مختلفة عن باقي الغرف، تدخلها فتستريح نفسك وتستجم، أم أنها لذة الممنوع مرغوب!

اختفت المشاكل وصمتت ليلى عن الشكوى، وعاد الهدوء من جديد إلينا جميعًا مُستمتعين بأيام جميلة لن تُنسى.

* * *

(٢)

مرت ٢٠١٠ بسلام، وبدأت ٢٠١١، تمضي الأيام رتيبة في سلام، كصفحة ماء هادئة حمدت الله عليه، قد يكون الروتين مُملا حد الكآبة أحيانًا، لكنه بلا شك أكثر أمانا واستقرارًا، لم تخل أوقاتنا من الضحك في أحلك الظروف، ضحكتنا هي أقرب ردود أفعالنا حتى في المصائب، لا شيء يمر دون أن نسخر منه، شعارنا الأوحد «محدش واخد منها حاجة».

كنت أتحدث إلى شقيقتي «ريهام» عصر أحد الأيام في السنترال، وعندما انتهيت من المكالمة لاحظت أن الصندوق الأثري بالغرفة مفتوح، والقفل الأثري مفقود، اقتربت في وجل وفتحت الصندوق، بداخله سيف فضي، طَمست معالمه أكوام تراب مُلتصقة به، عليه آيات قرآنيه غير واضحة، قطعة قماش مُهترئة، شموع مُستخدمة، كتاب وأوراق قديمة بها رسوم هندسية، منديل من قماش ملفوف ومربوط بخيط سميك، لونه بني عتيق، آثرت ألا أفتحه، وحذاء حريمي أبيض اللون ذو كعب عالٍ، كأنه لعُرس، الحذاء قديم لكن أنيق، من الواضح أنه لم يُستعمل قط، انتعلت الحذاء، وتمشيت به كطاووس إلى أن ذهبت للمرآة في مدخل الشقة، رأيته جميلًا فأحببته، سولت إلى نفسي اقتناءه، لكني تذكرت الأمانة فذهبت مرة أخرى

إلى الصندوق، سوف أقُص على الحجة سعاد ما مررنا به بكل تأكيد، لكن في كل الأحوال لن أجرؤ أن أقول لها فتحنا الغرفة، وبعثرنا ممتلكاتك الخاصة!

خلعت الحذاء وقد اشتهته نفسي رغم قِدمه، لا أعرف لماذا، وضعته مكانه في الصندوق وأغلقته، لكن يبقى السؤال، أين القفل الأثري؟

من استطاع أن يفتح القفل العتيق، يستطيع أن يفعل أي شيء، ورغم أن محتوياته لا تحُث على السرقة لعدم نفعها، إلا أني قررت أن أنقل ما تبقى من الأمانة التي اضطرتني الظروف أن أحملها إلى غرفتي كي تكون بمأمن.

بعدها بأيام وأثناء مروري بأحد المحلات، أغُرمت بحذاء وكان الحب من طرف واحد من وراء فاترينة، أنا العاشقة للموضة أينما كنت، عقدت العزم على الادخار حتى أستطيع شرائه، فقد كان باهظ الثمن، بعدها بأيام اقتنيته، أحب حاجياتي وأحافظ عليها من التلف، ادخرته لأقرب نزهة قادمة، بعد أن رأيت الغيرة المُتعارف عليها في عيني ليلى، والتي نتجاهلها جميعًا، فأنا أعلم الاختيار بين التغاضي عن عيوب الأصدقاء والتعايش معها، أو نبقى منعزلين.

وفي يوم من الأيام التي نوينا تناول غدائنا بأحد المطاعم، تأنقت كعادتي وبقي ارتداء الحذاء الجديد، انتظرت ارتداءه كما لو أني ما زلت طفلة تنتظر قدوم فجر العيد، انفردت به في شهوة أعرفها، ثم ارتديته بتأنٍ، لامست جلده الطبيعي الناعم بسعادة، وذهبت إلى

المرآة بغرفة الاستقبال، تتنقل البنات بين غرفة الاستقبال والمطبخ، إلى أن استقررن في المطبخ يلتهمن ما فيه من بقايا طعام كمُشهيات قبل الغداء، تأملت الحذاء مزهوة بنفسي وسألتهن.

- حلو يا بنات؟

ردت ياسمين بتلقائية.

- جميل يا مريم.

- طب حلو على المونتوه؟

في غيرة واضحة جاء رد ليلى.

- لأ يا مريم مش لايق على اللبس ده، غيريه يا شيخة.

في سذاجة غريبة خلعت الحذاء في مكاني بجانب المرآة، وذهبت إلى غرفتي أُحضر حذاء آخر للمقارنة، عُدت مرة أخرى بعد مدة لا تتجاوز الدقيقتين، ثم صرخت واضعة يدي على فمي من هول المفاجأة.

- إيه ده.... مين اللي عمل كده!

أسرعت البنات على صرختي مهرولين، بينما ألسنتهم مازالت تتلوى ببقايا طعام، ثم ارتسمت الدهشة على وجوههن محدقين في الحذاء، ساد الصمت بيننا، لا أحد يتكلم، يحدقون في بعضهن البعض في اندهاش، الحذاء الجديد مُقطع على هيئة دوائر، دوائر متساوية جدًا! نظرت هند لي في ذهول.

- إيه ده يا مريم؟ إيه اللي قطع البووت كده؟

- بتسألوني أنا؟

استدركت ياسمين وكأنها تنفي التهمة عنهن.

- والله ما نعرف، إحنا مش قدامك في المطبخ، ثم إنه كان لسه في إيدك حالا يا مريم وكنتي لابساه برضه حالا!

- أديكي قولتيها، كنتم في المطبخ، مين بقى اللي عمل كده فيكوا بالمقص؟

- تقصدي إيه يا مريم، انتي اتجننتي؟ هنعمل كده ليه يعني؟

- على سبيل الهزار التقيل مثلا يا هند!

- إيه الكلام ده بس! ده انتي دخلتي جبتي البووت التاني من أوضتك ورجعتي تاني مسافة دقيقتين، هنلحق نعمل كده فيه؟!

- معرفش يا ليلى، عموما هو الموضوع مننا فينا وحسبي الله ونعم الوكيل في اللي عملت كده.

أدرك تماما أن نفس ليلى تنطوي على كثير من الغيرة، لم أنس أنها اشترت عدة مرات نفس الأشياء التي اشتريتها أنا من قبل، الغيرة تحركها، وهي من اعترضت على ارتدائي إياه، وجعلتني أذهب إلى غرفتي مرة ثانية، ولكن بما أن هذا الحذاء باهظ الثمن، فلن تقدر على شراء مثيله، فكان الحل في اللاوعي هو تقطيعه في غفلة من البنات، إنها ببساطة لا تريد رؤية أي منا في صورة أفضل منها، لقد قرأت في علم النفس عن مثل حالتها، مسكينة، ولكن ما ذنبي أنا؟

في هذا اليوم الغريب خرجنا إلى المطعم في أجواء أغرب، نظرات غير مريحة تنظرها كل منا للأخرى. لن أتمكن من العيش هكذا، يجب

أن أعفو وأسامح، مع توخي الحذر منهن جميعًا، إذ كيف ائتمنهن بعد ذلك على نفسي؟ لم نتحدث كثيرًا كعادتنا، خليط من الحزن والشك والحيرة يسبح بداخل كل منا، من فعلت هذا؟ كيف؟ ومتى؟ لاحظت نظرات الشك في عيون كل منهن للأخرى، ولكن الأهم من ذلك كله، لماذا؟ هل توجد بينهن من تكرهني إلى هذا الحد؟ لا.. لن أفكر كثيرًا، لقد أخذت حظي اليوم من الكآبة بوفرة، لابد أن ارتاح كي لا أهلك مخي وأعصابي أكثر من هذا.

بعد أن أنهينا طعامنا، ذهبنا إلى البيت مباشرة على غير عادتنا، لم نعلق على شيء، لم أجرؤ على لمس الحذاء، تركته مكانه كي ترى من فعلت فعلتها مدى بشاعتها، أنهينا طقوسنا المسائية من استحمام وتبادل أخبار أحداث يومنا، ولكن في ميعاد مبكر استعدادًا للنوم، أو بمعنى أصح للخلوة، عندما أغلقت باب غرفتي جلست وحيدة أفكر، كاد عقلي ينفجر دون الوصول إلى معنى او نتيجة شافية! لماذا يا ليلى؟ أتكرهينني إلى هذا الحد؟ لم أدرك متى وكيف رُحت في ثبات عميق حتى ظهيرة اليوم التالي.

صرخت هند وبكت في غضب عارم، علا صوتها بكلمات غير مفهومة في تشنج لم أستطع أن أتبينها، ليس بحلم، استيقظت وهي تصرخ بالفعل فينا جميعًا، فتحت علينا أبواب الغرف وأضاءت الأنوار واستمرت في الصراخ.

- أنا لازم أعرف مين اللي عمل كده فيكوا بقى؟!

حاولت عيني أن تستوعب الإضاءة الآتية من فوقي مباشرة بعد ظلام دام لساعات.

- وطي صوتك يا هند مش فاهمة حاجة! حصل إيه؟

- مين اللي قطعلي المحفظة الجلد بتاعتي كده؟ دي مقصقصة!

ألقت بالمحفظة المصنوعة من الجلد الطبيعي (باهظة الثمن) في وجهي، وسط ذهولي وذهول ليلى وياسمين المسرعتان وراءها من غرفتيهما، بعد أن فزعا من صراخ هند الذي لا يأخذ هدنة، المحفظة مقطعة بنفس الطريقة التي قُطع بها حذائي بالأمس! الغالب إنها مقصوصة أيضًا، لحظات الذهول الآتية من تخبط الأفكار تظهر مرة أخرى على أعيننا، ما الذي يحدث؟ من منا التي تجرؤ على فعل تلك الأفعال؟ هل يمكن لسخافات صغيرة تصدر بين الحين والآخر من إحدانا أن تكون مصدر انتقام بكل هذا الغل!

نظرت إلى ليلى أحمل علامة استفهام؟ ويقين أننا سوف نعرفها، وعندها لن ندعها تعيش معنا لحظة واحدة، لا شيء يدوم، سوف تنكشف قريبًا، إلا أن عيون هند ظلت تتنقل بيننا في شك.

- مبلمين يعني؟ مين فيكم اللي بتعمل كده؟

- دي متقطعة بنفس طريقة تقطيع البووت بتاعي! كأنها ترنشات صغيرة! إيه كل الغل ده؟

أسرعت ليلى في ردها.

- تقصدوا إيه بقى يعني؟ هقطع حاجتكوا ليه؟

- أنا ما وجهتلكيش الكلام، بتردي ليه بقي؟

- إنتي از......

- إيه يا بنات... أنا بجد مش مصدقاكوا إزاي بتفكروا كده؟ بس مين بس اللي يعمل كده؟ مش قادرة أصدق!

أردفت ليلى.

- جرى إيه يا ياسمين إنتي هاتخيبي إنتي كمان ولا إيه؟

- بصوا بقى، أنا المحفظة دي كانت أكتر حاجة بحبها في حاجتي، وكانت من أغلى الحاجات عندي، بحافظ عليها ومش بهلكها، اللي عملت كده فيكوا أنا مش هاسيبها.

خرجت هند من غرفتي، ووراءها ليلى وياسمين في تتابع على مهل وكأنهن يجررن أرجلهن من الصدمة، أغلقت الباب على نفسي للمرة الثانية ولم أدر ماذا أفعل؟ كيف أفكر هذه المرة؟ بالأمس كنت أتهمهن، واليوم أنا في عداد المتهمين؟

على الأقل أعرف الآن أنها ليلى أو ياسمين، وبالطبع أرشح ليلى بقوة، فهي الوحيدة التي تغار من أي شيء ليس بحوزتها، أو حتى لا تستطيع شراءه، الوقت سوف يثبت للجميع صحة تفكيري.

* * *

(٣)

في الأيام اللاحقة لهذه الأحداث، تغيرت أحوالنا، دخل الشك قلوبنا ولم يعد الأمان صديقا كما كُنا من قبل، بل مجرد سُكان نتشارك في الأجزاء المتبقية من الشقة كالمطبخ والحمام، وبعض الأماكن التي نتحاشى فيها التلاقي مثل مكان المرآة التي نتزين أمامها قُبيل مُغادرة البيت، تزورنا صديقاتنا كُل منا على حدة، نستقبلهم في غرفة «السنترال» وقد أصبحت ملجأنا، نتحدث في أدق تفاصيل أسرارنا، حذرين أن تسمع أي واحدة من الأخريات تخوفاتنا وشكوكنا في بعضنا البعض.

من فعلت فعلتها لا تتوب ولا تخاف، نقودي تُسرق من المحفظة، الفئات الكبيرة فقط! المبالغ الصغيرة باقية، أخبىء دوما فئات النقود الكبيرة بجيب خفي داخل محفظتي ومع ذلك تختفي النقود، من يعلم بهذا الجيب الخفي في محفظتي؟ لا أحد يعلم! لا أحد على الاطلاق! لابد وأنها تراقبني أو أني نسيت.وفتحت المحفظة أمام إحداهن من قبل، ربما.. فقد كنت أستشعر كامل الأمان، ما كل هذا الخبث!

ذات يوم خرجت ليلى لتشتري حقيبة يد تشبه حقيبة ياسمين الجديدة، كانت قد ذكرت أنها أعجبتها عندما اشترتها ياسمين، عندما رجعت نظرت إليها ياسمين في ريبة، رأيتهن من زاوية بعيدة دون أن أتدخل أو تراني ياسمين، استفزتها نظراتها فسألت.

- في إيه يا ياسمين؟ اجيبلك صورة أحسن؟

- أنا مش هرد عليكى، بس عيب كده، عيب اللي بتعمليه، الأول تقطعى بووت مريم وبعدين تقطعى محفظة هند، عشان نتلبخ فيهم وما نفكرش في حاجة تانية؟ دلوقتى بتسرقى فلوسنا! لأ وإيه برافوا عليكى، الفكة مش مقامك، خشي على التقايل، حلوة الشنطة دى، مش غالية شويتين عليكى؟ ولا إيه؟ طب لما تسرقى مصروفي الشهري أنا أعيش بإيه؟ ليه كده يا ليلى؟ ومع ذلك أنا مش هقول لهم يمكن ترجعى لعقلك وربنا يتوب عليكى؟

تركتها ياسمين متجهة إلى غرفتها، أحست ليلى بدوار مفاجئ بعد أن كُشف سرها، استندت إلى الحائط في وهن إلى أن وصلت إلى غرفتها، تلاقت أعيننا فنظرت إليها بعتاب حقيقي ولم أنطق بكلمة واحدة، مع ذلك أسرعت لأسندها إلى غرفتها، رفضت بقوة وأزاحت يدي بعيدًا وهي تبكي! أعرف ظروفها المادية جيدًا، وأعرف أنها مثل كل البنات، تريد أن ترتدي أحدث الملابس وأن تمتلك ما نمتلكه، لكن هذا لا يعطيها مبررًا لسرقتنا وخيانتنا.

وبدأت حُقبة جديدة أعيشها في قلق وشك، لا أفارق حقيبتي ليلًا أو نهارًا خشية السرقة المستمرة التي لا تتوقف، لكن رغم كل الظنون راودني إحساس أن ردة فعل ليلى لا تُنم على أنها الفاعلة، أعرف هذه النظرة العميقة في عينيها، نظرة مظلوم عز عليه تخوين الأصدقاء، فلم يستطع الدفاع ولم يقاوم إحساس المرارة، هل هذا ممكن؟ أم أني طيبة القلب أكثر مما ينبغي؟ أحسست بالشفقة عليها وأحسست بالخجل من نفسي، من الأكيد أنها تغار ولكن من غير

الممكن أن تسرق! ليست ليلى؟ كما أنها ليست بهذا الذكاء الذي يجعل منها مُراقبة وسارقة محترفة، ليست ليلى ولا هند؟ هل من المعقول أن تكون ياسمين؟ وهي التي تشوه الحقائق حتى تنوء بنفسها عن الصورة الكبيرة؟ أم أن هند من فعلت بحذائي ما فعلت ثم قطعت محفظة نقودها لتنتفي الشبهات عنها تمامًا؟

في صباح اليوم التالي غادرت المنزل مُتجهة إلى الكلية، تخطيت بضعة حواري وشوارع ضيقة حتى أصل إلى الشارع الرئيسي، مررت على دكان الحج أمين فوجدته مُغلقًا، ثم رأيت «عماد» بالقرب منه، لا أعرف لماذا أحس بشعور مختلف تجاهه، أرغب في التحدث معه، ربما فضولي الذي أعاني منه يريد أن يعرف أكثر عن هذه الشخصية المُنطوية، أو ربما مجرد فراغ عاطفي.

تجاهلت إحساسي واستقللت تاكسي إلى الجامعة، أفكر كثيرًا دون جدوى، تقترب المسافة من الجامعة، والذي تلزمني التركيز لبضع ساعات يترتب عليها مستقبلي، وهديتي لأبى، يُعلن السائق عن الوصول، أفتح حقيبتي التي لم تعد تفارقني ليلا نهارا لأفتح المحفظة.

- معاك فكة ٢٠٠ لو سمحت؟

أقولها بثقة قبل أن أفتح «السوستة الخفية»، التي تأوى الفئات الكبيرة من النقود، فما أملك من فكة لن يكفي أجرة التاكسي.

- أشوفلك يا أبلة.

لم أجد من النقود، فقط بعض الفكة المنثورة.

- يا نهار أسود؟

- في حاجة يا أبلة ولا إيه؟

- مش لاقية الفلوس! إزاي بس يا ربى؟

لم يُعلق وأخذ ينظر نحوي في ريبة، وأنا أنفض المحفظة والحقيبة بلا أمل، لململت كل ما أملك من فكة حتى أكملت حقه، نزلت في شرود مع ما تبقى من أعصاب إلى مبنى الكلية، لا أستطيع التركيز، ذهبت النقود كما تذهب الأشياء! أين تذهب؟ لم تمس أيد غريبة هذه الحقيبة! أنا شديدة التأكد من هذا! منذ أن بدأت نقودي في الاختفاء، وأنا أضع حقيبتي بجانبي، حتى أثناء نومي المُتقطع كي أشعر بأي أيد غريبة؟ تذكرت.. إحداهن كانت بغرفتي ليلا، نعم أنا مُتأكدة، لكني لم أكن أقوى على فتح عيناي، فقد كنت في نُعاس جاهدت لأحصل عليه، ونسيت أن أسألهم عندما أفقت، أم تراني كنت أحلم؟ هل أصاب عقلي شيئًا؟ هل أصابنا جميعًا مرض عقلي؟

دخلت مبنى الجامعة لكنى لم أذهب لحضور أية محاضرات، ذهبت إلى مكان هادئ بالكلية يكاد لا يمر به طلبة إلا القليل، عند شجرة عجوز تنزوي بنفسها بعيدًا عن الزحام، أردت أن ألتقط أنفاسي مستندة برأسي إليها، حاولت أن أتذكر ما أنفقته فربما كنت مُخطئة، ووسط كل هذا رأيت «عماد» مارًا أمامي، وبدون أن أعي نادته رغبتي الداخلية التي لم أقاومها.

- عماد... عماد.

تنبه وأخذ ينظر حوله فصحت.

- عماد.. أنا مريم.. أنا هنا.. على شمالك.

قُمت وعبرت بضع خطوات لأكون بمقربة منه وابتسمت، وكأنني نسيت ما بي من تشتت، لا أرى إلا عينيه، نظر لي في حياء، وابتسامة خافتة ووقف.

- إزيك يا مريم.

- الحمد لله.. أنت عامل إيه؟

- الحمد لله.

ابتسم ونظر للأرض، وبدونا كحبيبين لمن يرى، أو هكذا تمنيت، عندها لمحت بعض زميلاتى في الكلية عن بعد يُحدقن بنا فلم أبال، وأكملت حديثي.

- أنا شفتك النهارده على فكرة بس كنت ماشي بسرعة وباصص في الأرض قلت بلاش أنده عليك كان شكلك مستعجل.

- لا أوعى تعملى كده، إنتي عارفة المجتمع هنا مقفول ومبيفهموش البنات اللي زيك، خلى بالك تتفهمى غلط.

- عندك حق.

- كان في حاجة عايزة تقوليها؟

- لا متشغلش بالك.

- تعالى يا مريم ممكن نقعد مكان ما كنت قاعدة، أنا مش هقعد كتير، قوليلى مين مضايقك؟

- إيه عرفك إني مضايقة؟

- شكلك باين عليه.

- بصراحة يا عماد بيحصل حاجات غريبة معايا، قصدي معانا كلنا.

- إزاي؟

- في واحدة من البنات حرامية، مش عارفة يعنى الحرامية دي بانت على آخر السنة ليه، بس مش كان المفروض تبان من زمان؟!

- طيب أهدي واحدة واحدة احكيلي.

سردت له ما حدث، بدا عليه الاهتمام والقلق لكنه لم يعطني إجابة شافية.

- هاااا.. إيه رأيك بقى؟

- مش من البنات يا مريم.

- يعنى عفريت؟

- أنا مش هقدر أقول ده من إيه بالضبط، بس كل اللي أقدر أقوله خلي بالك من نفسك كويس.

- حاضر.

لم أقتنع بما قال عماد، أحسست بشيء غامض لكنني اكتفيت بهذه الكلمة المُريحة لجميع الأطراف «حاضر».

- صحيح انت هنا بتعمل إيه؟

- خطيبتى بتدرس هنا في آداب وساعات بعدى عليها.

- أنا آسفة جدًا عطلتك معلش.

- لا مفيش حاجة خالص، أنا مش متأخر عايها أنا بجيلها بدري عن ميعادها.

- يا بختها.

لا أعرف كيفية السيطرة على عقلي الباطن، كيف يحق لي قول شيء كهذا؟ ابتسم عماد في خجل كعادته وهم بالقيام.

- أنا همشي دلوقتي وهبقى اطمن عليكي.

- صحيح أنا مش معايا رقم تليفونك.

- متقلقيش أنا هوصلك.

تفهمت خوفه على مشاعر خطيبته أو خوفه منها.

- طيب تمام.

- سلام وخلي بالك على نفسك وبلاش ثقة في حد، في أى حد.

- حاضر.

ودعته بابتسامة خافتة ترسم احباط لا أدرى ماهيته، ولا كيف تجرأ واقتحم الموقف؟ هل أحببته؟ ليس حد الحب بالتأكيد، لكنى كنت أريد التقرب وحسب، على الأقل الآن، على الأرجح تمنيت مثيله أو أردته سندًا لي، ربما فُقدان أبى أحد الأسباب، أو كيمياء القلوب اللعينة، الآن لم يعد لدى اختيارات، فقط المضي قدمًا ونسيان هذا الشعور السخيف كلما قابلته، كانت رؤيته كفيلة بإراحة عقلي مما يحدث في البيت، على الأقل لساعتين من الزمن أو أكثر قليلًا.

في أحد الأيام نهضت من نوم مشوش غير مستقر، وبعد أن اغتسلت ذهبت إلى المطبخ أصنع الشاي بالحليب الصباحي، حملت الشاي خارج المطبخ وخرجت لأجد ياسمين أمامي تضع يدها على رقبتها وتنظر إلى في ذهول.

- السلسلة الفضة بتاعتى اللي بحبها، اللي كان فيها مصحف، فاكراها!

- مالها؟

- ضاعت!

- تلاقيها هنا ولا هناك، دورى عليها كويس.

- دورت.. قلبت الدنيا، افهمى يا مريم، السلسلة كانت في علبتها لحد امبارح بالليل، وانتي عارفه أنا بحبها قد إيه، وأنا باتفرج عليها امبارح ويشيل الخواتم الفضة رحت لبستها ونمت، أنا متأكدة، لبستها ونمت، لما صحيت ملقيتهاش في رقبتى!

- دورى في هدومك يمكن القفل فلت ووقعت فيها.

- دورت يا مريم، نفضت نفسي! قلعت هدومى ولبستها تانى!

- طيب تعالى معايا ندور في الأوضة تانى يمكن وقعت ومشفتيهاش.

دخلنا الغرفة على أمل أن نجدها فلم يكن لها أثر، تبخر أملي بعد وقت لم أحسبه وارتسمت علامات الحيرة والتساؤل على وجوهنا، كنا قد قطعنا أيامًا بغير كلام، فقط تحيات عابرة مقتضبة، في طريق ذهابها إلى المطبخ رأتنا هند داخل غرفة ياسمين، فنظرت إلينا وقررت أن تتحدث أخيرًا.

- صباح الخير.

- سلسلة ياسمين الفضة اللي بتحبها.. فاكراها؟

- انهى دى؟ آآآه آه افتكرتها، اللي فيها المصحف، مالها؟

- ضاعت!

- إمتى؟

جاوبتها ياسمين.

- لبستها بالليل وصحيت مالقيتهاش في رقبتها؟

لم تُجبنا هند مما آثار شكوكى وحيرتى للمرة المليون، فقط نظرت نظرة ذات مغزى وظلت تُحدق في الأرض طويلا، ثم رحلت، لم تتناول إفطارها، فقط ارتدت ملابسها وبعد دقائق كانت بالخارج، لم نفهم تصرفها، لم تتكلم، أتراها تعرف شيئًا؟ أم أنها تذكرت شيئا آخر، مرت علينا ليلى وكأنها لا تراني، فقط القت تحية الصباح على ياسمين وذهبت إلى المطبخ ثم إلى غرفتها، وأغلقت بابها!

لا أستطيع أن أفهم أو أستوعب ما يحدث الآن؟ تبدلت أحوالنا، ليست ياسمين إذن! هل هي ليلى؟ أم أصابتنا هلوسة وأصبحنا نسرق بعضنا البعض؟ من فيهن يا ترى تلك الممثلة البارعة؟ وأين ذهبت هند؟

ذهبت أنا الأخرى إلى غرفتي، أعد ما تبقى من نقود وما أمتلكه من أشياء في قنا، ما بال الأشياء تختفي فجأة ولا تعود؟ أين تذهب ومن التي تأخذها ولماذا؟ هل نفحص الحقائب إذن؟ أفحص حقائبي أنا أولهم، لعلى مصابة بمرض عقلي يجعلني أسرق ولا أشعر؟ لابد أن أعرف الحقيقة.

تمنيت لو أن أسمع صوت عماد أو أقابله حينها، ففي وجوده ترتاح نفسي وتستقر، وكأنه قد خدر كل ما بعقلي وقلبي من قلق، حتى ولو فترة قصيرة من الوقت.

***

(٤)

قضينا أغلب اليوم في البحث عن سلسلة ياسمين من أجل المعرفة، التي باتت السبب في ضياع صداقتنا والتخوين المستمر والقلق، جاءت ياسمين إلى غرفتي عاقدة يديها تفكر دون أن نتحدث، ظلت واقفة كما هي على باب الغرفة، لم نتناول إفطارنا أو أي وجبة، لم تعد لدينا شهية، ليلى ما زالت مكتئبة على الأرجح، تنام فترات طويلة ولا ترد أي سؤال أو أية تحية.

عند أذان العصر عادت هند من الخارج، هتفت في حماس فقدناه منذ بداية الأحداث المؤسفة.

- يا بنات.

مر كثير من الوقت نفتقد هذه الروح الحُلوة التي تُميزنا، أصبحنا نتجنب بعضنا البعض، ولم نعد كسابق عهدنا، نظرت إلى ياسمين في اندهاش وأردفت.

- تعالي يا هند.

جاءت هند وعلى وجهها علامات أمل وتفاؤل، نظرت إليها ياسمين في فضول، سألت هند.

- فين ليلى؟

أجبتها.

- أكيد نايمة.

- لأ صحوها، أنا عاوزاكوا كلكوا، الموضوع اللي بيحصلنا أنا عرفت حاجة عنه، وفي قرار لازم يتاخد مننا كلنا وحالا.

أعرف هند ومخها الصعيدى المتحجر، لن تقول شيئًا إلا بوجودنا جميعا كما قالت، أسرعت إلى غرفة ليلى وفتحتها، وجدتها نائمة كما ظننت، فتحت إضاءة الغرفة بأكملها.

- ليلى.. اصحى بسرعة، هند عاوزانا كلنا عشان اللي بيحصلنا.

أفاقت ليلى من نومها، تقاوم عينيها النور المُباغت، وتحاول استيعاب الكلمات دون ردة فعل، أخذت بيديها كطفلة فنهضت دون تفكير، ذهبنا إلى غرفتي حيث تجلس هند وياسمين في صمت وانتظار، تكلمت هند وكأنها تخطب فينا.

- بصوا يا بنات، من الآخر كده مفيش تفسير لكل الحاجات اللي بتحصلنا إلا إن في جن لابس واحدة فينا، أو عايش معانا في الشقة، أنا بصراحة مشكتش في الموضوع ده على طول لأن إحنا عايشين في الشقة بقالنا شهور، لو كان فيه حاجة كانت ظهرت من بدرى، لكن يظهر إن العيب كده في واحدة فينا، أنا من الأقصر وأدرى منكم بالمواضيع دى وشفتها كتير قدامى، يمكن حد متغاظ من واحدة فينا عملها حاجة؟ عموما هنعرف كل حاجة.

لم نتحرك حركة واحدة من أماكنا ونحن نستمع بإنصات شديد إلى ما تقوله هند، ظللنا هكذا لفترة، ثم بدأنا التلفت حولنا والنظر لبعضنا البعض، تجردنا لدقائق من شكوكنا تجاه بعضنا، لنقع في شك أكبر وأعمق وأخطر، أنا لا أؤمن بمثل هذه الأشياء، فالحافظ هو الله، لم تبد ياسمين مقتنعة أيضًا لقولها.

- جديد الكلام ده يا هند!

ولم تلق الفكرة قبولا عند ليلى أيضًا.

- وإزاي هنعرف بقى إن شاء الله؟ إوعى تقولي هنجيب دجال في البيت؟!

- لأ دجال إيه يا شيخة؟ هنروح لشيخ، شيخ كويس جدًا أعرفه وأهلي كمان يعرفوه، أنا كلمته في التليفون لما سلسلة ياسمين ضاعت، كان كتير بقى اللي بيحصل ده، قالى يا اما واحدة فيكم ملبوسة يا إما البيت مسكون!

- يعني من دماغك كده يا هند بدون ما تقوليلنا، روحي إنتي وشوفي مين هيروح لو موافقين، أنا مش رايحة للناس دى.

- يا ليلى مفيش حل قدامنا غيره، مين أخد سلسلة ياسمين؟ مين قطع بووت مريم؟ مين قطع محفظتى؟ مين يوماتى بياخد الفلوس من محفظتى أنا ومريم؟ لولا إن ياسمين معتمدة على الفيزا كان اتسرقت منها فلوس أكتر كمان؟

لم تجبها ليلى فنظرت لها هند في شك وتابعت.

- قوليلي مين يا ليلى لو عارفه؟

- تقصدى أنا يعنى؟

حينها لم أقصد الاتهام المباشر، لكننى أردت أن أفرغ ما يدور بداخلى.

- معلش يا ليلى يعنى، ما هو إنتي الوحيدة اللي محصلكيش حاجة! حطى نفسك مكانا إحنا، كنت هتفكرى إزاي؟

- يعنى إنتي موافقة يا مريم نروح لدجال؟

انطلق صوت هند مُدافعًا.

- شيخ مش دجال يا ليلى.

نظرت إلى ياسمين في تردد.

- مش عارفة، أفكر، ياسمين إيه رأيك؟

- والله أنا تعبت، أنا مبحبش الناس دى، بس لو هيقولنا في إيه وإنتو هتروحوا هاضطر أروح.

تضغط هند على نقطة ضعفنا الآن، وهي «معرفة الحقيقة».

- مريم، مفيش وقت للتفكير، هو مستنينا بعد المغرب على طول، لازم نقوم نلبس دلوقتى، على بال ما نروح المشوار ده يا دوب.

- هو فين يا هند؟

- في «البياضية».

- فين دي؟

- بين الأقصر وإسنا.

- ودي هنركبلها إيه دي؟

- ياللا ياللا يا بنات أنا عارفة الطريق.

قاومت ليلى.

- أنا مش رايحة، فكونى من الحوار ده.

لكنني ضغطت عليها بنفس أسلوب هند.

- ليه يا ليلى مش عاوزة تروحي، أصلا كل الشكوك ناحيتك وإنتي مش عاوزة حد يعرف حاجة ليه؟ اللي مش راضي يروح يا بنات يبقى هو اللي بيعمل كده فينا أو هو اللي عنده المشكلة بقى؟

- أوووف... أمري إلى الله.

في أقل من نصف الساعة كنا جميعا مستعدات للخروج، نرتدى ملابس بسيطة، يعلوها «البالطو» لما له من دور فعال في مواجهة برد شتاء الصعيد القارس، ارتدت هند «عباءة سوداء» وأمسكت سبحة بيديها مما جعلني أضحك على هيئتها، أغلقنا البوابة الحديدية الزرقاء قُبيل موعد أذان المغرب، مارين على الحوارى الضيقة النظيفة، وما إن وصلنا إلى الشارع الرئيسي حتى استقللنا سيارة أجرة قاصدات موقف أتوبيسات قنا، طغى علينا إحساس المغامرة، إلا هند كانت في مهمة رسمية كبيرة وخطيرة، لاحظت أني ارتديت طرحتي الخضراء الخفيفة التي لن تغنى عنى شيئًا في مساء طقس شديد البرودة،

على العموم لقد تأخر الوقت كي أعود وأستبدلها، ولا أمتلك ما يكفي من النقود لشراء أخرى في طريقنا، فقد سُرقت جميع نقودي إلا القليل، أتمنى أن يكفي لشراء الطعام والمواصلات حتى ترسل أمي نقودا أخرى، ولكن لماذا ترسلها؟ كي تُسرق من جديد؟ لا أريد نقودًا حتى أعرف أين تختفي.

وصلنا موقف الأتوبيسات ثم ركبنا ميكروباص (قنا - الأقصر)، وصلنا الأقصر ولم يدُم البحث طويلًا عن ميكروباص آخر (الأقصر - إسنا)، يبدو أن هند تعرف الطريق جيدًا كما قالت، استغرق الطريق كله ساعة ونصف الساعة تقريبا، هاتفت هند الشيخ لتخبره عن قُرب وصولنا.

قرية «البياضية» تقع في منتصف الطريق تقريبًا بين الأقصر وإسنا، أو لنقل في ثلثه الأول، وصلنا عند قهوة بجانبها كنيسة، كان لابد أن ينتظرنا الشيخ هناك ليأخذنا إلى داره، هند تعرف الطريق إلى الكنيسة فقط، ولا تتذكر جيدا أين يقع بيته، خاصة مع حلول الظلام وقد وصلنا بعد أذان العشاء. نزلنا من الميكروباص فوجدناه منتظرًا، يرتدى جلبابًا أزرق، تلف رقبته كوفية حمراء، وصندل أسود جلدي، طويل، أسمر، رشيق، أسود العينين، يبتسم ابتسامة مُخيفة بعض الشيء، أظافره طويلة مُتسخة، مد يده مصافحًا، وليس هذا من عادة شيوخ الصعيد.

- أهلا وسهلا يا بنات.. إزيكم؟

اتسعت ابتسامة هند في تفاخر.

- الشيخ «ماهر» يا بنات.

رددنا جميعًا.

- أهلا وسهلا.

سار وهند في المقدمة، وأنا وياسمين وليلى وراءهن، لم نتوقف عن الضحك على أتفه الأسباب، لا أدرى ماذا حل بنا، ربما لأنها مغامرتنا الأولى، أغلب الظن أننا سوف نضحك ونستمتع كثيرا الليلة، لم نلاحظ معالم الطريق من كثرة الضحك، كل ما تذكرته أن البيت يسبقه ممر طويل على يمينه زرع طويل رُبما قمح، ولا أدرى ما يحده من جهة اليسار، عبرنا هذا الممر الطيني التربة وراءهن لندخل فناء كبيرًا واسعًا، أمامه منزل طيني صغير مطلى باللون الأبيض، ميزنا اللون على ضوء إضاءة ضعيفة مُعلقة خارج البيت، على يسار المدخل كلبين طولهما يقترب من طولنا، لونهما أسود فاحم، ينبحان بلا توقف ويثيران الخوف والتوتر بيننا، عيونهما تضيء في الظلام، لاحظ الشيخ حالنا وقال مطمئنًا.

- اتفضلوا يا بنات واقفين ليه؟

يتكلم الشيخ متبسمًا هادئًا بلهجته الصعيدية الحادة المُشابهة للهجة هند، نظرنا إلى الكلاب في خوف.

- متخافوش دول مربوطين.

أكمل جملته والكلاب لم تتوقف عن النباح إلا بنظرة واحدة منه، أسكتتهما وأسكتتهما ثم رجعا خطوات للخلف وجلسا، شاهدنا ما حدث فسرت فينا رجفة، ليست مغامرة خفيفة الظل كما توقعنا،

ولكن لابد من إكمالها فلا مجال للتراجع الآن، بلا شك وقعنا تحت تأثير الأجواء المحيطة، فمن الطبيعي أن تسيطر على حيوانك الأليف، ها نحن نقف على عتبة بيته.

- اتفضلوا يا بنات، تعالوا من هنا.

تركنا البيت الطيني الصغير أمامنا واتجهنا ناحية اليسار، مشينا وراء هند ننظر إلى كلابه والنور الخافت يضيء أعينهما أكثر، وهما مازالا محدقين نحونا، نزلنا بضع درجات إلى غرفة تحت الأرض، في هذه اللحظة تملك الخوف منا دفعة واحدة، الغرفة صغيرة، لون جدرانها أزرق فاتح اللون، باب دخول الغرفة يقع في منتصفها بالضبط، في مواجهة الباب مقعد خشبي، فوقه مباشرة عُلقت سجادة صلاة زرقاء قاتم لونها، بجانبها على اليمين صورة السيدة العذراء تحمل السيد المسيح في وداعة، وبجانبها على اليسار صورة ثالثة لفرعون مهيب لم أميزه، على يمين الغرفة كنبة قديمة الصُنع كبيرة ملتصقة بالحائط، وعلى يسارها مكتب صغير فوقه كتب كثيرة قديمة وجديدة، عليه أباجورة ذات إضاءة حمراء، على جانبي المكتب يوجد كرسي واحد جلست عليه هند، وجلست أنا في منتصف الكنبة عن يميني ليلى وعن يساري ياسمين.

كان الرجل على درجة كبيرة من الأدب واللطف، جلسنا صامتات فأراد أن يكسر الجليد، أخذ يسألنا عن دراستنا وأحوالنا في الجامعة، خُضنا في هذا الحديث لدقائق، وبعدها قال «إن العلم نور

حقيقي للإنسان وأن للعلم درجات كثيرة، منها المميزة وهى التي خص الله بها بعض عباده الصالحين، وان الشخص المُتعلم حقًا يضيء نورا لمن حوله» ثم أعطى كل منا ورقة بيضاء متوسطة الحجم لتكتب فيها اسمها واسم والدتها وتقوله بصوت عالٍ ففعلنا وعندما جاء دور ليلى.

- ليلى بنت حبيبة.

ابتسم الشيخ في ثقة غريبة.

- لا يا ليلى، إنتي اسمك لولا مش ليلى، إنتي مغيراه بس عشان مش عاجبك.

- لأ اسمي ليلى.

- لأ اسمك مش ليلى يا لولا، أنا آسف بس دي حاجة ما تزعلش؟ ده اسمك!

لم يُعجب هند ما يحدث فقررت أن تنهيه.

- لأ إنتي اسمك لولا وإحنا كلنا عارفين.

نظرت ليلى إلى هند في حنق وصرخت فيها.

- وإنتي مالك إنتي؟

هنا أحسست أنه أبله فاستخففت به، نظر إليها الشيخ ثم سألها في تحد عن ملكية بيتها وكأنه يعرف ما تخفيه ويسخر من كذبها، وكأنها لعبة مُسلية، الغريب أن ليلى بدت كاذبة أيضًا فضحك بمكر وقاطعها.

- خلاص يا بنتي.. ساكنة مالكة ولا مأجرة... ما علينا.

ثم التفت إلى.

- لابسة أسود ليه يا مريم؟

- والدى توفي.

نظر إلى في ثقة وقال.

- توفي من أكتر من شهر ونص، ليه لسه لابسة الأسود؟ المفروض نمشى تبع السنة الشريفة يا مريم.

قلت وقد غلبني الذهول.

- صح؟

نظرت إليه في شك وأردت أن أعيد تقييمى، فالرجل ليس أبلهًا كما توقعت، فكرت وقتها أن هند زودته بالمعلومات إن لم تكن معه، لكنني استرجعت أنها تضررت مثلى تماما أم تراها خدعة كبيرة منها؟ آثرت أن أركز فيما أنا فيه الآن وأترك التفكير لاحقا، قاطع تفكيري قائلًا.

- شوفوا يا بنات، هقرا على كل واحدة فيكم لو واحدة فيها حاجة هيبان، لو كنتم كويسين يبقى نشوف الشقة.

صحت في أمل وخوف.

- يعنى تيجى معانا الشقة؟

- لأ.. من غير ما أروح هعرف من هنا.

بدأ «ماهر» طقوسه لمعرفة المُصابة، بدأت هند الطقوس وكأنها مُعتادة عليها، قام من مكانه ووضع يده اليمنى على رأسها، وبيده اليسرى مسح على جبينها، ثم أخذ في ترديد عبارات غير مفهومة بلغة غريبة بصوت خفيض، ثم ردد (وجعلنا من الشجر الأخضر نارا) وقد لاحظت أنها من الآية القرآنية في سورة ياسين بسم الله الرحمن الرحيم «الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا فإذا أنتم منه توقدون» في صوت مسموع، بعدها ظل يردد عبارة (يا بدوح .. ثم يتمتم بصوت خافض كلام لا نسمعه يا بدوح.. ثم يعود ويتمتم بصوت خافض كلام لا نسمعه يا بدوح) بصوت عال مُفزع، عندها انتفض جسده وتشنج وهدأ في نفس اللحظة! تشنُج وهدوء في نفس الوقت! إنه يتصنع بلا شك!

لكننا شاهدنا هند وقد اختفي سواد حدقة عينيها، وانقلب إلى الأعلى، وتحولت عيناها إلى اللون الأبيض فقط، انتابنا ذهول لا يخلو من خوف، كنا نتابعها في ترقب وفضول، أما ليلى ظلت تُمعن النظر فقط في صورة الفرعوني على الجدار أمامها، بعدها طلب ورقتها البيضاء ليجلس ويكتب عليها بلون برتقالي غير مرئي كلمات غير مفهومة أيضا. (عرفت ذلك عندما جاء دوري وهممت بالنظر إلى ورقة ياسمين الملقاة على المكتب من باب الفضول)، ثم قامت ياسمين لتجلس على نفس الكرسي المقابل للمكتب وتنضم إلينا هند، نفس الطقوس وحركة العين والتشنجات والعبارات مع ياسمين لا يوجد أي فرق، ثم الكتابة على الورقة البيضاء وضمها إلى ورقة هند.

جاء دوري، كنت قد نلت حظي من الخوف ولا أريد المزيد، استسلمت وأقنعني أنه لا داعي للخوف خاصة وأن البنات على ما يرام مثلما أرى، لكن وما إن بدأ بترديد كلمات «يا بدوح.. يا بدوح» حتى أحسست برجفة سرت في جسدي كله وتوقف عقلي عن التحليل.

كانت ليلى معنا بجسدها فقط، عيناها وعقلها مع الفرعون المُعلق، أمضت كل هذا الوقت في تأمل وكأنهما يتحدثان، قامت ليلى وأدت كل الطقوس ولكن من الواضح أنها أنهكته جدًا واستهلكت من الجهد ما بذله مع ثلاثتنا! آثار التعب على وجهه بدت واضحة، جلس منهكا خلف مكتبه، يجاهد كي يرسم ابتسامة.. ينظر في أوراقنا البيضاء التي أمامه بعد أن ملأها بالحبر البرتقالي والكلمات المُلبكة والدوائر والنجوم ورسوم أخرى كثيرة، لكن فضول هند لم يهدأ.

- ها يا سيدنا.. مين فينا فيها حاجة؟

أشار الشيخ أن كُل منا بها مشاكل صغيرة مثل الحسد لهند، وريح جن لياسمين، وكلها أمور تُحل بوسائل بسيطة، لبس الفضة، الاستحمام بورق نبق، وما إلى غير ذلك من وصفات يرددها أمثاله، كنت وياسمين نستمع في تهكم، ردت ياسمين في حدة.

- لو عندي ريح جن صحيح.. طيب ما أقرأ سورة البقرة؟ إيه اللي يخليني أطلطل؟

- وماله اقرى سورة البقرة طبعًا.

- بس أنت مقولتش كده الأول، تقول نبق وفضة ومتجيبش سيرة القرآن، إزاي شيخ ومتعالجش بالقرآن؟

تبسم الشيخ ابتسامة صفراء ولم يعلق، التفت إلى سريعًا.

- خليكي إنتي بعدين يا مريم هرجعلك،

ثم نظر في حيرة إلى ليلى وهي ما زالت تحدق في الفرعون وقال.

- ليلى.. الشيوخ اللي بتروحيلهم عاملين أحلى شغل، التحويطة اللي عملاها قوية جدًا ومش مخليانى شايف أي حاجة عندك.

أعرف أن عمل التحويطة شيء مُعتاد ومهم لدى أغلب أهل الصعيد، لتحويطهم من أي شر لهم وأهل بيتهم، فلا يستطيع أحد إيذاءهم عن طريق السحر ولا الحسد ولا يمسهم جان.

لم تقاوم ليلى كلامه عن التحويطة فصمتت، أدرك أنها لن تقاوم مرة أخرى فاسترسل وتكلم عن حبيبها السابق الذي تزوج حديثا، ولامها لتركه حيث إنه ما زال يحبها وكان على أتم الاستعداد لفعل أي شيء من أجلها، ثم ابتسم في خبث وقال.

- بس انتو في حاجة مزعلاكم يا بنات.

قررت أخيرًا ياسمين أن تشاركه شيئًا لعله يجدي نفعًا.

- وماله نقولك زعلانين ليه، زعلانين على حالنا المايل، كل البنات بتتخطب إلا إحنا قاعدين زي الفقر.

- نعملكوا حاجة طيب، عاوزة تتجوزي مين يا مريم؟

- عاوزة أتجوز مين!

- لو عاوزة تتجوزي حد معين هاتيلي اسم أمه بعد كده وتعالى، طيب يا بنات.. نعمل دور شاي ونكمل.

قام وأتى بالشاي في دقيقتين فقط كأنه جاهز دائمًا، لم نأخذ أي فرصة للتعليق على أي شيء، رأت ياسمين الشاي ولم تستطع مقاومة إدمانها له فأخذت كوبا شربته حتى آخر رشفة دون تفكير، هند لا تشرب الشاي مطلقًا فاعتذرت، بينما ساورتني الشكوك أنا وليلى، وأحس بنا فلم يلح علينا كعادة الصعايدة، تركنا نفعل ما تستريح إليه أنفسنا، بعد أن رأيت ياسمين سليمة لم يصبها مكروه بعد شربها للشاي عن آخره، أخذت كوبا على مهل، نظر إلى ماهر وابتسم وكأنه عرف ما دار بعقلي، أخذت رشفةً صغيرة على مهل، تشجعت ليلى واخذت نفس الكوب من يدى وشربت قليل من الباقي، كان شايا صعيديًا أصيلًا بالنعناع حلو المذاق، بعد أن شربت الشاي أصابتني لوثة ضحك هستيرية لا أعرف لماذا، وبدأت سخافاتي تظهر معه.

- انت بتشتغل إيه يا شيخ؟

- دكتور روحانيات.

- بالعربي ولا بالإنجليزي؟

- أنا اتعلمت العلم ده في نيجيريا.

- وكنت مبسوط هناك؟

- جدًا.

- وايه اللي رجعك تانى؟

- بلدى أولى بيا، وولادى لازم يعرفوا بلد أبوهم خاصة إن أمهم نيجيرية.

انفلتت ضحكة عالية من القلب.

- يعني زي دكتور زويل كده لما رجع عشان يفيد بلده؟

نظر إلى الشيخ في تحد.

- على راحتك يا مريم.

عادت ابتسامته الصفراء، هند تنظر إلى في غضب، ياسمين تبتسم بينما ليلى لازالت تحلق مع الفرعون المُريب على الجدار الأزرق، أقوم بحركات فجائية متتالية وألملم أطراف حجابي وأساوى ملابسي عازمة على القيام وإنهاء هذه الجلسة السخيفة.

- ياللا ياللا يا بنات، إحنا اتأخرنا قوى.

- لا يعنى إزاي تمشوا، أنتم زي بناتي، باتوا معانا والله، وسط مراتي وولادي دول هيفرحوا قوى، قوليلهم يا هند والله.

- الله يخليك يا سيدنا.

أردت أن أوقفه وأعود بذاكرته أنه فقط أداة لتسهيل أمر ما وأننا لسنا أقرباءه.

- طيب حسابك كام بقى؟

- لا لا لا أنا مش هاخد فلوس، هتدينى فلوس على إيه؟

- مش عارفة بس مجهودك برضوا.

- قوليلهم خلاص يا هند.

دنيت من أذن هند.

- هو هيبقشش علينا ولا إيه؟

- خلاص يا مريم إحنا أصلا لينا معاه حساب، بقولك يا شيخ أنا عاوزة حاجة تشيل عنى الصدة.

كانت ياسمين صامتة وليلى أول الفارين إلى الباب، وقفت على عتبته بينها لا تزال تحدق في الفرعون، عندما وصلت بالقرب من ليلى سمعت صوته يناديني

- يا مريم... هاتيجى هنا تانى، خدى ده رقم تليفونى والعنوان.

كان واثقًا مما يقول باستفزاز، أخذت الورقة ودسستها في الجيب السحرى بالمحفظة، وقفنا جميعا نرى ما يفعله لهند.

- ثوانى بس يا بنات، اعمل لهند «فتح طريق».

كنت أعرف هذا المصطلح لكن هذه المرة الأولى التي أراه فيها، جاء بورقة بيضاء طويلة ثم طبقها كالمروحة الورقية، كتب طلاسم غير مفهومة بقلم حبر أزرق، استطعت أن أقرأ كلمة «الله» في نصف كل مقطع من الطلاسم بوضوح، إلى جانب بعض الحروف المتناثرة فكان لا يكتب (نحن) كلمة واحدة ولكن (ن ح ن)، طبق المروحة الورقية في قطعة قماش قديمة ألوانها أزرق وأحمر ثم أخاطها باحتراف.

حينها تذكرت صديقة لي في الجامعة من الأقصر، تدرس في كلية إعلام، فقيرة الحال والجمال، أحبت معيدًا في الكلية وأرادت الزواج به، كان شيئًا من الخيال أن تفكر بمثله، الشاب متفف من طبقة اجتماعية ومادية أعلى كثيرًا ومختلفة تمامًا عنها، ذهبت إلى «شيخ» في «إسنا» أمثال ماهر وما أكثرهم في الصعيد، خاصة

الأقصر وإسنا وما حولها، لم تمر السنة الدراسية وسط ذهولنا جميعًا إلا وقد تزوجت هذا الشاب، لم تبذل أي جهد معه، لم تبرهن أنها بنت أصيلة وسوف تقف معه في حلو أوقاته وأحلكها سواد، لم تُرهق نفسها في تعديل هيئتها أو تنحيف بدنها، لم يعرفها جيدًا، لم يختبرها في مواقف كما يفعل باقي الشباب، لم يهتم بمستوى أهلها ولا بقلة جمالها، لكنه أتاها وتمنى الزواج بها، ذهب إلى أهلها وقدم كل فروض الطاعة من أجلها في أقل من شهر وتزوجها في غضون السنة قبل أن يخطفها رجل آخر كما كان يقول في هوس دائما!

لم يستغرق فتح الطريق ثلاث دقائق كاملة، أخذته هند في غير هيبة ولا ريبة.

- أحطه في صدري يا شيخ؟

- حطيه دلوقتى في صدرك، لما تروحي شيليه تحت المخدة الجنب اليمين ونامي على جنبك اليمين، غير كده هتضطرى تخلعيه كل ما تروحى الحمام.

قبل أن نخرج من الغرفة همست ياسمين في أذني «هو هيعمل إيه بالورق اللي فيه أسامينا؟»، فتنبهت وبدا على صوتي القلق.

- صحيح يا شيخ فين الورق اللي فيه أسامينا؟

ابتسم نفس ابتسامته الصفراء.

- آآآه الورق، ماتقلقوش.

مزق الورق قطعًا صغيرة عدة مرات حتى أصبح لا شيء، عرضت أن نأخذ قمامته بالخارج معنا، فواجهتني ابتسامة تحذيرية بها

تحمله الرجل من استهزاء واستخفاف، الآن يجب أن نرحل وكفا كل ما كان، أسرعت البنات أمامي بخطوات وكنت الأخيرة على مقربة منه فناداني.

- مريم.. إلا صحيح.. مفيش حاجة عندكم في البيت أثرية؟

- زي إيه؟

- زي صندوق خشب مثلا؟

- وأنت عرفت إزاي؟

- أنا أعرف وأنا قاعد هنا مش لازم اتنقل، الصندوق ده هو سبب اللي انتوا فيه، أنا ممكن آخده وأكشف عليه وأريحكم.

- بس الصندوق ده مش ملكنا، ده بتاع الحجة صاحبة البيت ولازم أكلمها أسألها الأول.

- على راحتك بس أكيد هي مش هترضى.

- أكيد ليه بقى؟

- لأنه أثرى والله أعلم جايباه منين، إنتي عارفة تجارة الآثار في الصعيد، عموما فكرى وردي عليا.

- مش هديهولك إلا لما تيجى صاحبة البيت هى تديهولك، وده اللي عندي.

- عموما معاكى رقمى وعنوانى وشاورى عقلك يا بنت الناس.

هل يرانى بلهاء إلى هذه الدرجة هذا المُشعوذ المُختل، ربما عرف عن الصندوق من هند، وربما من شياطينه، لكنني لن أفرط فيما ليس

لي أبدا خاصة أنه أثري، لن أخون الأمانة ليبيعه هو بأعلى الأثمان، كانت حجته المسكينة أن الصندوق هو السبب، إذا كان هذا هو السبب فلماذا لم يوضح ذلك أمام كُل البنات؟ حيلة ساذجة من دجال مُحتال.

خرجنا من هذه الغرفة، أو المغارة إن صح التعبير في الساعة الحادية عشرة مساء، نظرنا إلى الكلاب فبادلتنا نفس النظرة الحادة التي لم تعد تُخيفنا دون أن تنبح، مشيت أنا وياسمين وليلى أولا والشيخ وهند وراءنا، عبرنا الفناء الكبير ولاحظنا أن البيت الطيني الصغير مغلق هذه المرة بلا أصوات، ربما نام أهل البيت، في ليالي الشتاء في قلب الصعيد لن تجد سوى القطط والكلاب في الطرقات، في القُرى كل شيء يسكن بعد صلاة العشاء حتى ذوات الأربع.

خرجنا في حالة عكسية لما أتينا عليه، بدأنا نتلفت حولنا في استقراء للطريق، الجو شديد البرودة، سواد الليل فاحم كئيب لا ترى منه شيئًا، لا تسمع صوت أي من المخلوقات، وكأننا في مدينة أشباح، فقط حفيف الزرع وتخبطه ببعضه في الهواء، الإنارة موضوعة على استحياء كل عدة أمتار كثيرة للإرشاد، إضاءة خفيفة جدًا ترهق عينيك عند تبيُن الطريق، مشينا في الممر الطويل للمرة الثانية، عرفنا أن جهة اليمين بها ترعة أو بركة راكدة.

أدركنا أنه البيت الوحيد بين الزرع والترعة، لا يوجد حوله أي بيوت أخرى، ولا أي شيء على الاطلاق، مشينا وكأننا كنا مغيبات لفترة من الزمن، وقد صفعنا الهواء البارد على وجهنا صفعة قوية لزوم الإفاقة، نظرنا إلى بعضنا البعض نفس النظرة المحملة بالغضب

واللوم والندم، ساد الصمت بيننا لفترة ثم تكلمنا أخيرا وكانت بداية اللوم لياسمين.

- إحنا إزاي عملنا كده يا بنات؟ إحنا كنا مغيبات أكيد، ده إحنا حتى ما قلناش لأهلنا؟ يعنى لو كان حصلنا حاجة ولا حد كان هيعرف إحنا فين.

وكأنني نصف واعية تساءلت.

- عندك حق يا ياسمين أنا مش قادرة أصدق، شوفتوا الكلاب؟ شوفتم لما بصلهم وسكتوا؟

خرجت ليلى عن صمتها منذ رأت الفرعون المعلق على الحائط.

- يا جماعة اللي أكتر من الكلاب صورة الفرعون.

- صحيح يا ليلى إنتي كنت قاعدة مبحلقاله طول القاعدة وما نطقتيش كلمتين على بعض؟

- عاوزة أقول على حاجة بس ما تتضخضوش، كلكم كانت عينكم بتقلب لفوق وبتبقى كلها بيضاء لما كان بيقول (يا بدوح يا بدوح)!

تذكرت ما رأيته أنا أيضًا.

- آه شفتكم كلكم وإنتي كمان يا ليلى على فكرة.

واندفعت ياسمين مثلنا تتذكر.

- آه شفتكم برضه بس مارضيش أخضكم، يا نهار أسود!

أكملت ليلى.

- الفرعون اللي على الحيطة، كانت عنيه بتقلب بالتوازى مع كل

واحدة فيكو عينها بتقلب، حركة عين مريم كانت نفس حركة عينه بالظبط! وهند وياسمين! والله العظيم.

قلت في توكيد.

- وأكيد إنتي بقى كمان طالما عينك قلبت يبقى أكيد عينه قلبت معاكى!

أردفت ليلى في سخافة.

- يمكن.

استكملت ملاحظاتى.

- على فكرة أنا وهو بيقول الكلمة دى حسيت صوابع إيدي بتعمل حركات غريبة في الهوا، الغريب إني مكنتش عارفة أسيطر عليها، كأنها كانت بترسم كلام؟ غير أني اترعشت جامد.

لطمت ياسمين خدها في ندم.

- يا نهار أسود.. يا نهار أسود!

عادت فترة الصمت إلى أن قطعتها ياسمين للمرة الثانية.

- ارجعى ورا يا مريم ماتسيبيش هند لوحدها.

قالت ليلى في لؤم بين.

- وهي هند دى يتخاف عليها.

رجعت إلى هند والشيخ ماهر، سرت بجانب هند فوجدتها تُحدثه عن ليلى بدورها.

- أهى كده من زمان يا شيخ ليلى دي، طول عمرها واعية وتخاف على القرش، عايشة كده سفلقة علينا.

لم أفهم موقف هند وليلى وهما اللتان تجمعهما صداقة سنوات الجامعة والمتشاركتان في نفس الغرفة! صحت في عجب.

- إيه ده هي طلعت ليلى؟

- مش عارفلها يا مريم، بس هو شاكك في البيت.

- وليه ما قالش الكلام ده وإحنا قاعدين هناك؟

لم تُجب هند على سؤالي، وصلنا إلى الكنيسة ثم القهوة التي انتظرنا عندها الدجال ماهر، صاحب القهوة الخالية تمامًا موجود بصحبة صبيه يحسبان الإيراد وأشياء أخرى، نظر إلينا المعلم نظرة كلها احتقار وصاح بصوت عالٍ!

- أستغفر الله العظيم، اللهم إنا نعوذ بك من الكُفر، شهل يا بنى خلينا نروح بقى.

تجاهلت هند نظرات صاحب القهوة ونظرت إلى شيخها.

- طيب يا شيخ لو عرفت حاجة أبقى كلمنى وإحنا لو حصل حاجة تانية هكلمك برضه.

- لأ أنا واقف معاكوا لحد ما أطمن إنكم ركبتو، والله كنتم بيتم معانا؟

لمحنا ميكروباص قادم لعينين سائقه نظرة غير مريحة بالمرة، أوقفته وسألت.

- قنا؟

- قنا؟ دلوقتى!

وانطلق بدون كلمة أخرى، بعد دقائق جاء ميكروباص آخر، وعلى الفور وقفت هند أمامه.

- قنا؟

أجابها السائق وقد عزم الاستغلال.

- مخصوص ولا موقف؟

- أي حاجة، ياللا ياللا يا بنات اتاخرنا، مع السلامة يا شيخ.

نظر إلى ماهر في سخرية مستترة ولوح بيده.

- مع السلامة يا مريم.

ألحق سلامه بضحكة عالية غير منطقية، لم أفهم ما الداعى للضحك ولم أرد السلام، فتحت هند باب الميكروباص الجرار وأشارت إلينا أن ندخل، ثم أردف قائلًا.

- طمنونى عليكم أول ما توصلوا ضروري يا هند.

- حاضر يا سيدنا.

سائق الميكروباص كأغلب أمثاله يستمع إلى أغنية مُسفة بصوت عالٍ، والمُغنى ينوح طوال الأغنية، دخلت الميكروباص وجلست على آخر كنبة في جهة الشمال بجانب الشباك، وورائي دخلت ياسمين وجلست على نفس الكنبة في الجهة المقابلة بجانب الشباك الآخر، في حين جلست هند وليلى على الكنبة الصغيرة في المنتصف أمامنا، كنا جميعا نتابع الطريق من نوافذ السيارة وكأننا نبحث عن شيء ما؟ أحسست بتعب شديد وناشدت السائق.

- وطي وطي يا عم لو سمحت، الجو ليل ودماغنا مصدعة وتعبانين.

برطم السائق غير سعيد ولا مقتنع بخفض صوت الكاسيت دون أن ينظر إلينا.

- في حاجة ولا إيه؟ إنتو كنتوا فين؟

- مافيش يا عم مافيش.

- إنتو متنرفزين ليه، لا صحيح كنتو فين؟

نظرت إليه ياسمين وقد أقسمت عيناها على تلقينه درسًا في الأذب إذا سمعت كلمة إضافية، أردت أن أوفر طاقتنا جميعًا فأجبته لعله ينتهي من فضوله.

- كنا عند ناس قرايبنا.

جزت ياسمين على أسنانها في غيظ.

- راجل جماز جمز يا ساتر.

لم ينته السائق من فضوله وتدخله فيما لا يعنيه فأراد أن يشارك برأيه.

- آه قرايبكم، كنتوا بيتوا هناك، الدنيا شتا والساعة ١١ بالليل!

بدأ صبري ينفذ فنظرت له نظرة في مرآة السيارة فهمها جيدًا فأغلق فمه، كانت أعصابي تغلي ولن أحتمل سخافات أحد الجهازين كما تقول ياسمين، وصلني نفس إحساس كل من حولي في تلك اللحظات، الندم والندم ثم الندم، فيما عدا هند، إنها معتادة على مثل هذه الأمور، تصدقها وتخوض فيها للنهاية، نظرت من الشباك

وتأملت ما حدث منذ أن جاءت هند وقت العصر لتقنعنا وعدم تقديري للأمور، ليلى التي كنا نقف جميعًا ضدها، تأملت ما حدث وكأنه شريط سينمائي، مغامرة غير محمودة العواقب لأربع بنات جامعيات، يذهبن بمفردهن إلى دجال مُشعوذ، في قرية بمحافظة بداخل قلب الصعيد، في شتاء يناير القارس المخيف ليلا، لا يعرف عنهن أهلهم ولا حتى أحد من أصدقائهم شيئًا، ماذا لو خُطفنا وهذا أتفه شيء محتمل في مثل هذا المكان المخيف؟ ماذا لو دس لنا ماهر شيئًا في الشاي؟ وما الفائدة من تقطيع أوراقنا؟ إنه يعرفنا الآن ويعرف أسماء أمهاتنا أيضًا، يستطيع أن يفعل ما يحلو له ولن ألومه، أدرس القانون وقد تعلمت أن القانون لا يحمي المغفلين، نظرت إلى البنات فوجدتهن في مثل حالتى صامتات متأملات، فندهت عليهن مداعبة، أو هكذا كنت أحاول.

- يا بدوح.

نظرن إلى جميعًا لكن ياسمين لم تبال، ظل رأسها مائلا إلى الشباك، في حين نظرت إلى الخلف هند وليلى، نظرت لنا ليلى التي كانت تجلس مقابلة لي في الأمام مستفسرة.

- الله.. بدلتوا طرحكم ليه؟

أجبتها بسؤال.

- بدلنا طرحنا؟

- أيوه إنتي وياسمين بدلتوا طرحكم، إنتي بقيتى الصفراء وياسمين الخضراء أهو.

أخذت أتفحص ما الذي أرتديه فوق رأسى ثم تبادلت أنا وياسمين نظراتنا لبعض وإلى ما نرتديه في ذهول! لقد بُدل حجابنا فعلا ولا ندري كيف؟ في الحال خلعت طرحة ياسمين وأعطيتها إياها كما خلعت طرحتى هي الأخرى، صرخت ياسمين.

- يا نهار أسود .. يا نهار أسود.. والله مابدلتها؟!

- والله مابدلتها، لأ أنا مش مجنونة مابدلتهاش.

أخفض السائق صوت الكاسيت أكثر ليستمع إلينا في وضوح، أسرعت إلينا هند وليلى الجالستين في الكنبة التي أمامنا مباشرة بنفس ترتيب مواجهتهما لنا، ليلى أمامى وهند أمام ياسمين، زاغت أعين ليلى وهمست.

- وطوا صوتكم والنبى.. وطوا صوتكم، ممكن نتخطف هنا، أبوس إديكم وطوا صوتكم.

شخصت هند ببصرها نحونا ولم تنطق بكلمة، لاحظنا أن السائق فعلا يسترق السمع بشغف وفضول.

- هو في إيه؟

في سرعة ولخبطة أجابت ليلى.

- مفيش حاجة، عاوزين نوصل بقى علشان اتأخرنا قوي وأهلنا مستنين.

حاولت هند تفسير ما حدث في برود وكأنها تُذكرنى بشيء نسيته.

- مش إنتي يا مريم ماكنتش عاجباك الطرحة من الصبح عشان شيفون تلاقيكى بدلتيها ونسيتي.

أجابتها ياسمين في عصبية.

- هي نسيت وأنا كمان نسيت يا هند؟

بقيت أنا وياسمين في صمت، نظرت ليلى إلى هند بحنق وقالت.

- هي كانت شورة مهببة، أنا عارفة إيه اللي كان خلانا نمشي ورا واحدة زيك؟

لم تُعلق هند، ظللت أبكى وأنا أفكر في أمي وأهلي، كنت أشتاق إليهم وأفتقد إحساس الأمان بجانبهم، وأنا أبكى بحرقة نظرت إلى الأرض، كانت ليلى أمامى تواسينى وأرجلها في الممر الضيق الذي تخرج أو تدخل منه الميكروباص، فإذا بى أبكي أكثر وأنا أنظر إلى ليلى في دهشة.

- وده إيه ده كمان؟

- في إيه؟

- إنتي بدلتى البووت بتاعك مع هند؟

نظرت كل منهما إلى رجلها، رفعت هند رأسها سريعًا بينما ظلت ليلى تنظر إلى البووت الذي ترتديه وتسمرت، تحجرت الدموع في عينيها لتنزل على مهل وترفع رأسها في بطء شديد لتنظر إلي، عندها تكلمت هند.

- أيوه بدلناهم.

جاءت كلمات ليلى باكية نافية.

- لأ مابدلناهمش يا هند.

فاض الكيل بياسمين فانفجرت.

- بطلى كدب ومدافعة عن الرجل ده بقى، حرام عليكي هو إحنا ناقصين.

- أنا مش بدافع بس ليلى ناسية، ثم إنتي يا مريم قعدتي تتريقي عليه وغمزتك بلاش، ثم أيوه إحنا بدلناهم يا ليلى.

تذكرت شيئًا هاما لتأكيد نفي ليلى.

- ومن إمتى كانت مقاستكوا واحدة يا هند؟

صمتت بعدها هند إلى أن وصلنا، الآن تغير تفكيري ناحية ليلى، هل تكون هند وراء ما يحدث؟ وإذا كان هذا صحيحا. لماذا ذهبنا إلى هذا الدجال؟ قطعت هند حبل أفكارى.

- بص يا أسطى لو سمحت طلعنا على طيبة، نروح عندى على البيت أحسن النهارده يا بنات. (طيبة حى راقى بينه وبين الأقصر ربع ساعة).

- طيب ماشى.

لم يبد منا أي اعتراض أو موافقة، كنا في حالة نفسية لا تسمح بأى نوع من التفاوض على أي شيء، وصلنا طيبة، وإلى فيلا والد هند وأمام البوابة الحديدة وقف الميكروباص، كان شقيقها «طارق» يقف في الدور الثانى حين وصلنا، دخلت أنا وليلى وياسمين وتركنا هند تدفع للسائق، سمعنا صوتها العالى تفاصله في الأجرة، إلى أن جاءنى صوت السائق عالٍ فأزعج من في البيت جميعًا.

- ده منظر بنات محترمة ده؟ جايين الساعة ١١ ونص، انتو كنتو فين؟

هرولت كالمجنونة من الداخل إلى الخارج، التقطت حجرًا من الأرض وقذفته به من شدة الغيظ منه ومما نحن فيه، نزل شقيقها من

الدور الثاني إلينا مسرعًا، كان السائق قد مضى إلى حال سبيله! وقفت مكانى وتأملت نفسي وردود أفعالي، فتوجست خيفة على عقلي! أصبحت لا أفكر قبل أن أفعل أي شيء، جاء صوت طارق شقيق هند في الخلفية.

- إيه اللي جاييكم دلوقتي؟

قبل أن ننطق أسرعت والدة هند إلينا، لتتأكد من وجودنا بعد أن سمعت صوتنا وصوت السيارة بفضل هدوء المكان الشديد، عندما رأتنا بُهتت وانكرت وجودنا في هذه الساعات المتأخرة من الليل وحدنا خارج البيت؟ تكلمت بلغتها الصعيدية وبلهجة حادة لم نعتدها منها من قبل.

- إيه ده يا بنات، إيه اللي جابكوا دلوقتي.

أردفت هند.

- النور قطع في قنا قلنا نيجى نذاكر هنا.

لم تنطلي على الأم هذه الحجة الواهية، فرفعت حاجبيها وقالت.

- انقطع من امتى يعنى؟

- من العصر يا أمي واستنيناه مجاش، قلنا نيجي هنا أحسن.

- ولما هو قطع العصر ما كنتوا جيتوا وقت العصر مش في الليالى كده؟!

- اللي حصل بقى يا أمى نعمل إيه دلوقتى يعنى؟ ادخلوا انتو يا بنات على الأوضة وأنا جاية.

في الخلفية سمعنا الصدام مازال مُحتدمًا بين هند وأمها، تأنيبا على التأخير وكلام عن الميكروباص والسائق إلى أن أغلقنا الباب وراءنا، فتخافت الصوت شيئا فشيئا.

تتميز غرفة هند بألوان زاهية من اللون الوردى والفوشيا والموف، بها شباك بيضاوى الفتحة كبير يطل على حديقة المنزل، تتكون من سريرين وخزانة صغيرة بينهما ودولاب في المقابل، جلست أنا وياسمين على سرير وليلى على السرير المقابل، أنظر أنا إلى ياسمين وليلى تنظر لي، دخلت هند وأغلقت الباب وراءها بعنف، دخلت مباشرة إلى الشباك، فتحته إلى آخره ووقفت تنظر إلى الحديقة، سادت فترة صمت ليست بالقليلة، أدارت هند وجهها لنا فجأة وقالت.

- إحنا في العيلة على طول بنروح للراجل ده وهو راجل كويس، أنا مرضيتش أتكلم قدام ماما، وموضوع الطرح بتاعكوا ده يا مريم، اكيد انتو بدلتوها ونسيتوا، إنتي مكنش عاجبك طرحتك عشان شيفون، صح؟

عادت ياسمين تنفي بعصبية.

- طيب هي مكنش عاجبها طرحتها، وأنا؟ مريم نومتنى مغناطيسى وقلعتنى الطرحة من غير ما أحس؟ إنتي عبيطة ولا إيه؟ بصى يا هند بلاش تفتحي الموضوع ده تاني.

أرادت ليلى تهدئة الموقف خاصة ونحن في منزل هند.

- يا ياسمين اهدي مش كده، حصل خير يا جماعة.

توقفت هند تسمع ياسمين بهدوء، صمتنا للحظات، ثم قطعت الصمت.

- مش جعانين؟

قلت في ارهاق.

- لأ مش جعانة.

ساندتنى ليلى.

- ولا أنا.

لم ترد ياسمين، جلست على السرير ناظرة للأرض بشرود، قالت هند في مرح غريب.

- أنا جعانة وهاروح أعمل عشا وآجى.

بعد عدة دقائق جاءت هند بصينية كبيرة تحمل عددًا من أنواع الأجبان والمربى والخبز الفرنسي، رأينا العشاء فانفتحت شهيتنا، وجلسنا جميعًا على الأرض حول صينية الساندويتشات لنأكل، قالت هند مبتسمة.

- انتو مش كنتو مش جعانين من شوية؟

نظرت لها في تعب.

- جُعت.

ضحكت هند وليلى وضحكت معهن وتبسمت ياسمين وهي تمضغ طعامها ببطء وشرود، أخذنا حمامًا دافئًا واحدة تلو الأخرى بعد كل ما عانيناه من تعب، لعل الماء يُجلى ويُذهب عنا ما حدث، تمنيت أن تكون الأمور بهذه البساطة، أعطتنا هند ملابس للنوم، بعد أن استمتعنا بدفء المياه كانت هند قد أعدت لنا أكوابا من الكاكاو الساخن، لسان حالنا يقول «أحسنتى اختيار مشروب الشتاء يا هند، جميعا نحتاج نكهة الشيكولاته الآن بعد كل ما عانيناه».

نامت هند وليلى على سرير وأنا وياسمين على السرير المقابل، كنت أشعر بياسمين وكأنها لم تذق طعم النوم مثلي تمامًا، شعرت بتأنيب الضمير يقتلني، كنت أخاف الله وعقابه أكثر بكثير من خوفي مما قد نواجهه في المستقبل، كيف نسيت أن الله هو القادر الجبار فوق كل شيء؟ وأننا كلنا مخلوقات ضعيفة في ملكوته، مهما بلغت قوتنا فإننا أضعف من مشيئته، ما علينا إلا أن ندعوه فيستجيب، ما علينا إلا أن نطلب القوة من القوى فنقوى، كيف طاوعتهن؟ نهضت من نومى وجلست مكاني أساوى شعرى إلى الوراء وأنا أستغفر الله، فقالت ياسمين.

- في إيه يا مريم؟

- مش عارفه أنام خالص.

- ولا أنا.

- صحيح نسيت أقولكم مش ماهر قالي على صندوق الحجة سعاد عايزه؟

- صندوق إيه؟

- الصندوق الأثري اللي كان في أوضة السنترال قال هو ده السبب!

- طيب ما نديهوله؟

- تاني يا ياسمين دجالين وكُفر؟

تذكرت فتح القفل.

- صحيح يا ياسمين، الصندوق كان عليه قفل متعرفيش راح فين؟

- لا مشفتوش، يمكن واقع هنا ولا هنا، خلاص نديه لصاحبه

ولا حتى نرميه لو هو المشكلة يا مريم، ده إنتي حطاه في أوضتك.

- لا يا ياسمين دى أمانة، أنا لا هارميه ولا هديهوله، ده بيقول كده علشان يبيعه بشيء وشويات، لما تبقى ترجع صاحبته ده شكله قيم وأنتيكة.

بعد لحظات صمت أكملت ما يدور في عقلي.

- إحنا فعلاً غلطنا يا ياسمين غلطة كبيرة، يا رب استرها، يا رب جيب العواقب سليمة، أنا خايفة قوى من ربنا.

- ربنا غفور رحيم هيرحمنا إن شاء الله، لكن تفتكري رجل زى ده ممكن يرحمنا؟

- بس هو كان كويس معانا الصراحة!

- واللي حصلنا يا مريم؟

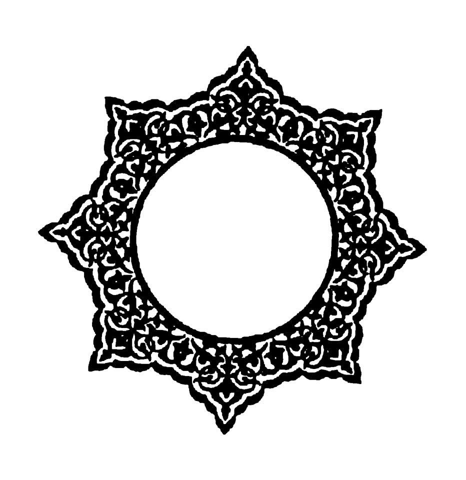
- بصراحة يا ياسمين إحنا أكتر اتنين اتريقنا عليه وقاوحنا معاه، يمكن اللي حصل ده كان قرصة ودن، خاصة هو مكنش بيرد! كان بيبتسم ابتسامة صفراء كده وشفتي واحنا بنركب ضحك ضحكة عجيبة.

- ممكن، معرفش، طب وجزم هند وليلى؟

بعد فترة غلبنا النوم دون أن ندري فقد كنا في شدة الإرهاق، في هذه الليلة جاءني عماد في أحلامى واقفًا كما كان في الكلية في نفس المكان الذي قابلته فيه، وقف مُنبها إياى قائلًا.

«أنا قلتلك خدي بالك يا مريم وإنتي حرة، وقلتلك بلاش ثقة في حد.. مسمعتيش الكلام! مش عارف أعملك إيه دلوقتى»

***



كنت أتجول وحيدة في شوارع قديمة، نظيفة، غريبة وشديدة الجمال أيضًا، بيوت أثرية لا مثيل لها اليوم إلا من بقايا هارئة لا تلقى منا المعاملة التى تليق بحُسنها، معمارها بسيط وجميل وقوى الصُنع يقف في فخر واعتزاز، كأنه امرأة تتباهى بجمالها الرباني الذي لم يُلوث بعد، جدران مبنية من الطوب الأصفر الكبير الحجم تُزينها مشربيات خشبية صُنعت بدقة متناهية، مطلية بلون بُنى أصيل، بعض المنازل مزخرفة من الخارج بألوان هادئة متناسقة، والبعض الآخر محفور علي حجرها بعض آيات الذكر الحكيم في دقة وحلاوة، فنون لم أر مثلها إلا في المتاحف والأماكن الأثرية فقط، أما واجهات المساجد فقد بُنيت بأحجار منحوتة ومُزخرفة عوضًا عن الطوب، الشوارع نظيفة جدًا حتى في أدق منحنياتها مهما ضاقت.

بعض النساء يرتدين سروالًا وقميصًا، بعض القمصان من الحرير، له ذيل مطرز بالذهب وثوب قصير فوقه مزركش، يحيط به حزام مزركش أيضا ثم رداء خارجى ذو أكمام واسعة، والبعض

الآخر يرتدى فوق قميص قصير ثوب طويل يحيط به حزام مُزركش ثم غطاء يحكم الرأس، وغطاء آخر طويل من الخلف والجوانب فوقه، بعض السيدات ترتدى البُرقع المطرز بالذهب الذي قد يتساوى طوله مع طولها تقريبًا، وأخريات يكتفين بالتخفي وراء غطاء الرأس الكبير والذى يغطى أكثر من ثلثى جسمها، وهُناك من لم تُخف وجهها لا وراء بُرقع ولا خلف غطاء رأس، لكن جميع هذه القطع مطرزة بالحرير أو بخيوط ذهبية وفضية أحسبها ذهبًا وفضة حقيقيين عند بعض من يلبسونها.

رأيت نساء ترتدى شيئًا يشبه إلى حد كبير القُفطان المغربى بألوان واضحة صارخة، أيضًا مُطرز ومزخرف بجمال آخاذ، لكن الشيء الملحوظ أن غالبية النساء قد تزين بالقررايط والأساور والخواتم والخلاخيل من الذهب والفضة.

تجول بصري فرأيت عيناى رجال يرتدون سروالا واسعًا، يغلق عليه حذاء جلدى متوسط أو قصير الرقبة وجلبابا قصيرا أو قميص، يربطهما حزام من المعدن أو من القماش المزخرف بلون مُختلف عادة، ثم عباءة مفتوحة من الأمام لمزيد من الوقار، بعض الرجال يرتدى جلبابًا طويلا لا يظهر السروال، تُلف الرأس بعمامة تدور حول طاقية في الوسط بلون مختلف، وقد زُينت العمامة عند بعض الرجال بجوهرة ثمينة أو حجرًا كريمًا في منتصفها فوق الجبهة.

من هؤلاء؟ كيف جئت إلى هنا وأين أنا؟ كم تمنيت أن أعيش هذه الأجواء في أحلامى، أترانى أحلم أم أني قد انتقلت بالفعل؟ هل من المُمكن أن يهرب بى عقلى الباطن إلى مكان أردت أن أراه

في زمن مختلف؟ أم أني في الأساس من هذا العصر وقد سافرت إلى عصور نحسبها متقدمة؟ لكن مهلًا، ما هذه الملابس التى أرتديها! إننى أرتدي مثلهم تمامًا حتى أننى أرتدى بُرقعًا طويلا على وجهي! كيف حدث ذلك؟!

إننى في سوق به بعض الباعة، الناس يروحون ويجيئون في عجلة وفي بطء، حمدت الله حمدًا كثيرًا عندما رأيت امرأتين واقفتين في أحد الأركان القريبة منى، يتبادلان الحديث بصوت ليس منخفضًا أو لعله عالٍ بعض الشيء، لكنه كان كفيلًا بأن يصل لأذني، فوقفت على مقربة أسترق السمع لعلي أعرف أين أنا، ومن هؤلاء ومن أكون بينهم، لعلهم يعرفونني، أو يعرفونى بنفسى ويختصروا علي ما سوف أمر به من جُنون، إلى أن دار هذا الحديث بينهما.

- ألم تدري بعد؟ لقد أتى من قوص البارحة.

- من هو؟

نظرت السيدة في نفاذ صبر، ثم أطلقت زفيرًا وحاولت رسم ابتسامة.

- يا فاطمة يا حبيبتى... عمن نتكلم بالأساس؟

بدا لي أن فاطمة تتذكر، لكن ملامحها رسمت سؤالًا في الطريق.

- الشيخ عبد الرحيم القنائي القادم من أرض الحجاز، ولكن ما علاقة قوص به يا خولة؟

بدت خولة مُهتمة إلى حد كبير، كأنها تتتبع أثر الشيخ.

- ما سمعته من زوجى أن الشيخ مغربى الأصل، وُلد بسبتة

بالمغرب الأقصى، وأن نسبه يرجع إلى الإمام الحسين بن على بن أبى طالب، وقد تتلمذ في مسقط رأسه على يد والده الشيخ «أحمد بن حجون»، لكن والده توفي وهو بعمر الثانية عشرة، كان الشيخ شديد التعلق بأبيه فمرض لفقده، لذلك أشار الأطباء أن يغادر البلاد إلى أن تهدأ نفسه، فسافر إلى دمشق في ضيافة أخواله، ونهل من العلم ما جعل صيته يذيع بين الناس هُناك، لكنه عاد إلى بلده، ثم إلى أرض ا لحجاز.

- فما بال قوص إذن؟

- الصبر يا فاطمة، لقد قابله الشيخ «مجد الدين القشيرى» في موسم الحج، ودعاه لزيارة قوص والمكوث بها لتلقين أهلها العلم، لكنه ذهب إلى هناك بضعة أيام فقط، ثم قرر المجيء هُنا إلى «قنا».

- وما الذي غير وجهة الشيخ يا تُرى؟

- لرؤيا رآها في منامه وتكررت عليه، ولاقتناعه أن أهل قوص ليسوا بالحاجة إليه كأهل قنا.

- لقد فهمت الآن، ولكن إلى متى يمكث العالم يا أم منتصر؟

- لا أحد يعرف يا فاطمة، لا أحد يعرف.

انتابنى دُوار وكدت أن أقع فاستندت إلى الحائط بجانبى، ورفعت البُرقع كى أتنفس، حينها جرت فاطمة وخولة إلى في ذُعر غير مُصطنع، واستندت إليهما، قالت فاطمة في خوف.

- أأنت بخير يا أختاه؟

أجبتها وقد تهدجت أنفاسى.

- نعم الحمد لله.

جاءت نبرات صوت خولة جدية.

- إذا أردتِ مساعدة فرجاء اطلبى، نملك من الوقت ما يكفي لايصالك إلى بيتك.

- بيتى!!

- نعم بيتك.. أين يقع؟

- لا أدري.

نظرت خولة إلى فاطمة في ارتياب ثم إلى في شك، قاطعتها فاطمة.

- دعينى أخمن.. أنت غريبة على قنا، لكنتك توحى بالغربة عن الديار؟

- نعم أنا من أسوان.

- وماذا أتى بك إلى هنا؟

قالتها خولة في شك، كان على أن أحاول التحدث بلغتهم ومجاراة الموقف فأنا لا أعرف يقينا هل هذا حلم أم واقع؟ لكنى وجدت لسانى ينطق بلغتنا العربية الجميلة في سلاسة لم أعهدها من قبل.

- ذهبت في رؤية ابنة عم لي، لكنى فقدت العنوان ولا أتذكره.

- إذن أتيت بمفردك؟

قاطعتها فاطمة مرة ثانية.

- لا ترهقيها بكثرة السؤال يا خولة، أوشكت الشمس أن تغرب يمكنك المبيت عندى ولا حرج.

كانت خولة تنظر إلى فاطمة وعينيها تقول لا تقدمى أية عروض

فنحن لا نعرف من تكون ومن أين أتت؟ قد تكون جاسوسة مثلا، نظرت إليها في تردد ولم أجب لكنها أكملت.

- تبدين متعبة وفي حاجة إلى الراحة.

قررت خولة أن نتعرف إلى بعضنا البعض وقد بادرت فاطمة بعرضها الكريم.

- أنا خولة بنت عبد الوهاب القرمزى، وهذه فاطمة الزهراء بنت عثمان الأشعرى، ما اسمك؟

- مريم بنت فاروق المختار.

تأملوا الاسم وكأنهم يبحثون عن مثيله في ذاكرتهم، ولكن فاطمة لم تبال، وحدها خولة بقيت في شك وحذر، جاء صوت فاطمة بقرار.

- خولة سوف آخذ مريم إلى البيت لتستريح، وعند إشراق شمس الغد تستطيعين الرحيل يا مريم أو وقتما تشاءين.

لم أستطع إلا الموافقة، أريد الاسترخاء وأشعر بتعب شديد، ولا أدرى أين أنا ولا أستطيع الرجوع إلى حيث كنت.

- أشكر كرمك يا فاطمة.

- لا بأس يا مريم، خولة سوف نتقابل بعد الغد في نفس المكان والميعاد لا تنسى.

- إن شاء الله.

مشيت مستندة على فاطمة في الاتجاه المُعاكس لطريق خولة، كنت أستمع إليهما غير مُصدقة لما أنا فيه، أرى الناس في الشوارع التى لم أراها من قبل وأنا غير مُدركة! ماذا حدث؟ أين أمى وأختى وأخى

وجدتي وجميع أهلي؟ أين أصدقائي؟ هل أنا طالبة كلية الحقوق في سنة ٢٠١١ ميلادية، أم أني في سنة... أي سنة هذه؟ أين هاتفي وكيف ارتديت هذه الملابس ومتى؟ أريد أجوبة على كل تساؤلاتي وإلا سوف ينفجر عقلي، بادرتها بسؤال.

- عفوًا سوف أسألك سؤالا قد تتوجسين خيفة مني بعده، وأنا مقدمًا أرجوكي ألا تفعلي، قد رأيت خولة وحذرها مني، لكني أخشى أن لوثة ما قد أصابت عقلي في الصميم.

- لابد أنك مررت بظروف قاسية، لا تبتئسي يا أختي ولا تحملي نفسك ما لا طاقة لها به، اسألي سؤالك وسوف أكون شديدة الصراحة معك.

- في أي الأعوام نحن؟

رجعت فاطمة برأسها إلى الوراء وفتحت عينيها أكثر.

- لعل الشمس قد أصابت رأسك يا مريم! إنها السنة الـ ٥٥٥ هجرية - ١١٦١ ميلادية.



(٥)

كان طارق شقيق هند قد اتفق معها على اصطحابنا إلى قنا في الصباح حيث مكان عمله، لكننا لم ننفذ هذا الاتفاق في الساعة الثامنة صباحًا كما وعدته، وغفونا إلى ما بعد وقت الظهيرة، وبالطبع ذهب هو إلى وجهته، كنا جميعا نفتقد احساس النُعاس، أخذنا من الوقت ما يكفينا من تململ، تناولنا إفطارنا في وقت متأخر، ثم ودعتنا والدة هند بلفة كبيرة من الطعام كانت قد أعدتها لنا خصيصًا اليوم باكرا، إنها وجبة الغداء اليوم، استقللنا الميكروباص في الثانية بعد الظهر، لم نتحدث في أي شيء مما حدث بالأمس على الإطلاق، بل تحدثنا عن المذاكرة والامتحانات التي لم يتبق على ميعادها إلا شهر واحد، تعهدت ليلى بعمل جدول مذاكرة اليوم لأن الوقت يجرى ولابد من ملاحقة دروسنا.

لم أذكر لهم أى شيء عن مقابلتى بعماد والتى كانت صدفة، فلم أكن مستعدة للدخول في أى نقاش، أو تعليق حتى لو بدا تافها أو عاديًا، أردت أن أبقي الأمر بينى وبين نفسي فقط، ثم إن الرجل يرتبط في علاقة قوية، هذا واضح وضوح الشمس، مَن مِن الرجال يذهب إلى فتاته قبل ميعاده خوفًا عليها من الانتظار بالرغم من انشغاله؟! إنه من النوع النادر الذي لم يعد له وجود، فبماذا يُفيد الحكى في كل الأحوال، أخرجتنى ليلى من هذا التساؤل وهي تشدد علينا.

- إحنا لازم نشد يا بنات مافضلش إلا شهر، أمي لو عرفت إني لسه في سنة تانية هتدبحني هي فاكرة إني في ثالثة.

وافقتها ياسمين على الفور.

- آه يا بنات لازم نشد على نفسنا شوية.

وصلنا قنا حوالي الثالثة عصرًا ثم إلى الشقة وفتحنا الأنوار، ووضعنا الطعام في المطبخ، جاء صوت هند مجلجلًا.

- اقلعوا بقي يا بنات وتعالوا نسخن الأكل أنا جعانة.

فعلنا وجلسنا حول الغداء نأكل ونتكلم ونضحك سويًا، متناسيات عن عمد ما مررنا به من أحداث، أكدت ليلى مرة أخرى.

- بصوا بقي يا بنات إحنا النهارده آخر يوم في الصياعة، من بكرة هنذاكر بجد، نأكل ونلحق نخرج شوية عشان نبقى براحتنا ونلحق نرجع بدري.

لم نُمانع، كنا نحتاج إلى الترفيه وبشدة، قُمنا لنستعد للخروج، وفي هذه الأثناء هممت بالخروج من غرفتي لاحضار شيء ما نسيته بغرفة الاستقبال، فرأيت ليلى تحمل الصندوق الخشبي الأثرى فوق رأسها وتمشى بثبات متجهة نحو الحمام وتنظر إلى في غل رهيب! نظرت لها في ذهول وناديتها بصوتٍ عال فلم تلتفت إلى مرة أخرى ولم ترد ندائي، لكن وما إن دخلت ليلى الحمام أمام عيني، حتى رأيتها تخرج من غُرفتها تُمسك بشيء من أدوات تجميل، ثم قالت.

- عايزة إيه يا مريم؟

عندها أحسست ببلل لم أُسيطر عليه بنصفي الأسفل، حاولت أن

أسيطر على ما تبقى لدى من أعصاب، لكنى بقيت صامتة مذهولة ولم أرد أن ترى ليلى ما حدث لي، لكنها سألت.

- مالك مبلمة كده ليه؟

- كنت عايزة حاجة مش فاكراها.

تركتها مُسرعة ودخلت غرفتي وأغلقت الباب، رأيت الصندوق في مكانه، وانتابنى الفزع لكنى لم أُرد أن أعكر صفوهن الذي يبدو أنه سوف يكون مؤقتًا ولم أُبح لأحد يومها بما رأيت، هل يكون ماهر الدجال على حق؟ أم أنه أرسل من يخيفنى ورائى عقابا لرفضى تلبية طلبه؟

خرجنا الساعة السابعة مساء، ضحكوا وقضوا وقتا جميلا كالأيام التي اعتدناها سويا، أما أنا فقد كنت أتظاهر بهذا وحسب، وبينما نتجول في شوارع قنا، أخذت سيارة فارهة حديثة في الاقتراب منا على مهل، نظرت نظرة خاطفة على سائقها لأشُبع فضولي، شاب وسيم جدًا وبجانبه شاب آخر أقل وسامة، أسرعنا في خطواتنا، السيارة تسير موازية لنا تماما، تكلم الشاب الوسيم وأقسم أنه لا يريد إلا أن يُحدثها هي! هي من؟ من فينا؟ كنت أسير أنا وياسمين في المقدمة وليلى وهند وراءنا، ولكنى لاحظت أن السيارة في منتصفنا نحن الأربعة، أسرعت ياسمين وجذبتنى من يدي.

- ياللا يا مريم إحنا نسبق عشان مش عاوزة مشاكل، كفاية اللي حصل امبارح.

كانت ياسمين تربطها علاقة حب بوكيل نيابة من سوهاج يدعى «هشام»، لا أعلم إذا كانت فعلا تحبه أم تريد الزواج به وتتخذ الحب

وسيلة؟ كما تفعل بنات حواء، ولما كانت استراحته بقنا، فقد كانت تخاف أن يراها هو، أو يراها من يعرفهن فينقل أخبارها له، قررت أن أتركهن ونذهب أنا وياسمين سويا، فقد أحسست أن واحدة منهن يروقها أحدهما، ولن أقيم معركتى في الشارع الآن، كما أني في آخر المطاف لا أقرر نيابة عنهن، فقط أبدى ملاحظاتى عندما أرى شيئا غير مريح، في النهاية مهما كانت قوة الصداقة لن تستطيع أن تفرض مبادئك على من تُصادق، أشرت لهن قائلة.

- يا بنات إحنا هانروح المساكن نجيب ورق المذاكرة لينا كلنا، وانتوا جيبوا طلبات البيت وانتوا راجعين.

(المساكن بقنا هي المنطقة التي بها الجامعة، بعيدة عن وسط المدينة وتكون شديدة الظلام ليلا خاصة في الشتاء)، انتهينا ورجعنا إلى البيت في التاسعة مساء، كانت الساعة العاشرة والنصف عندما سمعت صوت ليلى تدق بيديها شباك غرفتى من الخارج:

- افتحى يا مريم بسرعة على بال ما ألف، عاوزة أحكيلكوا على حتة موضوع.

نهضت مسرعة لفتح باب الشقة أنا وياسمين، لم تكن هند معها، فسألت.

- أومال فين هند؟

- بتجيب طلبات من السوبر ماركت وجاية، اسكتوا يا بنات.. الواد طلع فظييع، مُز جدًا، ومبيكلمش كلمة عربى.

- إنتو كلمتوه ولا إيه؟ ومش معنى إنه مبيتكلمش عربى إنه كويس أو وحش على فكرة.

- لا.. إحنا طلعنا نأكل في المطعم اللي بنروحه ده يا بنات طلعوا ورانا، وبصينا لقيناهم جايين علينا، الواد الفظيع طلع اسمه عمر، المهم كلمونا وأخدنا أرقام تليفونات بعض، قلتله أنت كان قصدك على مين؟ قالي اللي لابسة فستان! فهمت إنها هند مش أنا، حتى الولد طلع جنتل جدًا وعزمنا على الأكل، نزلوا قبلنا من المطعم وإحنا وراهم، كلمته هند بعد كده، قالها أنا كنت متأكد إنك هتتكلمى، إحنا رايحين فندق «بسمة»، لو تحبوا تيجوا تعالوا، قمنا واخدين تاكسى ورايحين، أصل هناك محدش هيشوفنا لكن الأماكن التانية ممكن أي حد يشوف هند ويفتن لهيثم صاحبها! وقالتله إن اسمها مى وإنها من أسوان! بس في حاجة يا بنات، هند قالتلى ما أقولكمش حاجة!

عقدت ياسمين حاجبيها في نفور.

- ده على أساس إننا هنغير منها لا سمح الله؟ ولا هنبصلها بصة وحشة عشان هيثم؟

ثم توقفت عن الكلام كأنها تذكرت شيئا.

- إيه ده يا بنات؟ انتو مش ملاحظين حاجة؟ إحنا ماكملناش ٢٤ ساعة من ساعة ما رجعنا من عند الشيخ ماهر ده وفتحت عليها إزاي! الظاهر فتح الطريق ده بجد ولا إيه؟

ضحكنا جميعا وتمنينا أننا لو رجعلنا الشيخ يحضر لنا فتح طريق مثلها، كنا نقولها على سبيل المزاح الممسوح بجد، لكننى لم أهتم لكل هذا كنت أفكر في السيدة التى تشبهت بليلى ودخلت الحمام، يا ترى ماذا تريد؟ ولماذا لم تظهر إلا لي؟ أم أنها ظهرت لإحدى البنات ولم تُبح مثلي؟

تتحدث ليلى الحقيقية في تساؤل مغلف بغيرة.

- بس مش قادرة أوصفلكم يا جماعة الولد ده كان عامل إزاي مش هتصدقوا...

إزاي أعجب بهند؟!

كان عمر ضابط جيش من قنا يعمل في الغردقة، في الثلاثين من عمره، طويل، رشيق، أسمر، شعره أملس أسود، رائحته عطره تمتزج برائحة السجائر لتثير الغرائز الأنثوية المنتشية حوله، هذا ما جاء في وصف «سي عمر» من صديقتنا ليلى الهائمة، أخيرًا جاءت هند بالطلبات وتركتها في المطبخ والفاتورة على التليفزيون حتى نقتسم الحساب على أربعة، ذهبت إلى غرفتها وأغلقت الباب متعللة أنها تريد أن تستريح، لم تهدأ ليلى أو تستريح هى الأخرى، فهند في علاقة أخرى الآن، ثم أن عمر رآهما معا واختار هند التي لا تعرف الفرق بين العباءة والفستان؟ إنه أعمى والسر في فتح الطريق، بينما أنا وياسمين جالستان عندى في الغرفة بلا هدف واضح، جاءت ليلى تتصدى ملامح العناد قسمات وجهها.

- الواد ده خسارة في هند، إزاي يعنى ده فظيع!

تحدثت إليهن بناء على ما أراه من خبرات.

- بصوا يا بنات.. هو أكيد واخد باله من لبس هند يعنى، وممكن يكون هيكلمها تسلية في فترة قعاده في قنا بس، أو ممكن يكون فعلا مُعجب بيها، في كل الأحوال ابعدوا عنه.

أردفت ليلى في غيظ.

- لأ يا مريم إنتي مشفتيش كان بيبصلها إزاي! ده كان مبهورا ده مش واحد عاوز يتسلى، بقولكوا إيه الواد رقمه معايا تعالوا نشتغله؟

اشتعلت روح الطفولة الخامدة عند ياسمين ولم تنطفئ.

- آه ياللا نشتغله شوية.

- ياللا يا ياسمين رنى عليه.

أردفت في عصبية.

- طب يا جماعة أنا بقول تطلعوا بره عشان شكلكم فاضيين.

نظروا إلى نظرة مبهمة ولم يناقشننى، كانت مشاعر الفضول والإثارة قد تملكتهن، مشاعر لا تتفاوض معك عندما تُعجب بشخص جديد غامض، مشاعر ممزوجة بتحد أنثوي وغيرة علنية، خرجن سريعا فالوقت يداهمهن وهن يردن معرفة من هو «عمر» الشاب الوسيم الغني، أغلقوا نور الغرفة والباب وراءهن وذهبن.

في صوت إغلاق الباب والنور حاولت أن أسترخى مستلقية على أحد جانبي، شاخصة بعينى في اتجاه الحائط، أنظر في اللا شيء، في المجهول، فاجأني صوت من ورائى مباشرة ناحية اليمين، شديد القرب بعطسة شديدة! فزعت واقفة في مكاني ذهبت إلى حيث أضيء نور الغرفة من جديد، فتحت الباب ناظرة إلى السرير والى جميع أركان الغرفة، لا أحد!

ظللت أردد «الله أكبر.. الله أكبر، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، حاولت إقناع نفسي أنه الوهم بلا شك، الشك الذي صاحبنى في الفترة الأخيرة كظلى والذي أتمنى أن يفارقنى لأحيا طبيعية كما في السابق،

لكنى لمست آثار عطسة على كفي وخدى الأيمن فأقنعت نفسى أنها آثار أى شئ آخر، رُبما عرق، لم أغلق الباب مرة ثانية ولكني واربته ليدخل نور غرفة الاستقبال متسللًا إلى، أغلقت النور مرة ثانية وأنا أقرأ القرآن لأحاول النوم، حاولت أيضًا أن أتذكر كيف كان مذاق راحة البال، دقائق وخرجت من الغرفة لأرى ماذا يفعل البنات الآن فوجدت ليلى وياسمين في «السنترال» يضحكن كالأطفال بينما تغلق هند باب غرفتها عليها.

ما زالت البنات تتحدث عن عمر وقد أصبح حديث الساعة وكيف حدثوه هاتفيا ولم يعرهن أى اهتمام، أنا أيضًا لم أُعرهن أى اهتمام، فما يشغلنى أكبر وأعمق من سخافاتهن، ذهبت مرة أخرى إلى الغرفة لأنام، عرفت بعد ذلك أنهن لم يعثرن على عمر في المواقع الاجتماعية لحسن حظه.

استلقيت على سريرى أنظر إلى سقف الغرفة، لم أستطع النوم وقتها إلى أن رأيت هالة بيضاء صغيرة تخترق الظلام، ظل حجمها يكبر ويكبر أمامى، وأنا غير فزعة مما أرى، حتى ملأت الغرفة كاملة واحتوتنى، ورُحت في إغفاءة لم أدر مدتها لكنها كانت مُريحة والحمد لله.

استيقظت في صباح اليوم التالى مُبكرا على صوت هند وهي تقول بصوت عال «يا بدوح.. يا بدوح.. اصحوا بقي»، تشد ستائر البيت حيث تعلن أشعة الشمس الصعيدية القوية عن وجودها القوى على جدران الشقة، لم تكتف هند بهذا، أضاءت أنوار الغرف والشقة كلها في حماس ونشاط، استيقظت قبلنا وذهبت لشراء الفطور وحضرته وظلت توقظنا من راحتنا حتى ذهب النوم وابتعد، إنها انتعاشة الحب

في بادئ أمره، تناولنا الإفطار وذهبنا إلى الجامعة كي نأخذ جداول الامتحانات وأرقام الجلوس.

تقع الجامعة في منطقة نائية عن ازدحام المدينة، تعودنا في حالة ضيق الوقت أن نرتاد سيارات الأجرة، ولكن في يوم نشيط كهذا فوسيلة المواصلات الأكثر أمانا هي الميكروباص، نستقله ونذهب إلى محكمة الاستئناف، لنستقل ميكروباص آخر إلى الجامعة، هذا هو خط سيرنا، نرتدى جميعا ملابس كأمثالنا من الطلبة، ملابس عادية، إلا هند ترتدى العباءة، كانت تدور أحداث قضية مهمة جدًا في المحكمة، كثير من الضباط ورجال الأمن في الطريق، لم ير أحد هند في ذلك اليوم إلا ووقف مشدوها إليها مبهورًا وكأنها جاءت من عالم آخر ملائكي بريء إلى دنيتنا العفنة الشيطانية! أنهينا يومنا الدراسي ورجعنا سويا إلى المنزل، أتينا بالمنضدة التي تحمل التليفزيون حتى نذاكر عليها جميعا في غرفة الاستقبال، وبدأنا نذاكر، ولكن كعادة أغلب طلبة الجامعة المغتربين، تأتى المذاكرة في أول قائمة أولوياتهم إذا ما تحدثوا مع أهلهم، لكنها في حقيقة الأمر آخر شيء يشغل بالهم، أو قد لا يشغله من الأساس، ظللنا نتحدث من الساعة السادسة مساء إلى أن اكتشفنا أن عقارب الساعة تدق العاشرة مساء، لاحظت نظرات البنات لهند بين الحين والآخر، أعرف هذه النظرات الأنثوية التي تقطر غيرة واستنكارًا، تكلمت ياسمين وقد أصابتها العدوى.

- والله يا هند فتح الطريق عامل معاكى أحلى شغل.

- ليه يعنى؟

- كل الناس النهارده كانت بتبص عليكى، لدرجة إني بصيت معاهم أشوف بيبصوا على إيه؟ وإنتي يعنى حتى مش لابسة لبس ملفت..

نظرت إليها هند في صلابة.

- أنا أصلا حلوة يا ياسمين.

أردت أن أنهى النقاش.

- طب يا عم الحلوة منك ليها خلينا نذاكر، مذاكرناش خالص.

بعد وقت قليل دقت الساعة الحادية عشرة، لم نكن تناولنا طعام الغذاء، في برد الشتاء لم تقدر أن تُعد إحدانا أي وجبة خفيفة، الجميع تملص وفضلنا الجوع والإعياء على مجهود يتبعه شبع، قلتها بيأس.

- أنا هنام.

أكملت ياسمين وكأنها تستعد لشيء ما.

- أنا كمان لازم أعمل تليفون.

ألقى الجميع الأقلام التي تصاحبنا والتي تحمل كثيرًا من الأحلام والأسرار، وذهبت كل منا إلى غرفتها، هممت بالنوم من شدة التعب لكنى لم أجرؤ على غلق الباب، فقط واربته كما فعلت بالأمس بعد سماع صوت العطسة! العطسة التي لا أريد أن أتوقف عندها إلى الآن تماما كالسيدة التى تحمل الصندوق!

بعد دقائق سمعت احدى البنات تُعد طعاما، لم أنو القيام فأنا في شدة التعب وأحتاج إلى النوم كما أحتاج إلى الهواء لأتنفس، ولكنى بعد بضعة دقائق أخرى لم أستطع مقاومة رائحة البطاطس والدجاج

المقلي، لن أنجح في النوم بعمق وأنا أشعر بجُوع قارس، تتبعت الرائحة لأشارك صاحبة الطعام لُقمة صغيرة تسد جوعى، نهضت وفتحت باب الغرفة المُوارب، مصدر الرائحة هو مطبخنا العزيز، تسللت إليه لأفاجىء احدى البنات، عندما وصلت إلى المطبخ وجدته خاويا! آثار دخان القلي تملأ الشقة، لابد أنها هند وليلى؟ ذهبت إلى غرفتهما وفتحت الباب فجأة وصحت.

- إنتو يا كلاب.

وقفت مكاني للحظات، كانت ليلى تتصفح الانترنت بينما كانت تتحدث هند عبر هاتفها تحت الغطاء!

سألتنى ليلى وهي ما زالت تتصفح المواقع الاجتماعية دون أن تنظر إلي.

- عملتو الأكل؟ إنتو اللي كلاب، بس مش قادرين مش قادرين ولما ندخل الأوضة تعملوه وتاكلوه وحدكم.

أجبتها نافية.

- أكل؟ أنا ما عملتش أكل!

نظرت ليلى إلى ونفت بدورها.

- أنا ما عملتش حاجة؟

- إزاي أنا شامة ريحة الأكل جامدة حتى الدخان خنقنى!

ذهبنا ثلاثتنا إلى المطبخ من جديد نتفحص المنظر، كانت طاسة القلي موجودة، ذهبت أتحسسها أنا وهند وجدناها باردة! ولكن الدخان وسخونة التحمير لا يزالان بالمطبخ! بدون أن نتحدث

أجمعت عقولنا أنها ياسمين، اتجهنا إلى غرفتها وفتحنا الباب دون استئذان لنجدها في شجار عنيف مع هشام! فسألتها.

- ياسمين... عملتى أكل؟

أشارت بيديها بالنفي فكررت سؤالي.

- يعنى معملتيش أكل؟

بدت في حالة عصبية وقالت في حدة.

- ثانية واحدة يا هشام، والله ما عملت حاجة خالص، والنبى يا بنات خدوا الباب معاكوا.

أغلقت الباب ثم نظرت إليهن في إصرار وتساؤل!

- لا لا يا جماعة أنا شامة ريحة أكل باينة!

أجابتنى هند.

- يمكن عند طنط عاملين أكل وريحته جاية عندنا؟

- لأ، إحنا قافلين الشباك ثم إن ريحة الأكل والدخان جاية من البيت، والطاسة موجودة ومكانها زيت! ثم إنها أصلا مسافرة!

ظهرت ياسمين في حالة غضب شديدة، رويت لها ما حدث، فتحنا الثلاجة وأخذنا نعيد النظر في كل شيء، فوجئنا بأكياس الدجاج والبطاطس مفتوحين! هذا الكيس الكبير من الدجاج وبداخله كيس البطاطس كان احدى المشتريات التي أحضرتها هند البارحة فقط، والتي لم يمسسها أي منا بعد! سألتهن مرة أخرى.

- يا جماعة في حد فيكم أكل من الأكياس دى حاجة؟

جميعهن أجبن.

- لا والله!

أمسكنا بالأكياس لنعد المتبقي، الكيس مكتوب عليه ثماني قطع والموجود ستة قطع فقط، اثنتان ناقصتان! وبالطبع البطاطس لا يعد لكنه مفتوح وناقص! نظرنا إلى بعضنا البعض ذاهلات، الجميع يؤكد «لأ والله ما أكلتش حاجة»!

دخلت إلى غرفتى وأغلقت الباب، وأخذت في البكاء دون توقف، شريط أسوأ فيلم في حياتى يمر أمامى للمرة المليون، البووت.. المحفظة.. النقود.. السلسلة.. الكلاب.. الفرعون وأعيننا.. حركة يدي وعدم التحكم بها.. تبديل الطرح والأحذية.. الأحلام.. السيدة والصندوق.. العطسة.. والآن المطبخ والطعام! متى سينتهي هذا الفيلم السخيف؟

بعد مرور حوالي ساعة من الزمن، لم أدر وقتها كمية الدموع التى أسلتها، جاءتنى ياسمين تطرق الباب ففتحت لها ودخلت، لم أستطع النظر إليها لتورم عيناى، دخلت الغرفة ثم جلست بعيدة عني في هدوء.

- ليه يا مريم كده بس، بتبكي ليه؟ أنا شاكة إن ليلى وهند هما اللي عملوا كده وبيكدبوا علينا، علشان ماعملولناش أكل معاهم؟

- لا لا يا ياسمين، إنتي ناسية الطرح بتاعتنا ولا إيه؟ وبعدين إيه عرفك إني بكيت؟

- سمعت صوتك.

أخبرتها عن السيدة التى رأيتها والعطسة، لم تُعلق، لمحتها تنظر إلى

في زهو غريب، ثم ضحكت ضحكات على صوتها تدريجيا فكانت مفاجأة لي، نظرت إليها فوجدت ملامحها أقرب إلى شيطان، توقفت عن الضحك، وفي لحظات كان وجهها مُلتصقًا بوجهى، نظرت إلى بحدة فارتعبت، وسرت في جسدى قشعريرة غريبة، ركزت في عينى للحظات للحظات وجاء صوتها كالفحيح يتوعدني.

«أنا مش همشى، ده بيتى، المرة دى يسمعوكى، المرة الجاية صوتك مش هيطلع».

أغمضت عينى وصرخت بأعلى صوت لي منذ أن جئت إلى هذه الأرض، فتحت عينى فلم أرها، جاءت البنات مهرولة وأولهن «ياسمين» التي سألت بفزع.

- ليه يا مريم كده بس، بتصرخى ليه؟

رددت ياسمين كلام السيدة مرة ثانية وللحظات لم أفهم شيئا، كيف تُردد نفس الجمل؟ نظرت إليها في ذهول وصرخت أكثر وأكثر إلى أن فقدت الوعي وقت غير معلوم.

أفقت على سريرى مُستلقية عليه فوجدت البنات حولى قلقات، أردت أن أقاوم نفسي وأنظر إلى ياسمين فلا ذنب لها بما يحدث، فلم تكن هى أو ليلى في كل الأحوال، وهذا ما تريده هذه السيدة، التفرقة.. نظرت إليهن في وهن، قالت ياسمين في خوف وقلق.

- الحمد لله على سلامتك يا مريم.. مالك بس؟

واستفسرت هند في جدية.

- إيه اللي حصل يا مريم؟

في حين انتاب ليلى الفضول.

- إنتي كان شكلك مفزوع يا بنتى إيه اللي حصل؟

رويت لهم كل ما حدث لي، تشبه هذه السيدة بليلى وياسمين فوجمن في خوف وحيرة ولم يعلقن، قامت هند وليلى إلى غرفهما بعد مواساة شاردة وبقيت ياسمين.

- والله يا مريم ما عارفة أقولك إيه؟

وأخذت في البكاء هي الأخرى.

- طيب تعالى يا ياسمين نقوم نتوضا ونصلى.

كنت أقاوم خوفي كلما رأيت ليلى أو ياسمين وأقرأ القرآن سراً، فأنا لا أدرى من فيهما الحقيقى؟ أشارت الساعة إلى الواحدة بعد منتصف الليل، حينما ذهبنا إلى الحمام وقابلنا هند تريد أن تتوضأ هي الأخرى.

أحسست بشيء يمسكنى من رقبتى وأنا ساجدة، أخبرت ياسمين فأكدت أنه مجرد وهم وحالة نفسية.

- مريم.. بلاش تركزى كده في كل حاجة عشان عقلك الباطن هيصورلك حاجات تانية مُرعبة أكتر.

بعد الصلاة ذهبت ياسمين وتركتنى وحدى مع أفكارى، هذا هو العقاب الإلهى للجوئنا إلى دجال مشعوذ، الشيخ ماهر كما تسميه هند، هو من وراء كل هذا العبث الذي نعيشه، صليت الفجر ورددت «لا اله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» عددًا كبيرًا من المرات، حتى أعلنت ساعة الوقت أننا في التاسعة صباحا،

أرهق ذهنى وضلت جميع حواسى طريقها إلى النوم أو الراحة المؤقتة، طالما لن أنام سوف أذهب إلى الجامعة، ذهبت إلى المطبخ في توجس لأصنع قهوة تساعدنى على مواصلة اليوم، لم أجد سخان المياه، انتابتنى مشاعر غضب عارمة، ذهبت إلى ياسمين فأقسمت أنها لم تره، عندما وجدته عند ليلى وهند استراح شيء ما بداخلى، ولكن ردة فعلى كانت أكبر من الموقف، أخذته منهما لأستخدمه بغرفتى فقط، فأنا من اشتريته وأنا أحق به الآن.

عقدت العزم على الذهاب إلى الجامعة مُرتدية نظارتى السوداء، حتى لا يرى أحد احمرار عينى وتورمها، والذي سيؤكد لكل من سيراها أني قد بكيت لساعات متواصلة، تمنيت بشدة رؤية عماد وتعمدت أن أذهب إلى نفس المكان الذي قابلته فيه من قبل، لم أستطع أن أكتم إعلان فرحتى عندما رأيته مرة ثانية، بالرغم من كل ما أمر به من أحداث، ناديته وكأني أستنجد به في صرخة صادقة..

- عماد.

كانت ابتسامته مختلفة هذه المرة شبه خالية من الخجل ولكن ألاحظ فرحة بعينيه يريد أن يخفيها.

- مريم.. عاملة إيه؟

أجبته بنبرة حزينة رغم فرحتى لرؤيته.

- الحمد لله على كل شيء.

- يا رب تكوني بخير، مالك؟ في حاجة تانية حصلت ولا إيه؟ اتفضلي اقعدي.

- سيبك من الكلام ده دلوقتى وقولي، أنت هنا مستني إيمان؟

- أنا بحب المكان ده تحديدًا جدًا معرفش ليه، يمكن بحب الشجرة دي علشان كبيرة وقديمة، برضه مش عارف، بس مش مستني إيمان هى معندهاش النهارده محاضرات.

- يعنى أنت جاى تقعد مع نفسك هنا بس؟

- يعني... ممكن جاي أشوفك وأطمن عليكي برضه.

رغم علمي أنه لم ولن يكون لي، لم أرتبك يوما في حياتي مثلما ارتبكت هذه اللحظة وتساءلت، هل يشعر تجاهي بالراحة التي أشعر بها تجاهه؟ أدرك أنه ليس حبًا بالتأكيد ولكنه انجذاب وفضول.

- تشوفنى أنا؟ بس ماكنش فيه ميعاد!

- الأرواح بتتقابل.. لو مضايقك بلاش، بس أنا بصراحة كنت عايز أطمن عليكي.

ابتسمت لإيماني بتلاقي الأرواح وتنافرها، ثم تذكرت ما أمر به.

- عماد.. في أحداث كتير حصلت وحلمت بيك!

- بإيه بقي؟ احكيلي.

- والله ياعماد مش عارفة أقولك إيه! بس في الحلم كنت بتقولي أنا قلتلك خلي بالك من نفسك، ومش عارف هقدر أعملك إيه. حاجة كده، كأنك حاسس بيا.

- حصل إيه يا مريم؟

- حصل بلاوى.. الموضوع بقي علني يا عماد، بيعملوا أكل ويظهروا وأنا مش عارفة أنام ولا آكل ولا أعيش أصلا.

- هما مين اللي بيعملوا أكل يا مريم؟
- العفاريت يا عماد والله، عملوا فراخ وبطاطس، وفي واحدة ظهرت.
سرح عماد ثم همس وكأنه يُحدث نفسه.
- هي بتحبهم.
- هي مين اللي بتحبهم؟
- أمي بتحبهم.. ما جايز الريحة جاية من عندها؟
- إزاي وهي مسافرة؟
- آه صحيح، واللي ظهرت دي شكلها إيه؟
- على شكل ليلى.. وياسمين كمان.
- مممممم.
- الدخان من مطبخنا والطاسة والزيت وكله من عندنا، بصراحة الموضوع زاد بعد ما رُحنا للدجال اللي اسمه ماهر ده ربنا يغفرلنا.
تغير وجه عماد وملامحه تمامًا لغضب لم أره عليه من قبل ونظر للأرض ثم نظر لي نظرة قاسية لم أجد لها مُبررًا.
- مريم.. بلاش يا مريم.. أوعدينى لا تكلميه ولا تروحى له تاني يا مريم، مش هييجى من وراه إلا الشر.
- لا والله من غير وعود، أنا باستغفر ربنا ليل نهار، وده درس عُمري.
بدأت ملامحه تهدأ وحاول أن يبتسم.
- طيب أنا هسيبك دلوقتي لازم أمشي.

- ليه؟ خليك معايا شوية.

- معلش هشوفك تاني.. خلي بالك على نفسك.

- حاضر.

تمنيت أن أكون معه أينما ذهب، نوع نادر من الرجال، تحتمل الحياة في وجوده.

عندما دخلت إلى «السيكشن» مزح بعض الزملاء بشأن النظارة، تجاهلتهم متعللة إني أعاني حساسية شديدة، ولا أستطيع عدم ارتدائها الآن.

ما أن يدخل «مازن» قاعة المحاضرات (السيكشن)، يصمت الجميع وينتبه، كانت شخصيته مهيبة تجعلك تحترمه فور رؤيته، معيد بالكلية تربطنا ببعض علاقات أسرية قديمة وقوية، شاب صعيدى من قنا، أسمر، طويل، وسيم الملامح، جذاب الطلعة، مستواه المادى ميسور، يعاملنى كشقيقة له، يعطيني نصائحه باستمرار، فهو يعرف المجتمع القناوي جيدًا، لاحظ عدم تركيزي وتشتتي على مدار مدة السيكشن، بعد أن انتهى هممت بالمغادرة فناداني.

- يا مريم، استني أنا عايزك.

مشيت معه إلى أن جلسنا على أقرب مقعد.

- مالك سرحانة ومضايقة ليه كده؟ ومش عايزة تقلعي النضارة.

لم أتمالك نفسي، بكيت فجأة أمامه، ظن أنني أعيش في ذكريات أبي ولهذا أرتدي الأسود وأبكي، فرويت له كل ما حدث منذ حادثة حذائي إلى الآن.

- إزاي يا مريم تروحي مكان زى ده؟ تلاقيه كمان أخد منكم فلوس قد كده؟

- لا والله ما أخدش جنيه!

- تلاقيه عاوز يجيب رجلكم طبعًا؟

استمر بكائى الذي لا فائدة منه، لكن لعله السبيل إلى راحتي.

- بصراحة بقي يا مريم أنا مابستريحش لأصحابك دول، طول النهار خروج وسفر! طب فسح وقلنا ماشي، لكن كمان دجالين! لاحظي إنك هنا مغتربة، والناس هنا مش زي ناس أسوان عارفينك.

- حتى لو هما زى مابتقول يا مازن، بس ده مالوش علاقة باللى بيحصل.

- أقولك إيه يا مريم؟ ما عفريت إلا بنى آدم.

- طب والطرح اللي اتبدلت وكل اللي حصل؟

- الطرح دى قرصة ودن من الراجل الدجال ده، كفاية بقي يا مريم إنتي في ليسانس السنة دى، ولو شيلتى مادة هتفضل وصمة عار في الشهادة طول عمرك، افتكري أبوكي الله يرحمه، كل أصحابك دول أصغر منك دراسيًا يعنى لو شالو مادة هيطلعوا بيها السنة الجاية عادي، مش فارقة معاهم.

- بص يا مازن، أنا هرجع أسوان.

- مينفعش يا مريم، لسه في حاجات مهمة جاية، أول ما ترجعي اقفلى على نفسك باب الأوضة وماتختلطيش بيهم وذاكرى.

- أيوه هعمل كده، هجيب أكل نواشف في أوضتى ولا يمكن هدخل المطبخ اللي بيتسرق منه الأكل ده تانى.

- تاني هاتقولى المطبخ؟ يا بنتي ما عفريت إلا بنى آدم، اللي بيحصل ده منكم فيكم، اللي بيعملوا الحركات دى أصحابك، إنتي مش قلتيلي قبل كده إن ياسمين دي بتحب تعمل مقالب فيكم؟

- والست اللي ظهرت؟ والست التانية؟ والعطسة؟ أقولك.. خلاص يا مازن.

- شوفي... ماتستحمليش عليهم كلمة إزاي؟

أنهيت الحوار مع مازن وغادرت الجامعة متجهة إلى السوبر ماركت، اشتريت بعض الأغذية الجاهزة وذهبت إلى المنزل، بعد أن فتحت الباب وأغلقته من الداخل وجدت البنات جالسات في صالة الاستقبال يشاهدن التليفزيون، صامتات على غير العادة وكأنهن ينظرن إلى عالم آخر، لمحت الشيف في التليفزيون يشرح طريقة طهى أحد الأطباق في البرنامج المعتاد، ما بالهن يعشن في عالم آخر هكذا؟ هل حدث شيء آخر بغيابى؟ لن أبالي بعد اليوم، ذهبت إلى غرفتى مباشرة ولم ألق التحية، دخلت ورائى هند بخطوة سريعة ومن ورائها ياسمين وليلى في بطء، وقفتا على عتبة غرفتى وانا بالداخل أمسك بمقبض الباب لأغلقه.

قالتها هند بحزم.

- إيه؟ داخلة على أصنام؟

أجبتها بما لقنه لي مازن وأريد أن أصدقه.

- بصي يا هند.. بصوا كلكم، فاضل على الامتحانات أقل من شهر ومش فاضية أنا لشغل الحلق حوش بتاعكم ده، أنا هنام عشان أصحى أذاكر ومش عاوزة أسمع صوت حد فيكم؟

أنهيت التهديد المباشر وأغلقت الباب بوجههن بشراسة حقيقية لم أكتشفها بداخلى إلا حينها، كان عقلى الباطن يدافع عن مستقبلى، وهديتى لأبى، لم أسمع أي تعليق من إحداهن، انصرفن في صمت غريب، بعد قليل دخلت الحمام لأتوضأ وأصلى، بعد أن أنهيت صلاتى تاركة باب الغرفة مفتوحًا وجدت ياسمين تقف أمامى منتظرة، اعتدت بعد أن رأيت ليلى وياسمين على غير هيئتهما أن أسمى كلما رأيتهما، فإن كانتا هما فسوف يُكملان حديثهما، وإن كانتا غير ذلك سوف تتلاشيان كما فعلا من قبل.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بسم الله الرحمن الرحيم.

- مالك يا مريم.

- بصى يا ياسمين أنا مخنوقة جدًا من الحوارات اللي بتحصل، وامتحاناتى فاضل عليها شهر، لو شلت مادة هتفضل وصمة عار لكن أنتم تشيلوها للسنة اللي جاية عادى مش فارقة معاكوا، لو سمحتى يا تدخلى وتقفلى الباب يا تتفضلى عايزة أذاكر.

أجابتنى ضاحكة.

- طب أنا هتفضل يا مريم.

جلست في السرير المقابل لي بعد أن احضرت جهازًا لسماع الموسيقى، رتبت أوراقي وكتبى لأبدأ المذاكرة ثم رن جرس التليفون، كان مازن المُتصل.

- إنتي زعلتي؟

- لأ طبعًا.

- لا والله يا مريم خدي بالك البلد هنا صغيرة ودماغ الناس أصغر، ويفسروا كل حاجة على مزاجهم، إنتي متعرفيش الناس هنا بتقول إيه على البنات المغتربات؟ «البنت اللي أهلها يغربوها على كلية غير طب أو هندسة نقول عليها إيه»؟ إنتي لو قناوية محدش يقول عليكى نص كلمة، لكن إنتي مغتربة وأنا في الآخر أخوكى وبنصحك.

- خلاص يا مازن.

- إحنا أهل يا مريم خدي بالك على نفسك ولو عوزتي حاجة كلميني.

نظرت إلى ياسمين وسألت سؤالًا تعرف إجابته.

- إنتي اتكلمتى مع مازن ولا إيه؟

- آه.

ضحكت ياسمين.

- آه ... عشان كده بقي راجعة سخنانة علينا؟

بدأت ياسمين تتحدث في أمور مختلفة حتى تغير ما بداخلى حتى ولو مؤقتًا، تتحدث وتضحك في تواصل بلا انقطاع، لم أعرها انتباهى في البداية، كأنها بديل لراديو، أفكر في كل ما حدث ولا يزال يحدث، أغامر بعقلى في مناطق لم أعرفها من قبل، ثم نظرت اليها وبدأت تقبل ما تقول، كحيلة لتغيير مزاجى ولو مؤقتًا، سمعتها تتحدث عن هند وعمر، فتذكرت اتصالها به مستنكرة.

- هو أخبار هشام إيه؟

قلتها وأنا أعاتبها بعينى أو بالأحرى مُحاولة إفاقتها، ماذا عن هشام وكيل النيابة الذي تنوين الزواج به؟ هل كانت تحبه حقا؟ نظرت إلى ياسمين وتغيرت ملامحها إلى حزن عميق.

- هشام خطب يا مريم.

- إيه؟ إيه الكلام ده يا ياسمين؟ امتى ده انتوا قريب كنتم مع بعض؟ إزاي؟ وإزاى لسه بتكلميه؟

- وأنا بقلب في موبايله لقيتله صورة ببدلة سواريه وحاضن واحدة لابسة فستان سهرة.. بقوله إيه ده؟ قالى أنا كنت هصارحك بس كنت خايف عليكي تزعلي، البيه أهله مش راضيين بيا عشان أنا من أسوان مش من سوهاج زيهم، ومستوايا الاجتماعى والمادي عادي ما يشرفش، والدور اللي هما عايشينه يا ستي.

- عشان كده كنتى بتتخانقي في التليفون؟

- آه.

- وإزاي لسه بتكلميه دلوقتي؟

- بحبه يا مريم.. وهو كمان بيحبني، بس أهله مش راضيين، وبعدين هو حلفلي إنه سابها.

- طب ما كنتيش بتشوفي في إيده الدبلة؟

- لأ، تخيلي كان بيقلعها قبل ما يشوفني.. زي الأفلام، أنا اللي هيجننى إزاي كان بيعمل كده يا مريم؟ أنا محستش! ده معايا على طول، بيوديني ويجيبني ومعايا على التليفون طول الوقت، هتجنن مش عارفة إزاي؟

لم أعلق ولم ألومها في موضوع عمر أكثر مما علقت، ردة فعلها طبيعية جدًا، جزء منها يريد الانتقام، عادت ياسمين لسماع الموسيقى، وعاد مخي يدور في نفس الفلك مرة ثانية، هل يمكن لإحداهن أن تفعل كل هذا بنا كما يقول مازن؟ ماذا عن باقى الأحداث؟ جاءت ليلى تطرق الباب.

- مريم.. ما ترجعى البويلر تاني في المطبخ؟ إحنا متشحططين.

- لأ، وماحدش يجيبلى سيرة المطبخ تاني.

ضحكت ياسمين مُستهزئة.

- أنا هجيب باب المحلات الجرار الحديد أقفلكوا بيه المطبخ، طب خليه في الصالة؟

- لأ يعني لأ، لو عايزين تعملوا حاجة تعالوا هنا في أوضتي.

كان عنادي ردًا غير مباشر على عدم اهتمامهن بما يحدث، أشعر أنهن لا يعطين الأحداث وزنها الحقيقى، ما إن يمر أي حدث حتى يجلسن سويًا يشربن الكاكاو ويضحكن! هذه التصرفات لا أستسيغها أبدا، الطبيعى أن يتحملن جزءًا من المسئولية، لا أن أكون الوحيدة التى لا تنام ولا تأكل، وتفكر حتى اقترب مخى من الانفجار، هل كل ما نمر به لا يستحق منهن شيئًا من العناء من أجل معرفة حقيقته؟ أم أن مازن على حق في تخميناته؟ صاحت ليلى.

- ماشى يا مريم.

ذهبت ليلى، ودخلت هند غرفتى دون إذن، ووضعت يديها في خصرها علامة التحدى ناظرة لي نظرة استجواب.

- مالك إنتي النهارده مش حاملة المانجة؟

- بلا مانجة بلا سلطة، أيوه مش طايقة حد، اطلعوا بره عاوزة أذاكر؟

نظرت إلى هند في لوم، غمزت ياسمين بعينيها لهند واصطحبتها وغادرتا الغرفة، جلست أذاكر من الوقت ساعة حتى مللت رجوع عقلي من حين لآخر لنفس المنطقة المظلمة، ثم خاطبت نفسي في ود أستحقه «اعملى نسكافيه عشان تفوقي، واطلعي ذاكري بره على الطرابيزة عشان القعدة دي هتنيمك»، فتحت الباب ووجدت البنات ينظفن منضدة التليفزيون لاستخدامها في المذاكرة ويجهزن أوراقهن، رأونى فابتسمت وجوههن فرحًا، وهللن في طفولة نسيناها.

- هييـيه، مريومة هتذاكر معانا.

تبسمت بتلقائية لردة فعلهن وألقيت تعليماتى.

- بس مش عاوزة أسمع نفس.

هززن رؤوسهن بالموافقة، رأيتهن يشربن القهوة، لقد دخلن المطبخ ولم يهتممن لما حدث! هل أصدق مازن وأريح عقلي وبدني وروحي؟ مر الوقت ونحن في مكاننا نستذكر ما فاتنا، صاحت هند.

- ياه، بقالنا ساعة بنذاكر!

قالتها في حماس.

- نكمل كمان ساعة وبعدين ناخد نص ساعة راحة.

- بس الله يهديكى طلعيلنا البويلر في الصالة.

قالتها ليلى في استعطاف فهززت رأسى مُوافقة، قامت وأحضرته من غرفتى إلى حيث نجلس لنذاكر على الشاي الصعيدى الجميل،

رأيتها تتعامل مع المطبخ وكأن شيئًا بالأمس لم يكن، تغسل الأكواب وتملؤها بالشاى والسكر، تضعها في الصينية وتأتي مبتسمة!

على مدار ساعة المذاكرة الثانية كانت ليلى تشرب الشاي وتتململ في جلستها، هند ترسم دوائر ونجوم، وياسمين تذاكر بجدية، أما أنا فأذاكر وأراقبهما لعلى أصدق مازن، أوشكنا على بدء الاستراحة سمعنا صوت شيء يقع على أرضية المطبخ، فزعت على الفور مُحدقة فيهن، فغر فاهى منتظرًا ما سيحدث، أردفت هند في ثقة.

- ما تخافيش يا بت، دى تلاقيها حتة البلاستيكاية؟

قامت ليلى من مكانها لتستكشف الأمر.

- هي فعلا.

استفسرت لأتأكد.

- إيه حتة البلاستيكاية دي؟

نظرت هند في ثقة وأكدت حدسها.

- دى علبة بلاستيك أم واحدة فينا كانت باعتة فيها أكل، غسلتها وحطيتها على طرف الرخامة.

أدركت حينها إني أتخبطت في أفكارى بمجرد وقوع أي حدث بسيط، أصبحت هشة مشوشة، أدعو الله قدر استطاعتى أن يقوينى ويرينى الحقيقة، بدأت النصف ساعة من الاستراحة في الحديث عن أمور عامة واحتساء الشاي إلى أن انتهى الوقت، لنبدأ الساعة الثالثة من ساعات المذاكرة التي تسبق الامتحانات مباشرة، لعلنا نحصل قدرًا كافيا من العلم يؤهلنا لتجاوز السنة الدراسية بسلام.

* * *

(٦)

بعد دقائق معدودة سمعنا صوت الثلاجة يفتح ويغلق عدة مرات في عنف، كائن ما يبحث عن شيء ما، الطاسة اللعينة، الطاسة تُلقى بعنف على البوتاجاز، صوت الكبريت، اشعال البوتجازّ، صوت فتح زجاجة الزيت! الزيت ينزل على الطاسة، صوت طقطقة الزيت عندما يسخن على النار، الزيت يغلي الآن، وأخيرا.. « تششششش» الدخان يتصاعد إلى خارج المطبخ في تتابع مذهل! صوت قلي، رائحة البطاطس! رائحة الدجاج! الدجاج والبطاطس مرة أخرى!

مررنا بلحظات كأنها الدهر كله فوق رؤوسنا، حملناه ذاهلات مُحدقات في اللاشيء الذي لا نراه غير مُصدقات أنفسنا، مازن لا يفهم شيئًا إذن، ليست هند أو ليلى ولا حتى ياسمين، كلنا سويًا الآن، نظرنا إلى بعضنا لنؤدي نفس المشهد، نؤدي نفس الحركة دون مساعد مخرج يوجهنا، وقفنا في أماكننا، كفوف اليد تغطي الخدود استعدادا للطمها بعد ثوان، الدموع تنهمر بغزارة متلاحقة لا تعرف التوقف، في ظل هذا العبث أتى صوت ياسمين قويًا مختلطًا بدموعها الصامتة تردد في تلاحق وإصرار الاستعاذة بالله، بينما من يقلي الدجاج والبطاطس في المطبخ مازال مستمرًا مستمتعًا كما يبدو، تمالكت ياسمين أنفاسها.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[1].

أصوات المطبخ ترتفع وتعلو كلما رددت ياسمين آية الكرسي، ظلت نبرة صوتها تعلو بقوة وحزم، والأصوات تعلو في تخبط شديد، الزيت.. الثلاجة.. صوت القلي.. أشياء تتكسر وأشياء تضرب بعضها البعض وأشياء تتحطم، كلما تعلو ياسمين بصوتها يرتفع صوت المطبخ صخبا.

صوت ياسمين.. صوت المطبخ.. صوت ياسمين.. صوت المطبخ.. صوت ياسمين..

صوت المطبخ، هنا تدخلت هند بحزم دون أن تبكي.

- الله أكبر ... الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر

توقفت ياسمين التي انقطعت أنفاسها، وظلت هند تقترب من المطبخ شيئا فشيئا وكأنها تتجسس على من فيه، أو ربما تهدئه بينما تكبر حنجرتها إلى أن دخلت المطبخ، كُنت وليلى نبكى دون فعل أي شيء ايجابى، نادت ياسمين هند مُحذرة.

- تعالى هنا يا هند.

ما إن دخلت هند حتى سكتت جميع الأصوات! وسكتت هند! نظرنا إلى بعضنا البعض في ذهول، ماذا فعلت هند، هل مازالت هناك؟ صرخت ياسمين.

[1] سورة البقرة - الآية ٢٥٥.

- هند!

جاءت نبرة الأخيرة منفعلة.

- مفيش حد يا بنات، تعالوا بصوا.

أمسكت ليلى بطرف بيجامتي وأمسكت أنا بيد ياسمين، مشينا ثلاثتنا في خوف ناحية المطبخ، بالقرب منه، لن أدخله قطعا، أريد فقط أن أرى ماذا حدث؟ الطاسة اللعينة على البوتاجاز بداخلها الزيت البارد تمامًا، بينما لازال الدخان يتصاعد خارج المطبخ مصطحبًا سخونته معه، تمامًا مثلما حدث في المرة السابقة! جاء صوتي مرتعشًا.

- افتحي كده يا هند نعد الفراخ؟

فتحت هند الثلاجة ومدت يدها نحو الأكياس في جرأة ثم أردفت.

- الفراخ ناقصة اتنين والبطاطس متشال منه كمان يا بنات! يعني هما دلوقتي أربع قطع؟ والبيبسي كمان مشروب منه وفاضل قلة!

أغلقت هند باب الثلاجة وعلامات القلق تسود وجهها، أخيرًا أظهرت قلقها.

- إيه ده يا جماعة؟!

لم يكن لدينا أية إجابة، بعدها بدأت هند في ترتيب المطبخ، في نفس اليوم ونفس الساعة ونفس اللحظات، كيف تفعل هذا؟ لم ولن أفكر في إدراك جرأة هند في هذه الأمور، هل تستطيع إنسانة طبيعية مهما بلغت قوة أعصابها أن تفعل ما تفعله هند؟ لعلي أبالغ بعض الشيء.

أحسست بالعجز والذهول، سمعت مرات عديدة قصص من الصعيد المصرى، وفي أسوان قصص الجن الذي يسكن أعماق النيل، لكنني لم أفكر للحظة أني قد أروى قصة مُشابهة في يوم من الأيام!

لقد خلق الله الإنس والجن فقط ليعبدون، سمعت ذات مرة أن مخلوقات الجن منهم المسلم والمسيحى واليهودى والملحد مثلنا تماما، منهم الطيب ومنهم الشرير، منهم المسامح ومنهم المنتقم المؤذى والعياذ بالله، أؤمن بهذا طالما أن خلقهم ذُكر في القرآن، هذا الذي حدث في المطبخ ويحدث من قبل، هم الفاعلون، أو هو، أو هي؟ لا أدرى، لكن الأصوات العنيفة الصادرة منهم أثناء وجودهم في المطبخ تدل على أنهم غاضبون، وربما قلقون أيضًا، زاد توترهم عندما قرأت ياسمين القرآن، كان هذا واضحًا، هل هو أو هم مسلمون؟ مسيحيون أم يهود؟ أم ملحدون؟ لماذا سكتت جميع الأصوات عندما دخلت هند بالرغم من تكبيرها المستمر قبل دخولها! هل تربطها صلة ما بهذه المخلوقات؟ أحسست وقتها أنها تروضها، أو على الأقل تعرف كيف تهدئ من روعها! تمامًا كصاحب كلب يروضه.

عجزت عن فهم حقيقة ما يحدث ولماذا؟ ولماذا تحديدًا في شهر الامتحانات؟ لا أريد الرسوب وسوف أحارب من أجل هذا الهدف، ولكن ماذا أفعل الآن؟ أراني أقف هزيلة وحيدة رغم وجود البنات حولي، أفتقد أهلي بشدة ولا أريد إخبار أحد منهم، لا أريدهم أن يعيشوا ولو حتى لحظات قلق من أجلي، يمر الشريط السينمائي الكريه مرة أخرى أمامي، لا أريد أن أراه لكنى مُسيرة غير مُخيرة، فجأة تحولت مشاعري المتوترة إلى نمر يريد أن يفترس أي شيء، حتى ولو كان غير مرئي، تجمعنا في غرفة ياسمين وهند لا تزال بالمطبخ تنظفه! فسألتهن.

- حاسين بإيه دلوقتي يا بنات؟ ها؟ حسيتوا بيا؟ أحسن عشان تشيلوا المسئولية معايا شوية، اشمعنى أنا وحدي اللي شايلة الهم؟

قلتلكم على موضوع العطسة وعادى، قلتلكم على الست والست التانية اللي ظهروا وعلى شكلكم كمان وبرضه عادى ولا حد اهتم!

نفت ليلى.

- والله ما أعرف موضوع العطسة ده؟

سردت لها ما حدث معي، أبدت اندهاشًا غير مصطنع وقالت مستنكرة.

- كل ده حصل من ساعة مارحنا للراجل ده.

دخلت هند الغرفة عاقدة زراعها اليسرى على وسطها ويدها اليمنى تمسك ذقنها وهي تفكر.

- صحيح الشيخ قالي لو حاجة تاني حصلت أكلمه، أنا هاكلمه؟

صحت بغضب.

- لأ يا هند ماتكلميهوش.

استجابت ياسمين على أمل.

- ليه يا مريم خلينا نشوف في إيه.

- لأ، أنا حاسة إن هو اللي بيعمل فينا كده؟

- ما هو لو هو اللي بيعمل فينا كده أدينا بنقوله أهو حصلنا الرعب يا عم الحاج، كفاية كده، ونقوله إن إحنا رايحين تاني عشان يتعشم هو أكيد عاوز فلوس، نطمنه بس.

- مش عارفة بس أنا وجهة نظري مانكلموش.

بعد مدة من الزمن لا أعلم إن كانت ساعات أم دقائق فقدت إحساسي بالزمن وبأشياء كثيرة، فتحت هند مُكبر صوت تليفونها

المحمول، رن الهاتف الآخر، صوت دعاء ديني، مرت أمامي أحداث قرية البياضية مرة أخرى، لا أستطيع نسيان تفاصيل ليلتها، صوت خشن يرد.

- ألو.. سلامو عليكوا.

- وعليكم السلام يا شيخ، طبعا أنت مش عارف أنا مين، أنا هند اللي جيتلك أنا والبنات صحابي من كام يوم.

كيف يكون بين عائلتها وبينه حساب مفتوح ولا يعرفها؟ بل تذكره بنفسها؟

- آه يا بابا إزيكم عاملين إيه؟ ليه ماتصلتوش لما وصلتم بالسلامة؟

- معلش والله يا شيخ أصل اتلهينا نطلع على قنا ولا الأقصر، المهم يا شيخ عاوزة أقول إن الشقة بيحصل فيها حاجات كتير.

وبدأت تقُص عليه كل الأحداث وهو صامت وأكملت.

- مش بس ده يا شيخ، امبارح كان في ريحة أكل في الشقة جامدة لحد ما جات مريم عندنا وعرفنا كلنا إن ماحدش فينا عمل الأكل ده، ودلوقتي إحنا وقاعدين حصل كده!

- طيب يا هند افتحي الميكرفون وعدي على الأوض كلها وأنا هاقرأ.

ظل الميكروفون «على حد تعبير ماهر مفتوحًا، وتابعت هند السير وحدها في الغرف، غرفة تلو الأخرى، تقف في المنتصف والأركان وهو يقرأ، لكنه لم يكن من القرآن في شيء، يتحدث بلغة غير مفهومة،

وكأنها مجموعة طلاسم متقطعة ومتشابكة خالية من ذكر الله، بالطبع كان للمطبخ فيه نصيب الأسد.

بعد هذا العرض المسرحي الغريب، جلسنا جميعًا في غرفة ياسمين نتذكر الأحداث التي مررنا بها من بداية لقائنا بماهر، وبينما تتحدث البنات أحسست أن عقلي يذهب إلى عالم آخر، أرجوك لا تذهب، أو اذهب وخذني معك لعلني أفهم شيئا واحدًا، لم نعرف لطريق النوم وسيلة، أدرنا التليفزيون لنستمع إلى آيات القرآن الكريم، ذهبت هند وليلى إلى غرفتهما وذهبت أنا إلى غرفتي وتركنا ياسمين شاردة تفكر.

بدأ الخوف يخيم على أفكارنا ويسيطر على طريقة تفكيرنا، بدءًا من هذه الأيام لم نستطع أن نتجاهل ما حدث وما يحدث، وما سوف يحدث بالتأكيد ولو لبضع دقائق، حاولت أن أتذكر مريم الحقيقية، مريم الأخرى التي تعيش بداخلي، لن أستسلم أبدًا، مرت هذه الليلة دون أحداث أخرى.

أدركت الصباح الباهت أو هكذا كنت أراه، تأرجحت روحي بين اليأس والمقاومة، لكني في هذا الصباح كنت أتعامل مع كل الأمور بيأس، تحولت شخصيتي إلى شخصية أخرى بعيدة عني، فقط أقاوم رغبتي في ترك كل شيء والعودة إلى أسوان، إنها الأيام الفارقة في السنة الدراسية وربُما في عمري كله، قررت أن أتخلص من كل هذه المشاعر السلبية وأستعين بالله على قضاء أموري.

قهوة باردة في الغرفة، القهوة التي تصنعها بالماء الساخن والبن والسكر ليست قهوة، ليست إلا شرابًا يساعد أجفانك على عدم الانزلاق إلى الأسفل فقط، القهوة الحقيقية لها طقوس خاصة، أحب

تلك اللحظات التى أتأملها في انتظار على نار هادئة إلى أن تقترب من الفوران فأرفعها في عشق، لتنزل ساخنة عطرة في قدح ينتظرها بحرارة، إحساس حُرمت منه، والآن لابد من احتساء هذا الشراب السخيف بدلًا من ذاك المشروب الرائع بينما أستعد للذهاب إلى الجامعة في هذا الوقت المبكر، لابد أن أذاكر وأحاول تحصيل ما فاتنى، ذهبت إلى الجامعة شاردة كالعادة، غير مُبالية بتعليقات زملائى، لا أتحدث إلى أحد، فقط إجابات قصيرة غير شافية، لم يعتد زملائى هذه الشخصية العجيبة، انتهت المحاضرة وخرجت أول طالبة من القاعة بدون أن أنطق بكلمة واحدة، أسرعت إلى المنزل لأجد ياسمين تذاكر، لم أهتم.. ذهبت إلى غرفتى وكأني صنم متحرك! بعد قليل جاءت ياسمين تطرق باب غرفتى.

- في ناس عايزينك يا مريم بره.

خرجت لأرى زميلاتى بالجامعة اللاتى لم أنطق بكلمة واحدة معهن اليوم، سمر.. سارة وأخريات، سارة فتاة نعرفها بتدينها وحسن خلقها، سمر من أقرب الزميلات وأكثرهن ودًا لي، جلسن بغرفة الاستقبال، فذهبت لأستضيفهن، جلست على أحد الكراسى البلاستيك القريبة من التليفزيون.

- أهلا يا بنات إزيكم.

تحدثت سارة باهتمام وطيبة.

- إحنا جايين وراكى مخصوص علشان نعرف إيه اللي مضايقك!

- أبدًا، ولا حاجة، بس بقالى فترة بذاكر ومش بنام.

جاء صوت سمر معترضًا على ما أقول.

- لا يا مريم، شكلك باين، عينك طالعة لبرة ووشك شكله متغير وصعب، وخاسة جدًا، وبصراحة يعنى إحنا قلقانين عليكى بقالنا فترة.

نظرت إليها سارة بعنف في تأنيب دون أن تنطق كلمة.. فأردت طمأنتها.

- متقلقوش...بصراحة عندي مشاكل في البيت بس.

- طب قولى يا مريم.. إحنا أخوات...فضفضى.

قالتها سارة بصدق لمس قلبى.

- إن شاء الله كل حاجة هتبقى كويسة.

ظلت سارة تنظر إلى جدران الشقة وكأنها تتفحصها، ترتسم على وجهها علامات غير مريحة، باقى البنات ينظرن إلى متشككات فيما أقول، نظراتهن لي ولبعضهن البعض تعطينى انطباع الشفقة التي أستحقها بجدارة، أجبت أسئلتهن بجمل قصيرة تفي الغرض، فأنا لا أريد أن أتحدث أكثر من هذا، أردفت سارة بعفوية.

- بس إنتي صلى على النبى يا مريم وأمشي من الشقة دى.

جاءت جملة سارة في غير محلها تماما، إنها المرة الأولى التي تزورنى فيها، لا أحد يعرف بالأمر غير مازن ولا يعقل أن يتفوه مازن بكلمة واحدة مما يعرفه، ما بال سارة تتفحص الجدران هكذا؟

- ليه بتقولى كده؟

تلعثمت سارة وقالت.

- يعنى.. بعيدة ومش حلوة.

- لا يا سارة إزاي يعنى؟ طب أروح فين دلوقتى والامتحانات اهى خلاص على الأبواب؟ وبعدين إحنا شقتنا بالنسبة للشقق اللي بتتأجر نضيفة جدًا، إنتي عارفه مستوى الشقق إزاي، بس ليه بتقولى كده؟

وقفت فجأة وحملت حقيبتها وقالت في عجلة.

- طيب خدى بالك على نفسك يا مريم، ياللا ياللا يا بنات عشان متتأخرش.

سلمت وذهبت البنات كُل إلى وجهتها، كُنت على يقين بأن جلسة نميمة بريئة سوف تنعقد فور خروجهن، وقد كان، فور وصول سمر إلى بيتها هاتفتنى.

- ألو.

- أيوة يا مريم، إيه يا بنتى مالك؟

- مفيش يا سمر مرهقة بس شوية.

- بقولك إيه.. البت سارة أول ما خرجنا من عندك قالت؛ يا ساتر إيه الشقة اللي مريم قاعد فيها دى! شقة كده تقبض القلب، أنا مش عارفه هي قاعدة فيها إزاي دى؟ طول ما إحنا قاعدين خيالات رايحة وجاية.

- يا سلام! وبعدين.

- أنا رديت وقلتلها تلاقى البنات أصحاب مريم مش بيصلوا، بس إزاي صحيح يا مريم مش بيصلوا؟ ده كفاية هند لوحدها حجت بيت ربنا.

انتهت المكالمة دون تفسير أو تعليق منى أو منها.. فقط القليل من الأسئلة والكثير من «خلى بالك على نفسك»، حينها قررت للمرة الألف أن أسيطر على نفسي وأن أمحى كلمة «خوف» من عقلى، على الأقل إلى أن تنتهى فترة الامتحانات بسلام، سوف أعى حديث مازن وأذاكر، لجأت لصنع نفس المشروب الكريه شبيه القهوة في غرفتى كى أذاكر، وبدأت رحلتى مع الملخصات والمراجع والكتب في هذه الليلة.

في هذه المرحلة تحديدًا كانت الصلاة في حد ذاتها عملا من أصعب ما يكون، ليس على قلبى ولكن ما يسبق الصلاة، الوضوء، كان الوضوء من أصعب الأشياء، بعد أن أنتويه تبتدى رحلة الشد والجذب، أشعر بيدى كأنها قد شُلت، وفي بعض الأحيان أقف أمام الحوض وكأن أحدا يشد يدي لمنعها من أن تدخل تحت الماء المتدفق من صنبور المياه، أكاد أحس ما أقصه الآن كلما تذكرته، لا تستطيع ياسمين إتمام وضوئها! رأيتها وهي تُعافر لكي ترفع رجلها أثناء الوضوء، ذهبت إليها لأنى على علم بما تمر به فساعدتها، إلى أن قررت هي أن تتوضأ في «البانيو»، فتترك المياه تنساب على يديها وأرجلها من شدة الألم.

ذهبت كُل منا إلى غرفتها تصلى، كنت أصلى وكأن شيئا يمسك برقبتى أثناء الركوع والسجود، فلا أتنفس، أرجلى ثقيلة كأن ثبتت بها كُل حديد، لم أهتم وظللت أركع وأسجد في إصرار وتعب، ثم جاء وقت الاستذكار الذي أتمناه بحق.

* * *

(٧)

كانت لنا عادة كُلما احتاجت إحدانا شيئًا من الأخرى أن تتصل بهاتفها، فتعرف الأخيرة أن المتصلة تريد شيئًا ربما لكسل منها، فتذهب إلى غرفتها، بدأت أذاكر فرن هاتفي، وكانت ياسمين المُتصلة، ذهبت إلى غرفتها ودخلت فوجدتها تتحدث في هاتفها المحمول! سألتها.

- إيه يا ياسمين عايزة إيه؟

تقطع ياسمين مكالمتها لثوان.

- إيه يا مريم في إيه؟

- رنيتى عليا؟

- لأ أنا مرنيتش!

- لأ إنتي رنيتى عليا حالا!

- يا مريم أنا بتكلم في الموبايل قدامك، ومش معقول هاقوله ثانية واحدة وأرن عليكى!

نظرت إلى هاتفي لأتحقق من قواى العقلية، برغم تأكدى من اتصالها بى، فلم أجد اسمها في سجل المكالمات التي لم يرد عليها! بدأت أتشكك في نفسي، لكنى استعدت ثقتى بنفسى في لحظات وأردفت.

- على فكرة يا ياسمين الموبايلات كمان فيها حاجة!

ضحكت ياسمين قائلة.

- إيه بقى علاقة الجن بالتكنولوجيا؟

كانت تتحدث إلى عمر حينها، عندما سمعها تقول «جن» طلب منها أن يتحدث معي فوافقت، جاء صوته رافضًا.

- ازيك يا مريم.. عاملة إيه؟ إيه اللي انتو بتحكوه ده يا بنتى، بطلوا خُزعبلات؟

- لا يا عمر أنا مش عايزة حد يقول لي كده، اللي إحنا فيه مش خزعبلات، إحنا اتبدلت طرحنا وشفت ناس وسمعنا أصوات في المطبخ وحاجات كتيرة حصلت!

- خلاص يا ستى مش خُزعبلات، المهم إنتي عاملة إيه؟

أنهى عمر الجدال سريعًا لأنه سمع حدة لهجتي، حدة الحق، لم يُصبنى الجنون بعد، ذهبت إلى غرفتى من جديد، يصاحبني إحساس الرعب الذي اعتدته منذ فترة ليست بعيدة، لكنها تمر عليّ مرور السنين، أعتقد أن غرفتي هي الأكثر أمانا من باقي الشقة الملعونة، أو ربما كان عقلي الباطن يطمئنني، وجود شباك بالغرفة يطل على الشارع وسماع أصوات المارة يعطيني إحساس الأمان المؤقت، مرت نصف ساعة، فتحت ياسمين باب غرفتي في عصبية نتيجة مُشاجرتها التي وصلت لأذني مع عمر.

- ها يا زفتة عايزة إيه؟

- في إيه؟

- رنيتي عليا؟

- لأ ما رنيتش عليكي! مفيش مكالمات صادرة أهو؟

ذهبت ياسمين لتتحقق من هاتفها، لم تجد اسمي في المكالمات الفائتة، جاءت إلى مرة أخرى مذهولة.

- معقول يكون في حاجة في الموبايلات كمان؟

- ها.. إيه الأخبار بقى دلوقتي؟ صدقتيني؟

- طب تعالي نشوف البنات واخدين جنب مننا ليه؟

ذهبنا إلى غرفة هند وليلى وقصصنا عليهن ما حدث، صاحت ليلى بعفوية.

- إيه ده؟ وإحنا كمان!

نظرت إليها هند في تهديد وقالت.

- وإحنا إيه؟

تجهم وجه ليلى وانطفأ ثم قالت.

- لا ولا حاجة، بقلوكم إيه ...أنا مش قادرة أعيش في الشقة دي، أنا همشي بكره وأذاكر في بيتنا.

بدت هند مسيطرة على ليلى، تركتهما تتحدثان غير مبالية بما يقولان، أصابتني حالة من اليأس، ذهبت إلى غرفتي أبكي، ها أنا الآن أمضي خمسة أيام لم أذق خلالها طعم النوم أو الراحة، نسيت طعم الأكل واشتهاء أي شيء في الدنيا، دخلت في وصلة مناجاة مع الخالق بصوت عال دون أن أدري.

"يا رب.. يمكن أكون عملت حاجة غلط في حياتي وأنا ماعرفش،

لو هو ده عقابي يا رب ماتخليش عقابي كده»، سجدت على الأرض فجأة وبصوت عالٍ خاشع باكٍ ظللت أردد لفترة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

انتهيت من مناجاتي للقدير العظيم وجففت دموعي، ثم أتيت بأربع ورقات بيضاء كبيرة وقلم ملون عريض حتى يكون الخط واضحًا ومعجون أسنان لتثبيت الورق على الحائط، ثم كتبت على الورقة الأولى «الله»، الثانية «لا إله إلا الله»، الثالثة «محمد رسول الله»، الرابعة «ألا بذكر الله تطمئن القلوب» ثم علقتها على جدران غرفتي.

قضيت الليلة كلها أستقبل مكالمات ياسمين التي لم تطلبها، لم أكلف نفسي عناء الذهاب إليها مرة أخرى، كنت أيضًا على تمام التأكد أن نفس الشيء يحدث معها، وأنها تفعل تمامًا مثل ما أفعل!

فكرت في أن أجيب الهاتف، قاومت خوفي فانتابني خليط من الأحاسيس كالفضول والتحدي والغضب والعند، لن أستطيع أن أصف اجتماعها في إحساس واحد، قررت أن أجيب من يتصل فهممت بالرد فسكت الصوت!

فتحت الهاتف لأرى المكالمات الفائتة، لم يُدرج اسم ياسمين بها، المكالمات حقيقية ولكنها غير موجودة، كأنها وهم، سوف أفترض أنني الموهومة، هل تتوهم ياسمين هي الأخرى؟ لكن لماذا ياسمين تحديدًا؟ لماذا ربطوا الاتصالات بيني وياسمين وبين هند وليلى؟

---

٢ (سورة البقرة الآية رقم ٢٨٦).

جاء صوت أذان الفجر فهدأت جميع المخلوقات، توضأت بالغرفة من زجاجات المياه المعدنية التي أملأها، لم أجرؤ على مغادرة الغرفة حينها، عندما تذهب حيث تشاء وقتما تشاء دون تفكير أو خوف، عليك أن تحمد الله على ذلك، فكم من نعم لا نُدركها إلا عند فُقدانها، صليت وجلست أقرأ القرآن، ونسيت معنى كلمة مذاكرة تماما، قرأت سورة البقرة كاملة، أوشكت المياه المعدنية على النفاذ ففتحت الباب لأذهب إلى الحمام وأجدد وضوئى، فوجدت هند وليلى تقفان على باب غرفتهما، وياسمين أيضا تقف على باب غرفتها، من الواضح أننا جميعا فتحنا أبوابنا في نفس اللحظة، الجميع يريد أن يتوضأ، الجميع يلجأ إلى الخالق، ملامح البنات تُعلن أن النوم لم يكن زائرًا، توجد علامات استفهام وأسئلة في عينى كل منهن لكنهن لا يتحدثن، توضأت ليلى وهند سويا ثم جاء دورى أنا وياسمين فتملكتنى روح المقاومة والشجاعة فجأة فطلبت من ياسمين أن تبدأ وسأنتظرها بالخارج، كنت أحس بالأمان المؤقت عندما نكون جميعًا على مقربة من بعض، توضأت ياسمين ثم جاء دورى لتنتظرني هي بالخارج فلم نكن نغلق باب الحمام بأي حال من الأحوال!

فتحت الصنبور فوجدت المياه شديدة السخونة حتى أنها أحرقت يدي وفجأة تحولت إلى جليد من شدة برودتها! لم يكن سخان المياه يومًا هكذا؟ مازلت أتوجع كل وضوء، كلما أدخلت يدي تحت المياه الجارية أحسست بأيد قوية تشُدها بعيدًا، فصرخت.

- آه.. آه..

انتبهت ياسمين بالخارج وكأنها تكتمت نفس الشيء في نفسها بعد أن زادت حدته عن ذي قبل ثم قالت بصوت عالٍ.

- معلش يا مريم، استحملي، وأنا كمان يا مريم حد بيشد إيدي ورجلي جامد!

كانت المقاومة حقًا شديدة إلى أن تدخل أيدينا تحت المياه، حينها تصبح الأمور أسهل، كُنت أفكر أثناء الوضوء فيما سأفعله بعد الصلاة، سوف أغلق غرفتى وأبدأ بالمذاكرة، أريد أن أستجمع قواي وأحلامى، لا يمكننى المجازفة بسنة من عمرى وسنة من قلق أهلى وجهودهم، نجاحى هو هدية أبى، أريد أن أظل متيقظة أكبر قدر من الوقت، الوقت الذي لا يرحم ولا يعرف صعوبة الظروف، فقط يمر ويجرى مثل هذا الماء الذي يجرى أمامى، غير عابئا بما نحمله من هموم وأمنيات وخوف، تمنيت لو أن يمر بطيئًا؟ لو أن عقارب الساعة ترجع إلى الخلف قليلا، أريد أن أستعيد نفسي وعقلي، لكني استطعت أن أتغلب على خوفي وأدخل الحمام وحدي.

وفجأة انتظمت المياه على درجة حرارة معتدلة وخفت حركة الأيدي والأرجل فتوضأت بخفة، كل شيء طبيعي! أترانا نُرعب أنفسنا أكثر مما يجب؟ أم نتوهم كل هذا؟ أغسل وجهي بيدي وأنظر في المرآة، من هذه التي أراها؟ ما كل هذا الإرهاق! ما هذه الهالات السوداء العظيمة المحيطة بعيني؟ أغسل وجهي مرات ومرات، أنظر في المرآة مرات أخرى ربما يذهب هذا السواد أسفل عيني؟ مرة أخيرة أغسل وجهي بيدى الاثنتين ناشدة استرخاء لا أجده، أنظر في المرآة لأرى يد ثالثة تغسل وجهي معي!

لم أصدق ما رأيت، اتسعت عيناي عن أخرهما حتى أوشكت على الانفجار وتحجرت في مكاني، أغمضت عيني وغسلت وجهي ثم نظرت في المرآة، فلم أجد شيئًا، أغمضت عينى وغسلت وجهى مرات ونظرت في المرآة فوجمت.

اليد الثالثة تُحضر الماء وتغسل وجهي وكلتا يداى متسمرتان في الهواء، مازلت في مكاني، قواي تنهار لا تستطيع أرجلي أن تحملني، ولا تستطيع حنجرتي أن تنطق بهمسة لأنادي ياسمين! مددت يدي لأتحسس هذه اليد الثالثة الجديدة لأجدها حقيقية! وضعت يدي بسرعة تحت صنبور المياه الجاري الذي أصبح باردًا فجأة ومددتها مرة أخرى على وجهي في نفس الوضع لعلي أصبت بالجنون أو أصاب عينى مرض، لا أرى شيئًا هذه المرة، إنه عقلي الباطن المريض الذي أتلفته من قلة نومي، الحمد لله لا شيء، لابد أنه ضعف إبصار، وأنا لم أنم نومًا عميقا منذ فترة طويلة، مرة أخرى أغتسل، يدي تحت الماء ثم على وجهي لتصاحب يداى الاثنتين هذه اليد الثالثة الغريبة من جديد، اليد الثالثة على وجهي تفعل مثلما تفعل يداى تماما!

لم أتمالك نفسي، خرجت من الحمام مهرولة لا أستطيع التنفس، لا تحملني قدماى أسرع الخطى للخارج في هلع هائل، ارتطمت بياسمين التي كانت مازالت تنتظرنى بالخارج، سألتني عن سبب تأخيري.

- مالك اتأخرتي ليه كل ده؟ شفتى أيدينا محروقة إزاي من السخان؟ مريم.. ادخلي على جوجل وهاتي دعاء الوضوء، عايزة

أقولك إن حركة السخان دي ما بتحصلش إلا في الوضوء بس!
كده أكيد الجن يا مريم مش عاوزنا نتوضى ونصلي!
لم أرو هذه القصة لها ولا لأي من البنات حينها، كان الحدث أكبر بكثير من السخان وثقل الأيدى والأرجل، كان فوق الاحتمال، أخذت قراري وقتها بالوضوء في غرفتى كما فعلت قبل ذلك بزجاجات المياه المعدنية، بعد أن أحضرت الدعاء أخذنا نردده سويا لنحفظه، ثم أجهشنا بالبكاء واحتضنا بعض إلى أن انتهينا من بكائنا اليائس، صلينا الفجر والسنة، ذهبت ياسمين إلى غرفتها بعد ذلك وظللت أنا أسبح وأستغفر وأقرأ الأذكار، ظللت أواظب على وضوئى في غرفتى ولن أتوضأ في الحمام مرة أخرى.

جاء نور الصباح أخيرا وملأ الأرض أمانا، لابد من حضور المحاضرات، ذهبت إلى الجامعة في حوالي الساعة التاسعة صباحًا، لم أدرك أني قد أسقط على الأرض أو أستسلم لإغفاءة سريعة في أي مكان دون وعي بسبب انعدام النوم، بمجرد أن جلست في «السكشن» ملت برأسي إلى الأمام وغطيت في نوم عميق لم أذقه منذ أيام طويلة، استيقظت على صوت ويد مازن.

- مريم.. مريم.. اصحي يا بابا.. مالك؟

- هي المحاضرة خلصت؟

- آه خلصت، إنتي من ساعة ماجيتى وإنتي نايمة! إيه الحكاية؟ مارضيتش أصحيكي.

- كويس إنك ماصحتنيش.

نظر إلى مازن نظرة مليئة بالقلق والفضول، وسألني.

- إيه أخبار الشقة؟

- الشقة باظت خالص يا مازن.

ثم قصصت عليه جميع الأحداث الأخيرة بينما دموعى تتساقط وأنا أستغفر الله.

- أنا خلاص يا مازن خلاص مش قادرة.. مش عارفة أعمل إيه؟

انتابتنى حالة هستيريا وعلى صوت بكائى، جففت دموعى وأخذت قرار.

- أنا همشي، هي الساعة كام دلوقتي؟ الساعة ٢.. خلاص همشي في قطر الساعة ٥.

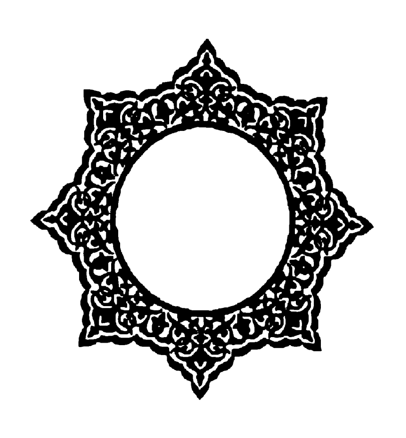
- لأ إنتي جيبي شنطك وتعالي عندي في البيت، والله ما عفريت إلا بنى آدم، أو واحدة فيكم هي اللي فيها حاجة وبتأذيكم.

- بصراحة يا مازن كلهم زيى، وشهم زفت، حزين ومهموم وكلهم مابقوش يدخلوا المطبخ ولا الحمام، كله بيدخل حمامات المطاعم والجامعة، وكله بياكل دليفرى مع إن في أكل كتير في المطبخ، هو المطبخ ده مسكون، ودايما دلوقتي نسمع كركبة فيه كأن حد بيدور على حاجة؟ ده بقى عادى جدًا، لا يا مازن كل البنات كدا.

- الامتحانات بتقرب يا مريم مينفعش تسافرى دلوقتى خالص، إنسي الموضوع ده، هقعد أقولك الكلام بتاع كل مرة؟

- لا يا مازن أنا همشي.

* * *



«كُنت جالسة في غُرفة الاستقبال أفكر فيما يحدث ثم سمعت إحدى البنات تُحضر الطعام، وأثناء ذلك طرق الباب ثلاث طرقات فقمُت لأرى من الطارق، فتحت الباب مُواربا فلم أتبين أحدا بالخارج، فتحته على مصراعيه لأرى من كان يطرق الباب وكأنني قد نُقلت إلى عالم آخر في ثوانٍ معدودة، رأيتني أبحث عن شيء لا أعرفه وألف وأدور في فناء بيت واسع من طابقين، مزركشة أرضيته بألوان كثيرة متداخلة ومتجانسة بشكل يثير البهجة في النفس، ألوان الحوائط بيضاء وزرقاء زاهية تجعلك على حين بغتة تشعر بالأمل، يغطي الزرع الأخضر والورد أركانه»

كثير من الغرف المغلقة تملأ جوانب ساحة فنائه والتى تزينها نافورة مياه في منتصفها، تُصدر خريرًا كأنه إيقاع موسيقى فريد، كانت أبواب البيت خشبية بنية اللون طويلة عتيقة شامخة، الشبابيك على نفس طراز الأبواب مع اختلاف أماكنها، منها صغيرة الحجم مكانها عالٍ للتهوية، ومنها متوسطة الحجم في مكانها المُعتاد، أو على

حسب الاحتياج والرغبة، أما سقف البيت فكان أشبه بالسماء في علوه على شكل قُبة هائلة، وبينما أتجول في هذا البيت لم أُدرك ما أبحث عنه فنظرت إلى السلم الخشبي الذي يقودني إلى الطابق الثاني، عرجت عليه في خيفة وتوجس، فقد حل الليل وانتشر الظلام ولم يكن هناك أحد لأتحدث إليه، في الطابق الثاني كانت أبواب الغرف العديدة كلها مغلقة ورأيت بابا وحيدا كبيرا لغُرفة مختلف طرازه عن كل الأبواب.. باب كبير مُنقسم نصفين يُفتح ويُغلق من اليمين ومن الشمال، الباب مفتوح على مصراعيه يصدُر عنه ضوء شعاع أبيض خافت، ساقتنى قدماى إليه ونظرت بداخل الغرفة، فرأيت شيخاً مُسناً يُشع وجهه نورا، ذو لحية بيضاء عظيمة، أطلق شعره الأبيض الطويل على كتفيه في حُرية، وسيم رغم شيخوخته، يرتدي جلبابًا أبيض قصير وتحته سروال أبيض وحذاء جلدى سلس وناعم لونه أخضر فاتح على شكل محذب يشبه البُلغة المغربية، على رأسه غطاء أبيض مُتدلى من الجانبين.

كان الشيخ يجلس في الغرفة وحده على سرير في منتصف الحُجرة مستندا بكلتا يديه عليه، خلفه شباك في أعلى الحائط وهو مصدر الضوء، نظراته حادة وثاقبة لدرجة تخيلت معها أنه ينتظرنى منذ فترة ويعاتبنى لذلك، كان من الواضح أن الشيخ ينتظر أحدا بالفعل، مع ذلك بدى لي أنه يبتسم، عندما هممت بالانصراف من أمامه نادى بصوت عذب تردد في المكان وترك رهبة..

«مريم.. نقاءُ القلب هبة من الله، والأمانة إما ابتلاء وإما أجرُ عظيم، بارك الله فيك وعليك»

***

(٨)

لم أعتد حمل مفتاح الشقة في الفترة الأخيرة لا أعرف لماذا، ذهبت إلى البيت وظللت أدق جرس الباب لعشرة دقائق كاملة، أين ذهبت البنات؟ هل أتصل بياسمين؟ ربما تظن أنهم من يتصلوا! سوف أتصل بليلى، جاء صوتها باردًا.

- ألو.

- إنتو فين؟

- إحنا سافرنا الأقصر!

- يا نهار أسود.. أنتم كلكم؟

- لأ.. ياسمين موجودة بس أنا كان لازم أغسل هدومي.

فتحت ياسمين الباب أثناء المكالمة فانهيت المكالمة مع ليلى.

- معلش يا مريم كنت بصلي.

- طب على صوتك ولا حتى استغفري اقطعي الصلاة إنتي عارفة مش معايا مفتاح والبنات سافروا.

- إيه ده هما البنات سافروا؟

- أيوه.

- يعنى لا قالوا ولا حس ولا خبر! شايفة يا مريم هما بيعملوا كده ليه؟ يعنى المفروض نقرب من بعض مش نبعد عن بعض! وليه هند تقفش مننا كده؟

- كلميهم يا ياسمين واسأليهم هما بيعملوا ليه كده؟

- لأ مش هكلمهم، ده موقف ناس عايزة تقطع، ولما بتكونى في الجامعة دايما قافلين الباب عليهم ومش بيكلمونى خالص دلوقتى، وإنتي كمان يا مريم بقيتي عاملة زيهم، لو بتمري بحاجات صعبة أنا بمر بالأصعب والله بس مش بحكي عشان متخافيش أكتر؟

اذن لقد مرت بتجارب هي الأخرى ولم تتحدث عن شيئا؟ كان تخميني صائبا، تكلمت وهي تبكي بحرقة فأحسست بالشفقة عليها مثلما أحس بالشفقة على نفسي تماما، ثم أكملت.

- مريم.. ممكن أسألك سؤال؟ ليه بتقفلى أوضتك بالمفتاح وإنتي خارجة؟

- بصراحة أنا بحس إن أوضتي أكتر أوضة أمان في الشقة.

- لما هي كده مبتناميش ليه؟

- أنا عارفه بقى؟ أهو إحساس وخلاص، بضحك على نفسي، سيبيني موهومة فيه.

- ربنا يعدي اللي إحنا فيه على خير؟

- طب قومي البسي وتعالي ناكل حاجة برة، أنا هقع من طولي.

كان وقت العصر تقريبا ومن المفترض أن أحضر حقيبتى استعدادا للمغادرة ونسيت ما قلته لمازن، لا أعرف كيف؟ أفقط

ذكرتنى إشارات الجوع المنبعث من مخي إلى أمعائي، أنها لن تواصل المسيرة إلا بعد أن أملأها شيئا يساعدنا على البقاء، ذهبنا إلى احدى مطاعم الوجبات السريعة، طلبنا كمًا هائلا من الطعام على غرار طبيعة الجمال في اجترار الطعام، التهمت هذه كميات وكأنى سوف أخزنها كى تساعدنى على اجتياز ما يمكن أن أمر به في الأيام المقبلة، سوف أجتر الأكل والنوم والطاقة والتركيز على ما يبدو، بعد أن انتهينا من الطعام خطرت لي فكرة، لماذا لا نذهب إلى أهل الدين بحق، شيخ في جامع، بهذه البساطة، طرحت الفكرة على ياسمين فلم تمانع.

لكن حار أمرنا بين المساجد، هل نذهب إلى مسجد قريب فيتعرف علينا مُرتادوه من الجيران؟ فنحن المغتربات يعرفنا أهل المنطقة جيدًا، حينها لن نسلم من ألسنتهم أبدًا، أم نذهب إلى مسجد كبير به كثير من الشيوخ ويقصده البعيد والقريب، في ظل فرص ضعيفة للتعرف علينا، وأخيرًا عقدنا العزم على الذهاب إلى مسجد «عبد الرحيم القناوى» وقد كان. مسجد كبير وجميل وتأتى الناس لزيارته من جميع أنحاء مِصر، يقع المقام بداخله في غرفة منفصلة، طريق المسجد طويل مملوء بالسيارات والمريدين من كل البلاد المحيطة.

جاءنا شيخ في الطريق يحمل صندوقا خشبيا يدعونا إلى التبرع لمعونة الشتاء، كنت قد أحتفظت بجزء من النقود لتوزيعها على الفقراء كصدقة بنية الخلاص مما أنا فيه، فأعطيته بعضا منها، شكرنى مبتسمًا وغادر، وزعت باقى النقود على من في طريق الجامع من الفقراء أو المتسولين وما أكثرهم، أثناء ذلك رأيت الشيخ الكبير الذي كنت قد رأيته في منامي سابقًا على بُعد أمتار، لم أصدق ما أرى، إنه هو.

وجهه سمح ومُريح، كان سائرًا بين الناس يتفقد حال المسجد، ثم توقف ورآني فابتسم ابتسامة طويلة واسعة، لكنه سُرعان ما توارى خلف جمع الرجال الذين اصطفوا للصلاة، واستحالت الرؤية بيني وبينه، هزت ياسمين ذراعي وقالت.

- مريم.. ياللا نتوضى ونصلي.

توضأنا وصلينا ركعتين تحية المسجد، ثم اتجهنا للمقام لقراءة الفاتحة، فوجدت يافطة مكتوب عليها «وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين» مُعلقة أعلاه فبكيت، رُبما علا صوت بكائى وأنا أدعو دُعاء متقطعًا، عندها رآني شيخ كبير وظن أني أفعل ما يفعله البعض عند المقام من استجداء وطلب وساطة حاشا لله، فقال ناصحًا.

- ماتخليش حد بينك وبين ربنا، ادعى ربنا على طول واستغفري كتير.

كانت ياسمين تجذبني طيلة الوقت من ملابسي إشارة إلى عدم التحدث مع أحد، فقد ظنت أنني لن أملك الجرأة الكافية، ظنت أنني تكلمت عن الرغبة فقط وأن الفعل بعيد لأننا ندرك طبيعة المجتمع الذي نعيش فيه، في جميع الأحوال سيلقى اللوم علينا دون الانتباه للتفاصيل، نفهم بعضنا البعض دون كلام أحيانًا، كنت أعرف أنها لا تريد التحدث مع أحد لكنني تجاهلتها وتعاملت بأنانية رُبما تخلصنا مما نواجهه، فقررت أن أقُص قصتنا عليه طلبا لمساعدته، لكننى سُرعان ما رأيت جفاء يُطل من عينيه.

- انتوا مش قاعدين في المدينة؟ ما تقولوا للمشرف؟

- لا إحنا ماجرين شقة مفروشة.

نظرته بدت أكثر قسوة وغير متهاشية مع ما أقصه، ومع ما يرى من انكسار واستغاثة من بنات في عمر أولاده.

- وإيه اللي مقعدكوا في شقة مفروشة؟

استفزت إجابته ياسمين فقالت في حدة.

- اللي حصل بقى يا شيخ، عندك حل للى إحنا بنقوله ولا لأ؟

فسألني في عدم اكتراث لها.

- إنتي في كلية إيه؟

- حقوق.

- تقولوا لي حقوق وتجارة وآداب! منتظرين إيه يعني من شقة مفروشة؟ مش عارفين اللي قبلكوا عملوا إيه فيها، ولا يمكن إنتوا؟ شوفي جايين الجامع لابسين إيه؟

دُهشت مما يقول.

- هو ده اللي همك؟

- كنتي دخلتي خدمة اجتماعية في أسوان؟

- يا سلاااام! يعنى إنت سبت كل ده، ومسكت في إننا سايبين بلدنا وفي كلية إيه! مازن كان عنده حق والله.

تركنا المُستشيخ وذهبنا بعيدًا بعد أن واجهنا بنظرة ازدراء أخرى، وبعد أن منحته نظرة ندم عميقة، للأسف ياسمين مُحقة، لن يصدقنا أو يفهمنا أحد هنا، أحسست باليأس يدغدغ أطرافي، وأعطيت

الناس الحق في اللجوء إلى أمثال ماهر الدجال، فلا أحد يسمع ولا يوجد رجال دين سمحين بحق، يقدرون ما نمر به على أغلب الظن، أين ذهبوا؟ كانت ياسمين تبرطم وتلعن هذا المجتمع بعاداته وتقاليده، ومعتقداته التي لا ترحم من هم في ظروفنا، تلعن الحكم على الناس بالأعراف البائدة التي لم يتم منحها شيء من التهذيب أو التطور طوال قرون وعقود، هل تستطيع أن تحكم على بنات تسكن شقة مفروشة من أجل العلم بأى شيء دون معرفتهم؟ هل تجرؤ على الحكم بأى شيء على أي إنسان دون معرفته؟ حتى وإن كنت تملك المعرفة فأنت لا تملك الحكم، لكن دائما ما تأتي إجابة هذا السؤال بنعم في مُجتمعنا.

نعم تستطيع إذا كنت فردًا تربى على ذلك في مجتمع تخلف عن العالم، ومازال يُصدر هذه المعتقدات لأجيال قادمة منعزلة عن التطوير الفكري والتفكير السمح، مسحت ما تبقى من دموع ونظرت إلى ياسمين في عناد مفاجئ انتابني.

- ياللا يا ياسمين ندخل الجامع نصلي ركعتين لله قبل ما نمشي.

- مش قلتلك ماتقوليش لحد، دول عمرهم ما هيحسوا بينا.

سمعنا نداء الرحمن في أذان العشاء، فدخلنا مرة ثانية وبعد أن انتهينا من الصلاة دخل الهدوء إلى قلبى، في أثناء خروجنا من الجامع رأيت الشيخ الذي كان يجمع التبرعات للشتاء، كان يخرج هو الآخر من المسجد، ناديت عليه وسط رفض ياسمين للمرة الثانية واستعدادها للرد العنيف على أي تجريح من أي مُستشيخ آخر.

- لو سمحت.. يا شيخ.

رآني الشيخ وأشار على نفسه يتحقق إذا كنت أقصده هو أم شخصًا آخر.

- أنا؟

- أيوه يا شيخ.. لو تسمح دقيقة؟

- نعم.

- عاوزاك في خدمة يا شيخ الله يخليك.

قصصت عليه ما قصصته على الشيخ الأول، فلم يستنكر وجودنا في شقة مفروشة طلبا للدراسة كسابقه، ولم نر علامات الاشمئزاز تطل علينا من ملامح وجهه السمحة.

- يا ساتر يا رب، ده أكيد في حاجة في الشقة دي، طب انتوا بتصلوا يا بنتي؟

- آه بنصلى والله.

- انتوا كام واحدة؟

- أربعة.

- طب فين الباقي؟ ما جايز هما ولا حاجة الله أعلم.

- مسافرين.

- لأ هاتوهم وتعالوا لي هنا، أنا بابقى موجود من بعد العصر، واستغفروا ربنا كتير وداوموا القرآن في البيت خاصة سورة البقرة.

- حاضر يا شيخ، شكرًا الله يكرمك... ممكن سؤال أخير.

- خير يا بنتي إن شاء الله.

- في شيخ هنا دقنه بيضا وطويلة ولابس أبيض كده وطويل، اسمه إيه؟

- دقنه بيضا وقصيرة تقصدي؟

- لا لا دى طويلة خالص، وبيلبس زى بُلغة كده وشعره أبيض عند كتفه.

- أنا بقالي فوق العشرين سنة هنا مشفتش شيخ بالمواصفات دي.

- أنا لسه شايفاه من شوية هناك كان بين المُصلين بس معرفتش أروح له.

نظر الشيخ لي ثم بدا كأنه يفكر، ثم لمعت عيناه وقال مستفسرًا.

- أسمر شوية ونحيل وطويل؟

- أيوة يا شيخ صح.

- شفتيه فين؟

- هناك في الساحة كان بيشرف على حاجة تقريبا.

- وبتسألي عليه ليه؟

- لأني شفته بمنامي واستغربت لما شفته هنا.

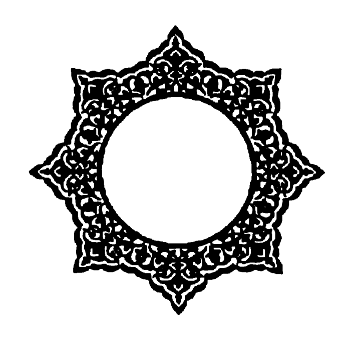
نظر لي الشيخ بإمعان ثم تبسم.

- حافظي على قلبك نقيًا، صافيًا وعامرًا بالايمان، وداومى الاستغفار يا بنتي، السلام عليكم، ربنا معاكم.

تركنا ورحل، لم أفهم كيف بدا أنه يعرف من أسأل عنه ولم يجب سؤالي؟ على كل الأحوال كان الشيخ سمحا ومُتفهما، انه القاعدة الشاذة هنا في مجتمع انقلبت معاييره وأصبحت القاعدة الشاذة هي السائدة والعكس صحيح! مع ذلك بقيت ابتسامة الشيخ المجهول في ذاكرتي وتمنيت لقائه بشدة.

بمجرد أن دخلنا الشقة أدرت التليفزيون على قناة للقرآن الكريم، ذهبت كل منا إلى غرفتها وحاولت أن أنام لأرتاح ولكني أردت أن أسمع صوتًا من دمي، فذهبت إلى «السنترال» واطمأننت على شقيقتي «ريهام»، ودخلت غرفتي أحاول النوم، ولم أشعر بشيء بعدها.





نظرت إليها في حيرة وحاولت أن أتذكر هذه الشوارع والطرقات لعلي أكون في الأصل منها، لكني فشلت ولم تسعفني ذاكرتي، مشينا لا أدري كم من الوقت إلى أن توقفت عند دار أثرية كباقي التي أراها، ذات بوابة كبيرة بيضاوية الشكل بنية اللون، تقبع داخل كم هائل من الأحجار الصفراء الكبيرة التى أعشقها، يتوسط الباب من الجهة العلوية مطرقة نحاس قيمة، يعلو الباب بعدة أمتار مشربية كبيرة منقسمة إلى قسمين، نظرت فاطمة فوق وفتحت الباب بمفتاح كبير وصعدنا الدرج وهي تحدثني.

- لا داعي للقلق فزوجي جعفر مُسافر إلى قاهرة المُعز ولم يرزقني الله بالذرية بعد، الليلة أنا وأنت فقط.

تعجبت من بساطتها وقلت.

- إذا كان أحد لابد أن يقلق فإنه أنت بلا ريب.

جاءتني ابتسامتها المطمئنة الواثقة.

- «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا».

- هل لي بسؤال آخر وأخير اليوم؟

- تفضلي يا مريم.

- من هو الحاكم في هذا الزمن؟

- كان من المفروض أنا أقلق حقا منك أو عليك، لكن قلبي يحدثني أنه لا داعي للقلق، سوف أجيب سؤالك الأخير يا مريم شريطة عدم مُحاولتك إثارة شكوكي مرة أخرى اليوم على الأقل، إنه العاضد لدين الله.

- العاضد لدين الله، لن أنسى ما حييت ما تفعليه الآن من أجلي، أنت طيبة القلب.

- لا تُضخمي الحدث، فما نزرعه الآن سنحصده يومًا ما بلا شك.

دخلت المنزل ووقفت أتأمله، ساحة كبيرة بها مشربيات. تلف البيت بأكمله تحتها كنب طيني البنية فوقه وسادات كالسجاد، في المنتصف منضدة خشبية مصنوعة بنفس زخارف المشربيات، تتوسط الساحة نافورة مياه من الرخام الأبيض متوسطة الحجم تقف كعروس ليلة عرسها، تضفي جوًا رائعًا من الصفاء والجمال في البيت، المصابيح غريبة الشكل موضوعة على طوب مبنى في الأركان (عرفت بعد ذلك أنهم يستخدمون الزيت أو شمع العسل لإنارتها) ، هناك على يساري درج طويل من الخشب البني اللون ليصلك بالدور الثاني والأخير من البيت، أشارت فاطمة إلى الغرفة الوحيدة الموجودة بالساحة الأولى إنها غرفتي الليلة لأستريح ثم نظرت لي في تمعن.

- أنت تعبة ومرهقة يا مريم، سوف أحضر لكِ شيئًا تتقوتين به، انتظريني.

تأملت البيت وجلست عند النافورة، أخذت أضع يدي تحت

مائها ثم أمسح به وجهي وعيني، ثم أتأمل البيت تارة أخرى، بعد قليل أحضرت فاطمة قِدران من الزجاج، القدر الأكبر به شيئًا أبيض يشبه العجين والآخر به حلبة ولبن وتمر، عرفت الحلبة من رائحتها المميزة رغم اختلاط ألوان القِدر، قالت في فخر وكرم.

- لقد جلبت لك تلبينة وغُريقة لأنك لست على ما يرام يا مريم، أريدك أن تأكلي حتى تشبعي ثم تخلدي إلى النوم.

- شكرًا لك.. سوف أفعل إن شاء الله.

- لا تفكري في شيء يعكر صفو روحك، لا تدعى آلام الدنيا وأحزانها تأكل من عقلك، وتذكري أن كُل إلى زوال، وأن لا شيء باقِ مهما طال عمره، فانعمي بعيشك الآن وسلمي الأمر للواحد القهار، طابت ليلتك يا عزيزتي.

أحسست بسلام يملأ روحى وأنا أرد ابتسامتها أثناء مغادرتها لتنام، هذه السيدة تأمن الغرباء في بيتها وهي بمفردها لكنها تُسلم الأمر كله لله، لم تسألنى كثيرا من أين جئت والى أين العزم، فقط أحست بوجع نفسي فأشفقت على ولم تساهم في إرهاقي، يا لكِ من ملاك يا فاطمة، لا أعرف كيف أُرد لك الجميل.

أكلت حتى امتلأت، الطعام طيب وشهي لم أذق مثله من قبل ثم دخلت إلى الغرفة، اتكأت على السرير ومنعت عقلي من التفكير، بعدئذ شرعت في قراءة آية الكرسي ولكني لا أتذكر هل أكملتها أم غُصت في نوم عميق.

***

(٩)

جاء أذان الفجر فانتبهت إلى الصوت المُدوي عبر الميكرفون «الله أكبر» فانفتحت عيني تدور في أركان الغرفة رُغمًا عنها، إنها غرفتي بشقة قنا، لم يحدث شيء؟ أم حدث في غفلتي؟ أين أنا؟ بالتأكيد فقدت عقلي وأُصبت بلوثة وهلاوس، أخذت أردد «بسم الله الرحمن الرحيم» عدة مرات وأنا أتلفت يمينا ويسارا لأتأكد أين أنا، حسب التوقيت لسنة ١٤٣٣ هجرية - ٢٠١١ ميلادية فأنا قد نمت نومًا عميقًا لمدة ثلاث ساعات كاملة فحمدت الله على ذلك، بدأ عقلي في استرجاع كل الأحداث والبنات وتذكرت أحداث الشقة وأني لا أقرب الحمام فقمت لأتوضأ في الغرفة كما تعودت في الفترة الأخيرة، كانت زجاجات المياه تنفذ مني دون أن التفت إلى عددها الذي بات كبيرا، توضأت وصليت الفجر ثم تنفيذا لوعدي مع نفسي قرأت سورة البقرة كاملة.

أخذت جهاز الحاسب المحمول وفتحت الانترنت، وذهبت أبحث عن سنة ٥٥٥ هجرية - ١١٦١ ميلادية، يا ربى ما هذا؟ إنه الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله، وُلد حسب رواية المقريزي يوم الثلاثاء لعشر من المحرم سنة ٥٤٦ هجريًا وبُويع لثلاث عشرة من رجب سنة ٥٥٥ هجريًا وعمره يومئذ تسع سنين.

أنا لم أحفظ الأسماء التاريخية يومًا في حياتى بعد أن ينتهي اختبار مادة التاريخ بالمدرسة، لم أسمع هذا الاسم قط، ولم أقرأ عن هذه الحقبة التاريخية ولم أدرسها، ولا أدرى عنها شيئاً إلا ما قد يأتينى صدفة في عمل فني أو حتى في إحدى المجلات، من أين أتى عقلي في هذا الحلم العجيب بهذه الأسماء؟

بحثت عن «سيدي عبد الرحيم القنائي أو عبد الرحيم القناوي» وهو عالم الدين والتفسير الإسلامي المغربي الأصل، «السيد عبد الرحيم بن أحمد بن حجون وينتهي نسبه إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب، ولد في ترغاي من مقاطعة سبتة في المغرب الأقصى وذلك في الأول من شعبان سنة ٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م، إذن كان مغربي الأصل!

توفي الشيخ عبد الرحيم القناوي يوم الثلاثاء ١٩ صفر سنة ٥٩٢هـ الموافق ٢٣ يناير ١١٩٦ بعد صلاة الفجر وعمره ٧١ عامًا، قضى منها ٤١ عامًا في الصعيد، إذن قد ذهب إلى قنا آتيًا من الحجاز في نفس السنة حقيقة كما قالت خولة! جاء وهو في الثلاثين من عمره تقريبا!

جلست مكان صلاتي على الأرض أحاول أن أفهم، ما هذا الحلم العجيب والذي بدا كأنه حقيقة، وكل تلك المعلومات التى تبدو صحيحة! أكاد أجن، ما هذه الرؤية الذي أكلت فيها وأكاد أحس بنكهة الطعام في فمي، حينها أحسست شيئًا ما بين ضروسي فتحسسته بلساني وأخرجته من فمي فإذا بى أرى بقايا تمر! ما هذا الذي يحدث معي؟ أنقذنى يا رحمن..

يا مُغيث أغثني.. يا مُغيث أغثني.. يا مُغيث أغثني.

كانت الساعة الثامنة صباحا عندما دق جرس الباب، حاولت جاهدة أن أكون طبيعية لئلا يلاحظ أحد شيئًا فقمت لأفتحه، وجدت ليلى وهند قد أتيا أخيرًا، فقلت بتهكم واضح.

- انتو جيتوا.. انتوا ركبتوا إمتى عشان توصلوا دلوقتي؟

أجابت هند.

- صحينا الفجر عشان نركب ٧ الصبح، دى ليلى عندها « جمال إبراهيم » النهارده.. إنتي عارفاه صعب إزاي؟

أشرت إلى ليلى في حنق وسألت هند.

- وهي مابتتكلمش ليه؟

نطقت ليلى في بؤس.

- صاحية من النوم بدري وكنت نايمة متأخر.

- وإزاى تسافروا من غير ما تقولوا لياسمين؟ مالكوا يا جماعة واخدين جنب ليه؟

تكلمت هند بشيء من العصبية.

- ولا مالنا ولا حاجة الامتحانات على الأبواب.

- بس برضه يا جماعة إحنا مع بعض في الشقة، مش كان المفروض تقولوا إحنا مسافرين؟

هنا فتحت ياسمين باب غرفتها وأتت إلينا مُعلقة.

- إنتوا جيتوا؟

تبسمت هند وتكلمت بلهجتها الصعيدية.

- آه جينا، والمرة دي مش جايبة معايا لقمة أكل، مش حاطة حاجة في الثلاجة العجيبة دي!

أردفت في غيظ وتساؤل.

- أنا مش فاهمة إحنا إزاي بنتعامل مع الشقة دي! أنا كل يوم أقول هسافر ومش راجعة تاني ومش بقدر مش عارفة ليه! هي الساعة كام دلوقتي؟

أجابتنى هند.

- الساعة ٨ ونص.

- ييييه.. طالما فات قطر ٦ و٧ الصبح يبقى لازم أستنى ٥ المغرب، الميكروباص من هنا لأسوان زحمة وحوادث مش ناقصة وبعدين مينفعش أدخل على أهلي في وقت متأخر، يا رب هون... إلا صحيح هو إنتو مابتمشوش ليه؟

عادت هند لبرودها من جديد.

- يا بت سيبك يا بت من الهبل ده.. دى حاجات عادى على فكرة، في إيه في الشقة يخلينا نمشي يعني؟

- بتقولي في إيه؟

كنت على وشك أن أحكي كُل ما حدث معي لكن تراجعت، نظرت ياسمين إلى هند نظرة لم أستطع أن أقرأها، نظرة « لاعب البوكر»، نظرة جامدة لملامح يصعب قراءتها، على العموم كانت

نظرة لم تعرها هند أي اهتمام، ضحكت الأخيرة في استخفاف وقالت بلهجة صعيدية أحفظها.

- يا بت إنتي شوفتى إيبيه؟ دي حاجات بسيطة.

أردفت ليلى باستهزاء وشك.

- بيهزروا معانا يا مريم، يعني فيها إيه لما تلاقي البيبسى ناقصة وبعدين تتملي؟

أدركت ما تقول ولم يكن قد وصل لعلمي إلى تلك اللحظة، فقلت بذهول.

- إيه ده؟ هي إزازة البيبسى اتملت تاني كمان؟

نظرت ليلى إلى هند وكأنها بُهتت، وصلني إحساس الشك في نبرة صوتها وكأنها كانت تتهمني في نقصان وملء زجاجة المياه الغازية، وكأنها تمنت بداخلها أن أكون أنا الفاعلة، أكملت حديثي.

- انتو عارفين إيه أكتر حاجة مُرعبة هنا؟

تساءلت هند.

- إيه؟

- أنتم.. ردود أفعالكم مُرعبة أكتر من اللي بيحصل.

دخلت غرفتي بعدها مباشرة وتحدثت إلى نفسي بصوت عالٍ «شكل كلام مازن صح، دول بنات غريبة»، أحسست باحتياجي الشديد إلى صديقتي الوحيدة التي تحسني وتفهمني.. أختي ريهام.

- ألو.. أيوه يا ريهام

- أيوة يا بنتى عاملة إيه؟

- أنا تعبانة قوي ومش بنام خالص.

جاء صوت ريهام مُستخفًا.

- ليه يعني مقطعة نفسك مذاكرة؟

- ريهام.. بتحصل حاجات غريبة في الشقة، الشقة فيها جن.. لابسني.. لابس واحدة فينا؟ أنا أو البنات؟ معرفش فيه إيه؟

وللمرة الألف بدأت أقص التفاصيل بدءا من تقطيع حذائي وحتى الآن، لم تُعلق ريهام ولو مرة واحدة حتى أنني مرات كنت أتحقق من أنها ما زالت على الخط، بعد أن توقفت على الكلام احسست بأختي تريد أن تطير وتخطفني مما أنا فيه إلى بيتنا بأسوان مباشرة، صرخت في لهفة.

- إنتي إزاي قاعدة عندك يا مريم؟ من أول مرة حصل فيها حاجة كده إزاي لسه قاعدة؟!

- معرفش يا ريهام معرفش! وبعدين مواعيد القطر......

- يا ستي اركبي تاكسي ولو مش معاكي فلوس كفاية إحنا ندفع هنا!

- بس يا ريهام ماتجيبيش سيرة لماما؟

- إنتي يا مريم يا بتهزري يا مش فاهمة الكلام اللي بتقوليه ده قد إيه كبير وخطير؟

- بس ما تقوليش لماما؟

- مش هتكلم دلوقتي بس لو ماجيتيش على طول هقول للبيت كله.

- لأ أنا جاية.. إزاي راحت من بالي فكرة التاكسي دي؟ بس أنا خايفة يا ريهام من الناس دي.

- ناس مين؟

- اللي حواليا، أنا بقيت أحس بيهم في كل مكان حتى في الوضوء! دلوقتي بقيت أتوضا في الأوضة.

- تعالي بسرعة بقولك.. وهي فين ياسمين؟ مبترجعش ليه هيا كمان؟ إنتو يا جماعة بتتكلموا جد في اللي بيحصل ده؟ إزاي مبترجعوش!

- ياسمين زيي تمام إحنا فعلا مش عارفين ليه مش بنرجع! كأننا مربوطون في المكان، أنا هروح دلوقتي أجيب ورق مهم جدًا وهاجي، حتى لما تيجي أيام الامتحانات هقعد عند سمر بس مش جاية الشقة دي تاني، أنا هنزل أروح السكشن دلوقتي.

- طيب طمنيني وقوليلي هتعملي إيه يا مريم.

- حاضر.

تحسنت حالتي النفسية تحسنا نسبيا نتيجة الفضفضة مع ريهام، فهى دمي الذي يجري في عروقي، وسندي الذي لن يُخيب ظنى أبدا، ذهبت إلى الجامعة ولأول مرة منذ فترة أستشعر ذهني حاضر، قابلت سمر وسارة وشكرتهما على مساعدتهما وطمأنتهما قائلة.

- أنا ماشية النهارده يا بنات.

- ليه يا شيخة؟ ده كتاب القانون التجاري صعب ومش هتعرفي تذاكريه وحدك.

كانت سمر تُكن لي إخلاصًا حقيقيًا.

- معلش يا سمر، لو فيه حاجة هبقى أتصل بيكوا تفهموهالى على التليفون.

أردفت سارة في صِدق.

- والله أحسن يا مريم، مهما كان الواحد في بيته ووسط أهله أحسن، مهما كانت المادة صعبة هتبقى سهلة إن شاء الله، أحسن من الغربة والبهدلة، امشي يا مريم.. امشي، إنتي شكلك متضايق وبتقولي عندك مشاكل في البيت خليكي قريبة منهم.. ربنا معاكي.

أعلم إحساس سارة بما لم أقصه عليها، حملت نظراتها وتشجيعها لمغادرتي وعقدت العزم، ربما هي رسالة الله لأغادر دون انتظار، أحسست براحة مضاعفة مفاجئة، وانفتحت شهيتي التي فقدتها لأيام طويلة، ثم أوصيت البنات أن يرسلوا لي أي أوراق مهمة في هذه الأيام الحرجة بالقطار كما تعودنا دائما.

في الساعة الثانية ظهرًا رجعت إلى الشقة لأرتب حقيبة سفري، سوف أسافر اليوم إن شاء الله، أما ياسمين فلها كامل الحرية في أن تأتي معي أو تمكث وتتحمل، ضغطت الجرس فلم يفتح أحد لدقائق ثم سمعت خطوات مُسرعة، كانت ياسمين تفتح الباب بسرعة تتأكد من الطارق وتهرول إلى الداخل في هلع، دخلت وأغلقت الباب ورائى أتساءل ماذا بها؟ باب غرفتها مفتوح، دخلت إلى غرفة هند

وليلى في توجس، لأجدها وليلى جوار هند التى ملأ جسدها عرق غزير وتلونت بشرتها باللون الأزرق، كان الجسد يحتضر، وقفت ياسمين في حالة خوف وقلق، وليلى لا تدري ماذا تفعل! سألتها في ذعر.

- في إيه؟

ياسمين تندب وتقول.

- تعالي شوفي اللي حجت بيت ربنا عملت إيه؟

- في إيه؟

- هند انتحرت!

- إيه!!!!

- عشان أبو هيثم مش راضي بجوازهم.

انتابتني حالة ذعر شديدة، ما هذا الذي يحدث؟ ماذا لو ماتت؟ كيف تفعل هذا بنفسها وبأهلها وبنا؟ ولكني تذكرت.. على الرغم من أن هند تعرفت على «عمر الشافعي» الضابط قبل ذلك، إلا أنه لا أحد يضاهي «هيثم» عندها، هيثم قصة حياتها، جمعهما الحب منذ ثلاث سنوات، تعرفت إلى أهله وتوددت لهم وعاملتها أمه كصديقة على الحياد، لكن أحلام هند تجاوزت حدودها واطمأنت إلى أن زواجها من هيثم أصبح مسألة وقت، يبدو أن وقع الصدمة شديدة عليها الآن من أناس عرفتهم جيدًا لمدة ثلاث سنوات كاملة، الصدمة الآن صدمتان: صدمة الحبيب المُتخاذل وصدمة الأهل المنافقون، تساءل عقلي كيف انتحرت؟

- انتحرت إزاي؟

- شربت دواء الضغط بتاعك كله!

- بتاعي أنا؟

- آه.

- إزاي وأنا باب أوضتى قفلاه والمفتاح في شنطتي؟ أنا متأكدة إنه كان في الأوضة!

- مش وقته يا مريم هنعمل إيه؟

- طيب ننقلها المستشفى.. يا نهار أسود.. البنت بتموت.

- هيطلبوا كارنيه الجامعة وهتبقى فضيحة ومش هيعدوها على خير.. ده انتحار يا مريم.

تدهورت حالة هند من سيئ إلى أسوأ خلال مناقشتنا وازداد توترنا، صرخت فيهن.

- يعنى هنسيبها تموت يعني؟ إحنا نقول إن كان عندها هبوط فكترت الجرعة بتاعة الدواء ومكنتش واكلة.

أخيرًا نطقت ليلى.

- لأ يا جماعة بلاش نكدب، الموضوع ممكن يبقى فيه سين وجيم، تعالوا نشوف حد من البلد نفسها يودينا؟

أشارت لي ياسمين لنتحدث على انفراد فذهبت مسرعة إليها.

- تعالي عايزاكي في موضوع، إيه رأيك نجيب عمر يوصلنا المستشفي؟

- يا سلام؟ ولما هند وليلى يشوفوه، يعرفوا إنك بتكلميه دلوقتي؟

- هند أصلا كانت بتضحك عليه في اسمها وكل حاجة، وأنا هارسيه يناديه باسمها اللي قالتله عليه، وكمان هي متعرفش إني أعرفه وأهي فرصة بالمرة تعرف؟

- طب والله فكرة وبالمرة تعرف وهو أصلا مش فارق معاها، ومابقاش يكلمها من ساعة ما فتح الطريق ضاع منها، بس هي دلوقتي يا حبيبتى مش حاسة بحاجة.

تذكرت حجاب فتح الطريق الذي صنعه ماهر والذي فقدته هند، هل وجدته ياسمين؟ هل سرقته؟ هل نتأثر بهذه الأفعال حقا؟ أم أنها أوهام؟ قاطعتني ياسمين.

- لما تفوق هتعرف أنا هدخل أقولهم.

اقتربنا من هند التي أصبحت شبه جثة تتنفس وتنظر إلينا ولا تتكلم، ليلى تجلس بطرف السرير تحاول اجهاض دموع باحثة عن طريقها.

- أنا عندي واحد صاحبي ضابط اسمه عمر يوصلنا المستشفى؟

قالتها ياسمين بجرأة تُحسد عليها، أردفت ليلى بصوت خافض ودهشة.

- يا نهاري هتعملي كده؟

- آه هعمل كده.

علي صوت ليلى في قصد.

- لا يكون هو اللي عرفتيه قبل كده يا هند؟

كانت هند تفقد وعيها ثم تستعيده في وهن، اتصلت ياسمين بعمر وأخبرته، لم يتأخر عن مساعدتنا ووعدها بالوصول بعد عشر دقائق، أدركت الموقف وقاطعتهن.

- ياللا يا ليلى قومي البسي.

- لأ يا ستي مش رايحة ده انتحار.

- نعم!! طيب على الأقل مش أحسن ماتقعدي وحدك هنا؟

- لأ يا مريم أنا قاعدة.

لم تكن ليلى تريد أن ترى عمر بصحبة ياسمين، فلماذا لم تكن هي من الأساس؟ الغيرة اللعينة، لم أفهم كيف لها أن تتحمل مُجالسة من في الشقة وتترك صديقتها في موقف كهذا! جاء عمر في ميعاده كما وعد، خرجت أنا أولا بينما خرجت هند مستندة على ليلى وياسمين في حالة يرثى لها، رآنا عمر فقام لتحيتنا.

- ازيك يا مريم عاملة إيه؟ ألف سلامة عليكي يا هند ولا أقول يا مي؟

سمعت هند نبرة صوته واسم «مي» وأسود وجهها أكثر، وسمعناها تبرطم «ده هو.. يا نهار أسود»، سألنا عمر.

- نروح الهلال الأحمر ولا المستشفى العام؟

لم نجبه لعدم خبرتنا في هذه الأمور بقنا، اتصل بزميله في العمل.

- ألو.. باشا.. بنت خالتي صاحبتها تعبانة شوية، نروح الهلال الأحمر ولا المستشفى العام؟

أنهى عمر محادثته وقد عزم الأمر.

- هنروح المستشفي العام.

وصلنا المشفى ودخلت هند مستندة على عمر وياسمين، بينما ظللت أنا بالخارج، لم أستطع أن أتحكم بأعصابى، بعد مرور خمس دقائق أتاني دكتور من المستشفى.

- لو سمحتى كارنيه الجامعة بتاعها؟

- معلش إحنا نزلنا بسرعة مش معانا الكارنيه بتاعها.

- طب ممكن الكارنيه بتاعك إنتي؟

- طب ممكن ثانية واحدة؟

ذهبت إلى عمر الذي كان بصحبة ياسمين وهند فناديت عليه.

- عمر.. تعالى.

- في حاجة؟

- الدكتور عاوز..

- عاوز فلوس؟

- لأ عاوز الكارنيه بتاعها.

- إيه الهبل ده.. هو فين؟

ذهب إليه عمر.

- محتاجين الكارنيه لو سمحت؟

- خد الكارنيه بتاعي.

- مينفعش يا باشا أنا لازم أعمل إثبات حالة.

- ليه؟ هي واخدة مخدرات ولا على وشها مطوة؟ واحدة ضغطها واطي إيه المشكلة في ده؟

- ده إجراء روتيني بس.. إحنا متعاقدين مع الجامعة وبنقدم تقرير سنوي وبندي للطلبة خصم هنا عشان المستشفى الجامعي قفلت خلاص، فلازم آخذ كارنيه.. أحجز باسم مين؟

تأتي ياسمين مسرعة: «الحقوا لازم يعلقولها محاليل»، أردف عمر.

- احجز باسمي أنا.

- مينفعش يا باشا والله.

نظر عمر إلى الدكتور وكظم غيظه ونادى علينا.

- يا مريم.. يا ياسمين.. هاتو هند بسرعة والله لأروح الهلال الأحمر وطظ في أم المستشفى العام، هادفع التكاليف كاملة أنت مال أمك أنت، مش عايز خصم، مش فاهم أنا يعني.

حالة هند في تدهور أكيد ومستمر، ونحن في قلق متصاعد، أردفت ياسمين.

- أنا عمري ما شفت بلد زي دي؟ البنت بتموت مننا، كنت قلتلهم قرايبك وخلاص، مش لازم تقول طلبة جامعة، البلد دي ماورهاش غير تعقيد الأمور، نخرج يتكلموا علينا، نضحك يتكلموا، نلبس يتكلموا! حتى لما نعيا نموت يعني؟

لم يعلق أحد، وصلنا إلى الهلال الأحمر في تمام الساعة الخامسة مساء، مستوى النظافة عندهم أعلى بكثير من المستشفي العام، دخل عمر قبلنا وتفاهم معهم أولًا، جاء عمر ومعه اثنان من التمرجية

ونقالة لأخذ هند، كانت قد فقدت وعيها في هذه المرحلة تمامًا، أعطانا عمر ارشاداته.

- لو حد سألكم على حاجة ماتردوش.

بعد دقائق خرج الطبيب متوترًا بعد أن عاينها.

- لا يمكن ده يكون ضغط طبيعي أبدا، دي واخدة حاجة، انتوا فعلا أنقذتوها، ده في الآخر مكنتش لاقي نبض أقيسه!

ظلت هند فاقدة الوعي لفترة ليست بقليلة، ثم علقوا لها المحاليل المطلوبة، خرج الطبيب لسؤالنا.

- هي أصلا عندها ضغط يا جماعة؟

لم يجب أحد منا على الاطلاق، كنا في شدة التوتر، كرر سؤاله في تعجب.

- عندها ضغط يا جماعة؟

تبرعت بالاجابة.

- هي يا دكتور حست بهبوط راحت أخدت نقط Effortil بس يظهر إنها كترت الجرعة شوية.

- إزاي ده؟ هي أي حاجة تتاخد وخلاص! انتوا شكلكم متعلم! إزاي كده بس؟

تركنا الطبيب وذهب إلى حيث وجهته ثم ذهب وراءه عمر للاطمئنان ودفع المصاريف، كانت هند في غرفة منفصلة تغذيها المحاليل اللازمة، رأيت ياسمين تجلس على الأرض في ذهول، فجلست على كرسى بجانبها أبكي، تساءلت ياسمين.

- هو إيه اللي بيحصلنا ده؟

- مش وقت ندب يا ياسمين.

- إزاي يعنى هند تنتحر ومين اللي جاب الدواء بتاعك بره يا مريم ومين اللي خلاها تعمل كده؟

- هى كانت بتقول دايما ده اللي بيحصل ده ولا حاجة وبتستهزئ بيهم.

- صح يا مريم صح، زى ما يكونوا بيوروها ممكن يخلوها هى بنفسها تعمل إيه في نفسها، وبايه؟ بالدوا اللي كان في أوضتك! مين طلعه؟

اتصلت ريهام فأجبتها على الفور.

- أيوه يا ريهام.

- إيه يا مريم مجيتيش ليه؟

- هند تعبانة قوي.

- إنتي بتستهبلى بقى؟ يبقى مفيش حاجة بتحصل، كل شوية بحجة ولا إيه؟

لم أجبها ولم أتمالك أعصابي فأغلقت الهاتف في وجهها، تذكرت ياسمين شيئًا فقالت.

- على فكرة أختك كلمتني النهارده وأنا مردتش.

- أصل أنا حكيتلها النهارده يا ياسمين، أنا هكلم ليلى.. هي إزاي قاعدة كل ده وحدها في الشقة؟

- ليلى.. دى البت دي طلعت إيه؟ بس لما نفضى يا مريم.. أنا شاكة إنها سبب كل اللي بيحصلنا ده.

- يا سلام؟ عرفتي إزاي؟

- بتشوفي جراءتها وإزاي قادرة تقعد في الشقة لوحدها؟ ده حتى ماهر الدجال اللي رحناله ماعرفلهاش أول من آخر!

كالعادة لا يوجد دليل قطعي ضد أي منا، مجرد أقاويل واستنتاجات ولا أدلة، اتصلت والدة هند بهاتفها فلم نجبها، اتصلت بهاتفي فلم أجبها أيضًا، أخيرًا أجابت ليلى على اتصالنا..

- أيوه يا ليلى.. إنتي فين؟ إنتي ليه مش بتسألي علينا؟

- أنا رحت لأصحابي في السكن بتاعهم.

- طيب مش تعدي علينا وتشوفي إيه اللي جرى معانا!

- يعنى هيحصلنا إيه أكتر من اللي بيحصلنا؟

- لأ وإنتي متأثرة قوى من اللي بيحصلنا، عموما إحنا بس مش عارفين نقول لأهلها ولا لأ؟

- لأ طبعًا، أوعوا تقولوا لأهلها، الدكتور قال إيه؟

- لسه مش عارفين.. الحالة مش مستقرة، خدي معاكى ياسمين.. ثوانى

أشارت إلى ياسمين أنها لا تريد التحدث معها.

- مش عارفه راحت فين كانت لسه جنبى لما تيجى هكلمك.

- طيب باى.

- باي.

نظرت ياسمين في تعجب.

- إزاي يعنى عاملة صاحبتها ورايحة جاية معاها وشوفي أنا وإنتي اللي واقفين ومتصدرين لها!

- والله كتر خير عمر يا ياسمين، إحنا من غيره مكناش عارفين هنعمل إيه؟

- Hero مش كده؟

- آه يا ختى Hero! وده وقته إنتي كمان؟

ظل عمر يجيء ويذهب ما بين الطبيب ودفع مصاريف وشراء أدوية ومحاليل وأخيرًا جاء إلينا.

- ياللا يا بنات قوموا روحوا إنتو وأنا قاعد جنبها.

استنكرت ما يقوله.

- لأ يا عمر إحنا بايتين معاها.

- طب ياللا نروح ناكل حاجة، هي كده كده نايمة مش حاسة بحاجة.

تذكرت الطعام.

- أكل.. يااااااه والله الواحد نسي شكل الأكل ده.

كان عمر يعلم تطورات الأحداث معنا من خلال ياسمين، نظر إلينا وكأنه تذكر شيئًا.

- تعالوا هنا بقى، هو الكلام اللي بتقول عليه ياسمين ده بيحصل بجد؟ ولا إنتو بتستهبلوا؟

- لا والله يا عمر.. أنت ماتعرفش حاجة، أنا لا باكل ولا بانام ولا بذاكر ولا أي حاجة! وكل ما أنوي السفر تحصل حاجة، إمبارح كانت زيارتنا للجامع والنهارده هند واللي حصلها، وهكذا لازم يفوتني القطر بالرغم إن موضوع سفري مش بيروح من بالي، حاسة إني مربوطة مكاني عشان مسافرش! مش عارفة ليه حاسة كده! مش هتفهمني أنا عارفة، بس أنا هتجنن يا عمر.. هتجنن.

- والله ما عفريت إلا بنى آدم، تلاقيهم هند وليلى اللي بيعملوا فيكم كده؟ طب تفسري بإيه بعدها عنكم الفترة اللي فاتت؟ وشوفي سبحان الله محدش وقف مع هند غيركم!

- طب ما نجيب لنا شيخ يقرا قرآن في البيت يا عمر؟

نظر لي نظرة سريعة كلها استخفاف ثم أخذ يضحك بصوت عال، بعدها بثوان نهض من مكانه واقفًا.

- أنا هاطلع أجيبلكم عصير.

في هذه الأثناء اتصلت والدة هند على هاتفها فلم نجب، اتصلت بهاتفي فلم أجب للمرة الثانية وأحسست بارتباك شديد، رجع عمر حاملًا العصير لثلاثتنا، فلمح التوتر على وجهي وسألني:

- مالك؟

- أم هند عمالة تتكلم مش عارفة أرد ولا لأ؟

- طبعا ردي.. قوليلها نايمة.

اتصلت بها من هاتفي.

- أيوه يا طنط.. عاملة إيه، معلش كنت في الحمام مسمعتش التليفون.

- أيوه يا مريم، ليه ماكلمتنيش هند؟

- هي نايمة يا طنط دلوقتي عشان بقالنا فترة مش بنام كويس من المذاكرة، فتلاقي نومها تقيل حبتين، هخليها تكلمك أول ما تصحي.

سكتت والدة هند وكأنها غير مقتنعة بما أقول ثم تحدثت.

- طيب ضروري تخليها تكلمني يا مريم.

أنهيت مكالمة والدة هند وأنا أحمد الله أنها لم تطل أكثر من ذلك، آملة عدم ملاحظتها ارتباكي، ربما أحست شيء غير طبيعي، أتراها تشعر بابنتها؟ هل تشعر أمي بي إذن؟ هنا خرج الطبيب علينا متفحصًا وجوهنا.

- مين فيكم مريم؟

- أنا.. في حاجة يا دكتور؟

- تعالى كلميها، عايزة تشوفك.

دخلت لأرى هند، وجه شاحب هزيل على رأس جسد لا يختلف كثيرًا عنه، وقد تحول إلى هيكل عظمى بارزًا من تحت الغطاء في غضون ساعات، تنظر إلي في امتنان من خلال عيناها الجاحظتان، ابتسمت وأمسكت يدها مداعبة.

- سلامتك يا هنورد.

- الله يسلمك.. مين بره؟

- عمر وياسمين.

- فين ليلى؟

- ليلى مجتش أصلًا.

- حتى لما لقيتنا اتأخرنا كده؟

- بس يا هند أنا مش عايزة أنكد عليكي، خليكي إنتي بس في نفسك الأول.

غمغمت هند.

- صح والله على الأصل دور.

لم أُريد أن أثقل عليها، كفاها ما هي فيه وما سوف تلاقيه من تأنيب ضميرها بعد ذلك، جلست على المقعد الوحيد بالغرفة بجوارها مُمسكة بيدها أشد من أزرها، سألتني.

- هو عمر عرف إيه اللي حصل؟

- ماتشغليش بالك إنتي دلوقتي بأى حاجة، ربنا يقومك بالسلامة.

- أنا مش عارفة عملت كده إزاي؟ ده أنا كده حجتى راحت! استغفر الله العظيم.. استغفر الله العظيم، ياللا نطلع يا مريم أنا بقيت كويسة.

- لما نشوف الدكتور هيقول إيه، إلا هو إنتي صحيح جبتي الدوا بتاعي إزاي؟

- لقيته عندي وكنت بعيط مكتئبة وعقلي صورلي كده هرتاح.

- ده مش عقلك ده شيطان، الدوا أنا قافلة عليه بالمفتاح في اوضتي! رحمتك يا رب.

تركتها وغادرت الغرفة، رآني عمر فسأل.

- فيه حاجة ولا إيه؟

- لا أبدا بتطمن بس وعاوزة تخرج.

- على فكرة الدكتور قالي ممكن ساعة ونروحها، بس يطمن إن الحالة استقرت، بس هي محتاجة عناية وغذاء كويس جدًا.

- ماشي نرجع وأنا ممكن أخدها عندي في الأوضة وأراعيها أحسن مراعية، لكن دخول المطبخ مستحيل.

نظر عمر بعينيه إلى السقف في يأس.

- ييييييه، خلاص يا ياسمين أنا هاجيبلها أكل وإنتي اعمليه.

- ما إحنا عندنا أكل يا عمر، هما بياكلوه، مش هيسيبوه، بيتحمر ويتاكل!

أردفت ياسمين.

- أول ما نروح شغلي قرآن في الصالة بره.

زفر عمر متأففا.

- عايشين في خزعبلات إنتوا.

كان عمر ولا يزال مقتنعًا بعدم مصداقيتنا، وأن كل ما نقصه من وحي خيالنا، انه مجتمع الصعيد الذي يؤمن بالخرافات وأعمال

الدجل والسحر والشعوذة، قصص اختلقناها فصدقناها كما يعتقد هو.

أشارت عقارب الساعة إلى الحادية عشر مساء، مرت الساعة في سلام واستقرت حالة هند، حمدنا الله على عدم فقدانها كما كان وارد حسب قول الطبيب المعالج، في طريق عودتنا إلى الشقة كان عمر يتكلم معنا جميعا محاولا تخفيف ما مررنا به من معاناة وخاصة هند، أخذ يداعبها حتى اقتنص منها ابتسامات حقيقية متفرقة وممتنة أيضًا، أوقف السيارة أمام أحد السوبر ماركتات واشترى لنا كثيرًا من العصائر والمياه والطعام الجاهز، إلى أن وصلنا أخيرًا.. نزلت هند مستندة على ياسمين وعلى وعند مدخل العمارة نادى عمر.

- مريم، تعالى.

- أيوه يا عمر.

- خدي آية الكرسى دي خليها معاكي هتحميكي، ولو في أي حاجة حصلت كلموني.

كانت سلسلة من الفضة بها آية الكرسى، نظرت إليها في إعجاب، وإليه في فرح وشكر، وتساءلت «هل صدقني عمر»؟ ربما.. فرحي بالسلسلة لم يكن فرحًا بهدية غير متوقعة، وإنما كان نتيجة محاولة تصديق عمر لما يحدث، لو صدقني عمر الذي يملك عقلية أغلب الرجال فسوف يصدقني على الأرجح من مثله بعد ذلك ممن سوف أضطر إلى قص ما عانيته عليهم إذا لزم الأمر، قبلت الهدية من أخ أستشعر احترامه لي لكنني تساءلت بعد ذلك نفسي هل أهدى مثلها لياسمين؟

كنت قد عودت نفسي قبل أن أدخل البيت أن أقرأ آية الكرسي والمعوذتين وبعض الأذكار، تساورني الهموم في كل مرة أدخل فيها الشقة لما لاقيته فيها، وما سوف ألاقيه، أم ستنتهي هذه الخزعبلات قريبا كما يسميها عمر؟

أدركت أن الإحساس بالأمان نعمة كبيرة لا تُقدر بثمن، حتى لو كان في مكان مثل المشفى الذي زُرناه، إنها أشياء لا نعرف قيمتها إلا بفقدانها، الأمان من الأشياء التى لا تشترى ولا تُباع للأسف، فقد جاء يوما أُفضل فيه المكوث في مشفي على المكوث في سريري في ليل الشتاء القارس! من يصدق؟

استضفت هند في غرفتي، سندت رأسها على وسادة وأخذت أسقيها من العصائر ما تحملته معدتها في هذا الوقت، خرجت إلى غرفة الاستقبال وفتحت التليفزيون، رقم قناة القرآن الكريم أحفظه عن ظهر قلب، استمعت إلى أول آيتين من سورة «المُلك» واتجهت مرة ثانية إلى غرفتي، أتوضأ فيها كالعادة وأصلي كل الصلوات الفائتة قضاء، كانت المرحلة التالية هي الأصعب، مرحلة تبديل ملابسي، كنت أخاف من تبديل ملابسى مؤخرا فلم نستحم لأيام، أنادي على احدى البنات وأبدل ملابسي في وجودها، وكالعادة اعتمدنا على حمامات الجامعة والمطاعم في مرور المياه على أجسادنا فقط.

كانت عادتي أن أخلع جميع أدوات زينتي كالخواتم والساعة والسلسلة في البيت، فأنا لا أطيقها بعد الاستراحة من ملابس الخروج وإحساس الراحة في ملابس البيت، دائما أضع الحُلي في علبة صغيرة، بينما أضع ساعتى فوق رف سريري الخشبى الملتصق في ظهره،

كي أتمكن من معرفة الوقت من حين لآخر، تأكدت من أن هند غلبها النوم فوضعت ساعتي ورائي على رف السرير وأغلقت النور وبدأت أغمض عيني استعدادًا لنوم غير مُحتمل، هنا دقت ياسمين على الباب:

- ليه مش فاتحة قرآن في الصالة؟

قمت من مكاني فزعة، فعرفت ياسمين جوابي على الفور.

- أنا كنت فتحاه! هو قفل؟ هو قفل يا ياسمين؟ هو قفل؟

- خلاص خلاص يا مريم، وطي صوتك عشان هند نايمة.

وكالعادة أخفق النوم في العثور على جفون يُلاقيها ولو حتى لدقائق معدودة، أخذ التوتر يزيد من حدته معي كلما فكرت في أمر التليفزيون، وأخذت أردد الاستغفار إلى أن انتابتني حالة من الاستنكار لما يفعله بي الله، فقد كنت على شفا حفرة من الكفر والعياذ بالله، وأخذت أردد «ليه بس كده يا رب؟ أنا ماعملتش حاجة وحشة للدرجة دى في حياتى عشان يبقى عقابك كده، ولو على الدجال ما أنا استغفرتك؟ ما أنا اديت الغلابة صدقة عشان تسامحنى؟ ليه بس كده؟» يبدو أن صوتي كان عاليًا ونبرتي حادة فاستيقظت هند.

- مالك يا مريم؟

- القرآن اللي بره طفى لوحده!

قامت هند واسندت ظهرها إلى وسادة في قلق ارتسم على ملامحها.

- يا شيخة إنتي مش عارفه تليفزيونا؟ ده صيني، متخافيش كده.. دى وصلة يا مريم مش ريسيفر، ممكن يكون الرجل غير القنوات؟ إنتي الصبح روحي له وخليه ييجى يظبط القنوات، أو اتصلى بيه ييجى.

لم أعلق على ما قالته، أراد عقلي الباطن أن يصدق ما تقول رغم علمه بالحقيقة، كما أحسست بالذنب تجاهها وهي المريضة التي لا تقوى على الكلام، أعطيتها ملامح الموافقة فرجعت مرة أخرى إلى وضعية النوم.

كانت ياسمين تتشبث دوما بخصوصيتها، فهي مثلي تماما تؤجر الغرفة منفردة بها، يأتي المساء فتدخل صومعتها مغلقة بابها حتى صباح اليوم التالى، لكنها أتت الينا في غرفتي ترتدي إسدال الصلاة حاملة المصحف والسبحة وسجادة الصلاة!

- أنا هقعد معاكوا الليلة دى عشان آخد بالي من هند.

نظرت إلى عينيها فوجدتهما زائغتان لا تريد أن يراهما أحد منا، يديها ترتعشان، وجهها تكسوه حمرة شديدة، تتلعثم في الكلام كأنها تعلمت النطق حديثا، فسألتها.

- حصل حاجة يا ياسمين؟

لم تواجهني عيناها قط.

- لأ يا شيخة محصلش حاجة خالص.

- حصل حاجة ولا إيه؟

انفجرت ياسمين بحدة.

- اسكتي بقى شوية.. إيه؟ اللي جاي عليكي حصل حاجة حصل حاجة! أنا جايه أقعد معاكم بس.

جلست بعدها على الأرض تسبح وتستغفر، بينما أخذت نظرات شكي تندفع منطلقة نحوها في ريب ولم أصدقها.

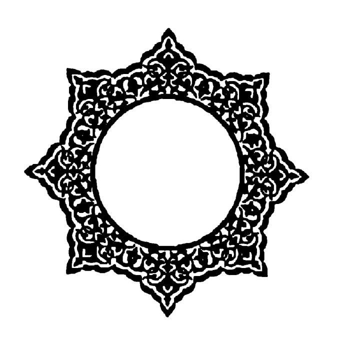
- طب طالما إنتي معانا في الأوضة بقى، أنا هنام شوية.. ولما تروحي أوضتك صحيني، أوعي تطلعي وأنا نايمة؟

نظرت إلى هاتفي راجية السلام.

- طب هاتي موبايلك أشغل القرآن نسمعه.

تركنا باب الغرفة مفتوحًا ليلتها، خلعت ساعة يدي ووضعتها ورائي على رف السرير ونمت نوم قلق متقطع، كنت أفزع بين الحين والآخر، أتأكد من وجود ياسمين معي، لم يفارقني وجه «ماهر الدجال» ليلتها في أحلامي المتقطعة، ثم غالبني النعاس ورُحت في ثبات عميق.





كنت أتوضأ لأصلي الصُبح وإذا بصوت فاطمة الزهراء يجلجل في أرجاء البيت في بهجة.

- لقد سُررت بزيارتك بالأمس وفرحت فرحًا شديدًا، وإنى أغار منكِ يا مريم، فقد ازددت جمالًا تبارك الله، رغم مرور خمس سنوات كاملة.

توقفت عن الوضوء ونظرت حولي، فرأيتني أتوضأ في حمام أثري من الحجارة الصفراء، وبجانبي إبريق من النحاس به ماء يتوسط طبق كبير من النحاس، عليه منشفة مصنوعة من قُماش لم أعتده!

ها قد أتيت مرة ثانية، ولكننى إعتدت الموقف شيئًا ما ولم أنزعج كما المرة السابقة، ولم أتساءل هل ما يحل بي نعمة أم نقمة؟ حقيقة أم حُلم؟ فقط استسلمت في هدوء، بقي أن أستوعب ماذا جرى فأنا قد وصلت البارحة على حد قولها، هل يا ترى قابلت خولة أيضًا؟ ولماذا جئت من الأساس؟

أكملت وضوئي وخرجت فلاحظت أني في الدور الثانى ببيت فاطمة، كان شبيها للساحة بالدور الأول لكن الساحة به أصغر والغُرف أكثر، رأيت جلبابي الأزرق النهري اللون الذي لا أتذكر من أين جئت به أو متى ارتديته، كان جلبابًا طويلًا يتوسطه حزام مُذهب واسع الأكمام أطرافه جميعها مطرزة كما الحزام، فوق رأسي طاقية زرقاء، يعلوها غطاء رأس طويل أبيض اللون مُثبت يكاد يلامس أطراف ثوبي ولم يكن هناك بُرقع هذه المرة، امتدت يدِ صغيرة تُمسك بطرف جلبابي، نظرت إلى الأسفل لأرى من يكون، كان طفلا جميلا بشوش يشبه فاطمة إلى حد كبير، ابتسمت له ثم رفعته لأحمله فابتسم لي وداعبني، فأمسكته وسألته مُداعبة بدوري.

- ما اسمك يا فتى؟

- على بن جعفر بن اسماعيل.

أتت فاطمة ضاحكة وهي تحمل قدور من الطعام وتضعها على المنضدة.

- بات على في الرابعة من عُمره، لقد كُنتِ بشارةُ سعيدة يا مريم، منذ أن وطأت قدميك هذا البيت وقد حُلت مشاكلى، رزقنى الله بعلى ثم ابنتي بهجة.

بحثت عيني عنها فأردفت فاطمة.

- مازالت نائمة الآن، كانوا نائمين عندما وصلتى البارحة والآن زوجي قد سافر فجر اليوم إلى قوص، جعفر كثير الترحال لاشتغاله بالتجارة كما تعلمين، لكنه يبلغك أنه سوف يصطحبك مغرب اليوم إلى مبغاك كما وعدك فلا تقلقي.

- أنا سعيدة جدًا من أجلك يا فاطمة يا صاحبة القلب الطيب، مهلًا.. إلى أين يصطحبني زوجك؟

- ألم تطلبي منه البارحة مقابلة الشيخ القنائي؟

مرت لحظات صمت أحاول أن أعى شيئًا مما تقول ثم استطردت ساهمة.

- الشيخ «عبد الرحيم القنائي»؟ أتمنى ذلك.

- يجب أن تفخري بنفسك يا مريم، أنتِ طالبة علم، دارسة لكتاب الله وشريعته والفقه الإسلامى، أنا حقًا فخورة بك.

مرت لحظات أحاول استيعاب الأمر واستجماع كلماتي.

- الفخر في أن تفعلي ما يجب عليك فعله بحب واعتزاز وضمير حي، أنا أطلب العلم وأريد أن ألتقي بعالم جليل، وأنت تُفني حياتك في تربية جيل قويم ليأتي عبد الرحيم القنائي مرة ثانية، وكل من يعمل بجد في موضعه يجب أن يفخر بنفسه.

تبسمت فاطمة بعد اطرائى، فأردت تغيير المناقشة.

- لكني أرى النساء بحال جيدة هنا يا فاطمة أليس كذلك؟

- نحمد المولى على جميع نعمه، رغم توالي الأحداث وكثرة النزاعات، وتخوف رجال البلاط الفاطمي من نوايا صلاح الدين، وانتهاء الخلافة الفاطمية، إلا أن أحوال النساء جيدة والحمد لله، أحيانا أتذكر رواية الجدات لنا عن واقعة الخليفة «الحاكم بأمر الله» فارتعب، على عكس ما كان عليه الخليفة المُعز لدين الله رحمه الله، والتي كانت امرأته «مولاتنا أم الأمراء تغريد»، امرأة ذات عقلية تجارية فذة،

أتعلمين يا مريم أن الخليفة كان يطلب مشورتها في كثير من أمور الدولة؟ وقد شيدت كثير من المنشآت المُهمة، والآن أحمد الله وأسجد له شكرًا على ما نحن فيه.

- نعم، قرأت عن زوجة الخليفة المعز لدين الله، كان حقًا شيئًا جميلًا أن تحظى النساء بمكانة في ذلك العصر، لكن ما الذي فعله الخليفة الحاكم بأمر الله؟

نظرت فاطمة إلى في ذهول يمسحه شك تعمدت تجاهله تمامًا.

- ألم تُصغي يوما إلى حكايات الجدات الشهيرة يا مريم؟ الخليفة الحاكم بأمر الله هو من حبس النساء في البيوت لسبع سنوات كاملة، لغيرته الشديدة عليهن ومنعهن من التطلع من الطاقات، أو أسطح البيوت وأباح للمحتسبين دم المرأة التى تخرج من منزلها ومنع الإسكافية حتى من صنع أحذية لهن.

- ما هذا الهراء؟ أوتخرج من بيتها إلى قبرها فقط؟

- كانت هناك حالات مُستثناة تستخرج بها تصاريح لأداء فريضة الحج، وغُسل الموتى، وعمل الأرامل المحتاجين ببيع غزلهن.

- كأنهن جنس ثالث! وماذا فعلن؟

- لا شيء، لم تخرج النساء من البيوت إلا بموت الخليفة الحاكم بأمر الله، وتولى الخليفة «الظاهر لإعزاز دين الله»، والذي أفرج عنهن، فعمت الفرحة والبهجة حينئذ، وقد سُميت مواليد البنات بهجة وفرحة في هذه السنة، وبهجة كانت إحدى جداتي والتي تفاءلت بسيرتها فسميت مولودتي بهجة باسمها.

- مُباركة «بهجة» إن شاء الله يا فاطمة.

- هل تصدقين ما قُلت يا مريم؟

- أجل، ولم لا؟

- أنا لا أصدق ولا أكذب.

- ماذا تعنين؟

- لا أدري.

- أيكذب التاريخ؟

- حقًا لا أدري يا مريم، إنها مجرد تراث، هل روايات الجدات صحيحة؟ أم لعب بها هواهم فأضاف أو حذف؟ الأخبار تتناقل ولا أحد يدرى صحتها من زورها.

- سامحك الله يا فاطمة، سوف أفكر في كل ما يُقال بعد سؤالك هذا.

- لا عليك يا مريم.

سكتت فاطمة برهة وكأنها تفكر، راقبتها وسألت.

- ماذا يدور بخاطرك يا صديقتى؟

- أتعلمين يا مريم، عندما تتحدثين أو تسألي أسئلة غير منطقية، تُراودني أفكار أنك عابرة علينا، أى أنك لست من هذا الزمان، خاصة مع لكنتك الغريبة، رُبما تحملين سراً كبير، عُذرا أنا لا أستطيع أن أخفي عليك ما في صدرى، فبالرغم مما قد أُفكر فيه إلا أننى أرتاح في صُحبتك وأحس بنقاء سريرتك، ولهذا أفتح لكِ بيتى في حُب خالص لا تشوبه شائبة.

- لا بأس يا فاطمة أستطيع أن أعى ما تقولينه وأن أحترمه، ولو كنت بمكانك ما فعلت مثلك، لكننى أمضيت السنوات الخمس الماضية في السودان عند أخوالى، ولا أعرف شيئا مما يحدث بمصر.

تبسمت في وداعة وأردفت.

- أعلم هذا وأعمل على تصديقك.

ابتسمت ولم أشأ أن أُكمل الكذبة فسألتها في سذاجة.

- من أين علمتي بهذا؟

- لقد علمت منك البارحة يا مريم، لم يمر وقت طويل حتى تنسي؟

ناجيت الله بداخلي كثيرًا، يا الله يا قدير عقلي لا يستطيع الاستيعاب، وإني أستغيث بحولك وقوتك لا إله إلا أنت.

- آه لقد تذكرت، آثار السفر يا فاطمة، دعينا من هذا وأخبريني عن الخليفة وأخبار الخلافة.

- الخليفة رغم صغر سنه إلا أنه عادل وبه كثير من الرحمة، كريمًا سمحًا لطيفًا لين الجانب يغلب عليه الخير وينقاد إليه، لكنه متغاليًا في مذهبه شديدًا على من يخالفه.

- والشيخ عبد الرحيم القنائي؟

- سوف تقابلين الشيخ وتخبريني أنت يا عزيزتي مريم، فأنا حتى الآن لم يسبق لي لقاءه.

بعد أن انتهينا من صلاة الظهر في جماعة استأذنت مني فاطمة لتُعد طعام الغداء، كي يكون جاهزًا عند عودة زوجها، جلست وحيدة

بعد أن كنت مع «علي وبهجة» لبرهة نلعب سويا، وبعد أن أخذتهم فاطمة لنوم القيلولة أخذت أُفكر في حالي وما آل إليه، اجتناب التفكير لن يكون هو الحل بالتأكيد الآن كما فعلت المرة السابقة، لن يجيب كثرة تساؤلاتى إلا البحث مع الصبر، لكني اعتمدت في حياتي في القرن الواحد والعشرين أن البحث عن أى شيء في غاية السهولة، ما عليك إلا فتح جهاز الحاسوب أو التليفون المحمول والبحث عبر موقع «جوجل» ثم يأتيك الجواب في أقل من ثواني.

هنا في السنة ٥٦٠ هجرية - ١١٦٦ ميلادية كيف أبحث عن تساؤلاتي؟ عندما أسأل فاطمة أرى في عينيها حيرة ولا ألومها، وإني أخاف أن أسأل زوجها، وأتعجب حقًا هل رأيته البارحة؟ ولماذا أريد أن أقابل الشيخ القنائي؟

على كل الأحوال أشعر بإثارة عندما أفكر في مقابلة الشيخ الجليل اليوم، حقًا أكاد لا أصدق ما أمُر به! هل يُمكن أن يكون هذا بسبب زيارتي لمسجده؟ رأيت كتاب الله قريبا مني ففتحته بعفوية وقرأت بصوت مسموع.

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[1].

---

١ سورة الضحى.

ما إن أغلقت المصحف الشريف حتى نظرت إلى الأمور من مُنطلق آخر، لماذا لا يكون كل ما أمر به هبة من الله، نعمة ونفحة كى ارى واعيش ما لا يستطيع أن يعيشه أهل زمانى، ثم أخذت أناجى القادر الوهاب.

«إلهي قد سلمتك أمري بغير اعتراض فاكتب لي الخير كله وارضنى به ونور بصري وبصيرتي يا الله وارزقني شكرك على كل ما تؤول إليه المقادير».

قبل أن يُرفع أذان العصر أتى جعفر مُحملًا بخيرات الله إلى بيته، رأيت فاطمة وقد بدلت جلبابها وغطاء رأسها الطويل وتزينت، كانت رائحة الطعام الشهي والبخور المُميزة المُهدئة للأعصاب قد اختلطت سويا وملأت جنبات البيت، ذهبت إليه ترحب به وابتسامتها يطل منها الحب وقد امتلأت قسماتها رضا.

جاءت فاطمة تدعونى لتناول الطعام مع أسرتها الصغيرة، سلمت على جعفر واصطنعت أني ألقاه للمرة الثانية فرحب بي في أدب وحياء، كان طيبًا يُحب زوجته ويعشق أولاده، ذو عقل خُلق ليعمل بالتجارة، كثرة أسفاره قد أكسبته خبرة ولباقة في التعامل مع كافة أنواع البشر.

جلسنا جميعًا في دائرة حول مائدة الطعام الذي طهته وقدمته فاطمة لنا بكل الحب، تكونت الوجبة من لحم الماعز مع حسائه، وبعض الخضروات والخبز المحمص، جلسنا جميعًا نأكل وبعد دقائق قطع جعفر الصمت.

- قد مررت على الشيخ «عبد الله القرشي» كي يأذن لنا الشيخ القنائي في مقابلته بعد عصر اليوم.

- من هو الشيخ القُرشي؟

نظر جعفر إلى فاطمة نظرة تقول من في قنا لم يعرف القُرشي بعد؟

- حسنًا، لقد عرفت من فاطمة أنك آتية من السودان حديثا ربما لم تأتيك الأخبار بعد، انه أحد أولياء الله الصالحين في قنا وهو مُقرب إلى شيخنا «العارف بالله عبد الرحيم القنائي».

لم أستطع أن أرد إلا بابتسامة امتنان ثم آثرت أن أُركز مع الطعام الشهى ومُداعبة الأطفال، انتقلا جعفر وفاطمة بالحديث إلى خططهم في الأيام القادمة من زيارة الأقارب ومتابعة أحوالهم.

كُنت في عُجالة كى أرى الشيخ القنائي والذي لم تُرسم له حتى صُورة تخيلية في عصري، انتهيت من الطعام وحاولت مُساعدة فاطمة لكنها أبت وأصرت ألا أُجهد نفسي قبيل مقابلتي الشيخ الجليل، قمت لأداء صلاة العصر وذهبت فاطمة تنظف أرجاء المنزل وتغسل القدور، ثم جاءت حاملة قفازًا أزرق في يديها.

- ارتدى قُفازك يا مريم فأنى أراكِ جاهزة ومُتحمسة لمقابلة الشيخ.. جعفر ينتظرك في الساحة السُفلى.

- هل عبرت لكِ يومًا عن حُبى وخالص امتنانى؟

- تستطيعين فعل ذلك يا عزيزتى بزيارة سنوية كى أطمئن عليكِ.

ابتسمت وارتديت القُفاز، كأنه فُصل على كف يدي، لم أتعجب بالطبع، نظرت نظرة حُب إلى فاطمة وعانقتها مُودعة ونزلت الدرج فوجدت جعفر واقفا عند الباب يبتسم كأخ لي.

- هل أنتِ مُستعدة؟

- على أتم الاستعداد.

- على بركة الله.

انطلقنا في الطرقات التى أصبحت مألوفة لي نوعًا ما، مررنا بسوق حيث قابلت فاطمة وخولة للمرة الأولى والتى كانت على ما أظن منذ يومين ولكن حالهم يؤكد ما يقولون إن خمس سنوات كاملة قد مرت، ولولا أن أنجبت فاطمة لما صدقتها.

- إلى أين وجهتنا يا أخي؟

- إلى المسجد حيث يتواجد الشيخ لإعطاء دروسه.

- هلا تحدثني عن الشيخ يا جعفر؟

- تريدين مقابلته ولا تعرفيه؟

- لا أعرف عنه سوى أنه عالم جليل وحسب رغم ذيع صيته، لا أعرف ما تعرفه أنت.

ابتسم في ذكاء واسترسل يقول.

- حسنًا لكِ ما طلبت، لقد أمضى طفولته في تحصيل العلم في جامع ترغاي الكبير على يد والده، كما تتلمذ على يد كبار العلماء فلم يكد يصل الثامنة من عمره حتى كان قد حفظ القرآن الكريم وجوده تلاوة وفهما، وتوفي والده وهو في سن الثانية عشرة لذلك مرض مرضًا شديدًا حتى حار الأطباء في علاجه، وأشار بعض منهم إلى أنه يجب أن يغادر البلاد لما حدث فيها من عزاء لوالده، قضى في دمشق ثماني سنوات نهل فيها من علماء دمشق وقد بدا لهم

ذكاء السيد عبد الرحيم وسرعة بديهته وحفظه وميله إلى التصوف فطلبوا منه وهو في سن العشرين أن يلقي الدروس فأبى، وذلك أدبا لأنه يعرف قد علماء دمشق وكان مقيما عند أخيه فسألوا أخاه إقناعه فرفض وقرر العودة إلى بلدة ترغاي. وفي ترغاي وجد مكان أبيه شاغرا لم يقدم أحد على شغله لمعرفة مكانة الشيخ، وان ليس فيهم من يستحق هذه المكانة، واجتمع علماء ترغاى واصروا على إحلال السيد عبد الرحيم مكان أبيه، فكان لهم ما طلبوا. وفي أول درس يلقيه الشيخ تكدس الناس لما بدا لهم من غزارة علم السيد عبد الرحيم الشيخ الصغير ذي العشرين عاما، وذاع صيته وتوافدت عليه الناس من البلاد المجاورة للقائه، قضى السيد عبد الرحيم خمس سنوات على هذا النهج وما يقوم به من مهمة الوعظ والإرشاد عن واجبات المسلم نحو ربه ومجتمعه بأسلوب ساحر أخاذ أبكى المستمعين تأثرًا وإعجابًا.

- قصة من أعظم ما سمعت، ولكن ما الذي جعله يرحل وقد احتل مكانة عظيمة في ترغاى؟

- السبب هو أحداث المشرق في ذلك الوقت من تكتل قوى الاستعمار الأوروبى المقنع تحت اسم الصليب، للهجوم على بلاد المشرق واستعمارها كانت تشد تفكيره بقوة إلى المشرق حيث كان يرى وجوب تكتل كل قوى المفكرين من المسلمين لحماية الدول الإسلامية، وفي تلك الأثناء توفيت والدته ولم يكن تزوج بعد وليس هناك صغار يسعى في تربيتهم، الأمر الذي جعله بالإضافة إلى الأسباب السابقة، أن يفكر في الرحيل إلى المشرق، ثم قرر السيد عبد

الرحيم الاتجاه إلى الحجاز حيث يؤدى فريضة الحج، لأنه لم يتسنى له أداؤها عندما كان بدمشق، وحتى يلتقى هناك في موسم الحج بعلماء المسلمين لمناقشة جوانب مشاكل العالم الإسلامى، وبعدها يرى إلى أين يوجهه المولى عز وجل. فرحل من ترغاي ميمنا وجهه شطر الحجاز لتأدية فريضة الحج، وفي طريقه مر بمدينة الإسكندرية والق اهرة فتركا في نفسه أثرا لم تمحه رحلته المقدسة إلى البلاد الحجازية. وبقى في البلاد الحجازية تسع سنوات قضاها متنقلا بين مكة والمدينة ينهل من علم وفضل فقهائها وعلمائها تارة وعابدا معتكفا بالبيت الحرام أو بمسجد المدينة تارة أخرى.

- ومن أين كان يكسب رزقه؟

- كان يسعى للاتجار في بعض المحاصيل حتى يستطيع التفرغ للعبادة والعلم دون أن يمد يده للاستجداء أو أن يكون عالة على أحد.

- وكيف جاء إلى مصر تحديداً؟

- أثناء موسم الحج العاشر التقى بمكة بأحد الشيوخ الأتقياء الورعين القادمين من مدينة قوص الشيخ «مجد الدين القشيري»، ودار بينهما حديث فتعارف فألفه، وأصر بعدها القشيرى على أن يصحب عبد الرحيم إلى مصر وإلى قوص وقنا بالذات حيث أن مجتمعها متعطش إلى علم وفضل أمثاله، وأن واجبه الإسلامي يدعوه إلى الإقامة في قوص أو قنا ليرفع راية الإسلام وليعلم المسلمين أصول دينهم وليجعل منهم دعاة للحق وجنودا لدين الله.

- ووافق الشيخ.

- وأخيرا وافق الشيخ عبد الرحيم على الرحيل إلى مصر، فجاء بصحبته والذي كان يعمل حينئذ إماما بالمسجد «العُمرى» بقوص، وهو أقدم مسجد في الصعيد، وكانت للشيخ القشيرى مكانته المرموقة بين تلاميذه ومريديه، ولكن الشيخ لم يرغب البقاء في قوص وفضل الانتقال لمدينة قنا، تنفيذا لرؤى عديدة أخذت تلح عليه في الذهاب إلى قنا والإقامة بها ولأن قوص ليست في حاجة شديدة إليه فقد كانت وقتها غاصة بالعلماء والفقهاء وكبار المفكرين من أهل الدنيا والدين. وبعد أن أمضى عبد الرحيم ثلاثة أيام بقوص رحل إلى قنا حيث التقى بالشيخ عبد الله القرشي، أحد أوليائها الصالحين كما سبق وأشرت إليه، فانعقدت أواصر الألفة بينهما وتحابا وتزاملا في الله. وقد ساعد جو قنا الهادئ الشيخ عبد الرحيم على حياة التأمل فأمضى عامين كاملين يتعبد ويدرس ويختلي بنفسه ليتعرف على خباياها، ولا يقطع عليه هذا الاختلاء وذاك التعبد إلا خروجه للتجارة التى يعتمد عليها في معاشه، ومنذ ذلك الحين لُقب بالقنائى.

- كانت خولة تقول أخبار صحيحة اذن.

- رحمها الله رحمة واسعة، كانت تتقد ذكاء، لكن ماذا قالت خولة؟

- هل ماتت خولة؟

تأثرت لسماع نبأ وفاتها وكأنها صديقة قديمة حقا، لا أجد تفسير لما شعرت به.

- ألا تدرين؟ توفاها الله في هدوء وهي نائمة السنة الماضية.

- إنا لله وانا إليه راجعون.. رحمها الله رحمة واسعة.

سادت لحظات حداد ثم أراد جعفر أن يهون علي..

- يا أختي مريم كُلنا زائرون، زائلون، كُلنا راحلون، لكننا فقط لا ندرى من يرحل أولا، ومن سوف ينتظر قليلًا، فهوني على نفسك، ندعو الله لكل أمواتنا ولنا الثبات واللقاء في الجنة بإذن الرحمن الرحيم.

تذكرت أبى ولم أستطع أن أُخفي دموع تسابقت في مجراها فأسرع جعفر في تهدئتي.

- فاطمة تقول إنك امرأة قوية لا تأبى شيئا.

نظرت إليه وابتسمت وجففت دموعي.

- أنت طيب القلب مثل فاطمة يا جعفر.

- جزاكِ الله كل خير يا أختي مريم.

- والآن أريد أن أعرف إلى أى مدرسة ينتمي الشيخ؟

- لا نستطيع أن نقول إن الشيخ صاحب طريقة يا مريم، فهو لم يحصر نفسه بين طائفة معينة، لكن تستطيعى أن تقولى أنها مدرسة شاملة من العلم الصوفي المحمدى وهي مدرسة فكرية إسلامية تصوفية.

بعد بُرهة رأيت المسجد المُراد على بُعد أمتار فغمرتني الفرحة والرهبة والدهشة وتلجم لساني وأخذت أمسح عن جبهتي العرق وتجمدت أطرافي، نظر إلى جعفر وابتسم ابتسامة واسعة.

- هكذا حال المُريدين العاشقين، سوف أتركك معه يا مريم حتى تستفيضي وسوف أرجع لأصطحبك إلى البيت بعد ساعة إن شاء الله.

- أشكرك يا جعفر.

وصلنا لساحة في الخلاء كبيرة، رجال كثيرون مُغادرون وقد انتهوا من درسهم مع الشيخ القنائي، استقبلنا الشيخ القرشى وحيانى ثم تبسم وقال ان الشيخ في انتظارنا.

كان الشيخ القرشى كبيراً في السن والمقام، ذو لحية بيضاء كبيرة، تغطى وجهه ابتسامة تنيره، تجعلك لا تلتفت إلى تجاعيده المنقوشة بعمق على قسماته، تعكس سنوات من الحكمة والورع.

مشيت خطوات وبجانبى جعفر والشيخ القرشى في هذه الساحة، أرى من بعيد رجل يجلس القرفصاء أمامه لوح خشبي عليه كتاب يقرأ فيه، يرتدى ما يرتديه الرجال في هذا العصر، إلا أنه قد ارتاح من عمامته ووضعها بجانبه على صندوق خشبي متوسط الحجم، رُسمت عليه نقوش، وبه قفل من فضة محفور عليه آيات من القرآن الكريم، نظر باتجاهنا عندما أحس وقع أقدامنا حتى بعد أن خلعنا أحذيتنا، أغلق الكتاب ونهض واقفًا باسمًا لئلا يحيينا.



«العارف بالله عبد الرحيم القنائي»

- لم أكن بالسودان يا سيدي.

رفعت رأسى لأنظر إليه فوجدت ابتسامته مازالت حاضرة فأكملت.

- إنها حُجة اختلقتها كى لا يشك أحداً بأمري.

- ولماذا أخفيت عني الحقيقة؟

- لن تُصدقني، ولن يصدقني أحد، فأنا نفسي لا أصدق نفسي.

ضحكت عيناه ولم يندهش ولم يبدِ انزعاجًا، نظر إلى عيني مباشرة نظرة ساحرة ذات مغزى، تحمل الكثير من الحب النقي، كثير من الإعجاب، وكأنه قد تلقى إجابة كان ينتظرها، ثم ابتسم وأكمل مطُمئنًا إياي.

- أنا سوف أفعل.

كان صوته عذبًا مطمئنًا وكافيًا لأن أفعل ما يريده، نظرت إليه مرة أخرى فوجدته يبتسم ابتسامة مُختلفة حيرتني، فجاءت ابتسامتي مُرتبكة ولم يستطع لساني أن يُفصح عن شيء، لكنه قرأ عيني جيدًا.

- تكلمي يا عزيزتي.

- هل لي بوعد من شيخنا الجليل أن يصدقني وحسب؟

اعتدل أكثر في جلسته وتغيرت ابتسامته فجعلتني أشعُر بألُفة تجاهه وكأنني أعرفه منذ مئات السنين، لم ينتظر وسبقني.

- أعلم من أين أتيتِ يا مريم، وأعلم لماذا، وكنت بانتظارك.

اختفت ابتسامتي تدريجيًا في تساؤل، نظرت إلى عينيه فوجدته واثقًا وهادئًا تمامًا، ثم أردف في هدوء.

- لا تخافي ولا تنشغلي بكثرة السؤال، فهناك الكثير في الكون لم نفهمه بعد، وما علم السابقين وعلم الحاضرين وعلم اللاحقين إلا نقطة في بحر من علم العليم، طالما تؤمنين بالخالق حق اليقين فلا تتعجبي قدرته.

- عقلي يرفض ما أرى، وقلبي ينبض بالإيمان أن كل ما أمُر به حقيقي، وأنا بين هذا وذاك لا أدرى أين الصواب؟

- العقل يقبل الأشياء على حقيقتها ويستدل بالأدلة المادية وظواهر الأمور، أما القلب إن كان سليم، فهو خزائن المحبة ونور المُحبين والمُريدين في كل زمان ومكان، القلب لا تُقيده حواجز ولا تحُده أسوار، ولا تملكه شهوات فهو حُر طليق في ملكوت من يحب، يدري ولا تدرى، يرى في الظلام الحالك ما لا يستطيع عقلك رؤيته في وضح النهار، فإن آمنت به فتح أبواب خير لكِ، وإن لم يكن أغلقه في وجهك واستمر في البحث عمن يستحقه.

- إذن فكل هذا حقيقي؟

- من يستمع إلى هذا قد يستشعر ميلي نحو كفة القلب، لكن حقيقة الأمر لابد من انسجامهما معا لإعمار الكون توافقا مع القوانين الإلهية، فلولا العقل لفسد القلب البشر بأهوائه، ولولا القلب لفسد العقل البشر بأطماعه.

مرت لحظات سكون وتأمل بيننا وكنت قد سُحرت بما سمعت واسترسلت بصوت خافت مُواجهة.

- لم أعد أفهم شيئا، لكن ما أستطيع أن أُجزم به إني قد أتيت من زمن ندُرت فيه المحبة الخالصة.

- سوف أقُص عليك شيئًا من الحقيقة، في زمن آخر بعيد أتيت أنتِ منه بإرادتك، يكون إرثي وإرث أمثالي ممن اجتهدوا في حب الله مطمع للدجالين والسحرة، سيحاول الشرفاء المحافظة عليه، لكن الفتنة عظيمة والايمان شحيح، عندما يكثر المُجاهرين بذنوبهم والمُخالفين لشرع الله، ويتوالى الفاسدون حُكام ومحكومين عبر السنين ويستبق الناس لفعل المعاصي وهم يعلمون، بل يجادلون في المُحرمات ويهرطقون، عندما تعترض الناس على قضاء الله ويكْثُر الملحدون مُتكبرون على الخالق، عندما يفسر الغافلون آيات الله على الأهواء ويتخذونها عُذرا لإباحة الموبقات، عندما يُخنث الرجال وتفجُر النساء وينتشر الباطل ويكتسح الغلاء البلاد، يسمعون الأذان إلى أن ينتهي ويمر الوقت دون عقد العزم على تلبية النداء، يمر الوقت أكثر إلى أن يمضي وقت الصلاة، والناس ذائبون في صخبهم وانشغالهم بأمور زائلة غير مُدركين ما فوتوا عليهم من خيرات وغُفران، يُباح الدم وتنتشر الحروب، يكُفر الناس بعضهم بعضا بغير دليل وينقسمون على أنفسهم، لقد أتيت من زمن من يقبض على دينه كالقابض على جمرة من النار كما قال الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)، لكن الخير باقيًا وها أنا أراكِ تأتين أملا في الخلاص من الشرور وحامية لمقتنياتي وإرثي من أجدادي، وهذه ليست مُصادفة لقد كان اختيار.

- هنا يكْمن السؤال، لماذا أنا؟

- كل خلق الله مُطيع له سبحانه، كُل الأقدار نافذة، وما الوقت إلا مخلوق مُطيع من مخلوقات الله تعالى يسبح في الملكوت، كُل المخلوقات تفعل ما تؤُمر وأن هذا لشرف سامٍ وعظيم.

- أتمنى لو يجتمع أهلي معي ونعيش هنا فأواظب على الدرس وأنهل من علمك يا سيدي.

- أما أهلك فهذا قدرهم، وأما أنت فإنك تفعلين ما تمنيتِ يا مريم.

- كيف؟

- تتلقين درس حياتك الآن، وسوف تحمى إرثى من السقوط في أيدي من لا يخافون المولى عز وجل (حاشا لله)، وأنى أؤكد لكِ أن حماية الغافلين عن الأذى وعما دُبر لهم وربما آذاهم، إن هو إلا أمر عظيم وخوض حرب أزلية منذ بدء الخليقة، بين الخير والشر ودائمًا ما ينتصر الخير وإن طال الأمد.

- كيف؟

- وحدها المحبة تُغير الفكر وتمسح الأحزان، وليس اتباع الحبيب لحبيبه دليل محبة كما قد يظن الناس، إنما الاتباع لابد له من اثبات بالفعل، وما كان فعلك في اتباع أثرى إلا دليل محبتك لي في الله، ومحبتك لفعل الخير ودرء الأذى.

في هذه اللحظات نزلت دموع فرحة وخوف في حضرته، فراقبها في رحمة وحُنو واحتوتنى كلماته.

- البكاء يغسل الروح ويُطهر النفس، تملكين روح تهفو إلى خالقها في وداعة، ونفسك اللوامة تلومك دوماً وتستنكر الخطأ، وهذا بذرة من بذور الايمان وأحد أسراره، ما مر بك ما هو إلا درس في دُنياكِ ودعوات مُستجابة بصلاح حالك إن شاء الله.

- وما أنا عليه الآن يا سيدي؟

- أما ما أنت عليه الآن فلك فيه الاختيار، إما أن تستمرى في اندهاشك فيفوتك حاضرك وما قد تتعلميه، أو أن تُزيلى ما بنفسك من شوائب وتُقدمي وتنهلي من العلم.

- أريد أن أعرف كيف عرفت كل هذا؟ وكيف كنت في انتظاري ومنذ متى؟

- المعرفة بحر واسع وعُمق الماء درجات، ونحن البشر نحسب أنفسنا علماء الأرض وننسى أن فوق كل ذو علم عليم، دعيني أجاوب النصف الثاني من سؤالك، انتظرتك منذ أن سُرق الإرث.

نظرت إلى الصندوق وتأملته، ان هذا هو إرثه الحقيقي إذن وما يتكلم عنه، لابد أن بداخله سر، أليس هذا الصندوق الذي رفضت أن أعطيه لماهر! تبسم القناني وكأنه قرأ ما يدور بعقلى.

- ما زال أمامك الكثير لتتعلميه يا مريم، لكن تذكرى جيدا أن من أهم أخلاق العالم قل علمه أو كثُر، أن ينفع بعلمه الآخرين، فينقله ويورثه لعم الفائدة، فيعود النفع على الأمة كلها إن شاء الله.

- بماذا تنصحني عند عودتي؟

- انتبهى جيدًا لصُحبتك في دار الدنيا، تعلمى الحذر، واعلمى

أنه لن يستطيع مخلوق أذيتك أو إصلاح حالك إلا بمشيئة الله تعالى، فانفضي الخوف عنك فأنت مع الخالق، وقد كرمك فلا تهيني نفسك بنفسك، كوني مُسبحة حامدة ذاكرة له أينما كنتِ، داومي على الاستغفار فإنه كنز لا يفنى أبدًا وسر عظيم من الأسرار العُليا، وفي كل أحوالكِ استفتِ قلبك يا مريم فإن قلب المؤمن دليله.

- وكيف لي أن ألقاك حينما أريد؟

نظر لي نظرة حانية وابتسم.

- سوف آتي لزيارتك بين الحين والآخر يا عزيزتى، لا تخافي من شيء ورب الكون معنا.

***

(١٠)

استيقظت من نومي في الساعة التاسعة صباحًا، أحسست بسعادة مُتناهية غير مُتناهية مع ما أمر به من أحداث، أمعنت النظر في هاتفي المحمول لأتأكد في أى السنوات نحن مرة أخرى، مازلنا في سنة ٢٠١١ ميلادية وليست ١١٦٦ ميلادية، تأكدت من التقويم القبطى والاسلامى ليطمئن قلبي أكثر، لقد عُدت وقد تمزق قلبي بين هذا وذاك، وكنت أتمنى أن أعيش فيهما وبهما الاثنان معا.

وجدت ياسمين تغُط في نوم عميق عند نهاية أرجل هند، أشفقت على حالتها وهي نائمة في خوف، لا أدري حقًا لماذا لا تتكلم هذه الفتاة مثلما أفعل أنا ولو قليلًا لتخفف عن نفسها، أنا على تمام التأكد أن شيئا بشع قد حدث لها بالأمس، أنا الأقل قدرة على التحمل من ثلاثتهم، يستنكرون الأشياء ويستخفون بها، بل ويستهزئون منها أحيانا أخرى، لكن الأكيد أن هذا العهد قد ولى وها هم يُخفون الأحداث عنى، قُمت من مكاني لأتفقد الصندوق، نظرت له وتحسسته كأني أراه للمرة الأولى وعانقته، جلبت ملاءة من دولابى وغطيته حرصًا على قيمته، أحست بحركتى ياسمين فتململت في نومها فحاولت إفاقتها.

- ياسمين... قومي يا حبيبتي روحي نامي في أوضتك، إحنا الصُبح وأنا صحيت خلاص.

- لأ خليني هنا يا مريم معاكم.

- حصل إيه في أوضتك إمبارح؟

- والنبى حلي عن سمايا دلوقتي وسيبيني أنام.

دق جرس الباب فأسرعت إليه، فتحته فوجدت ليلى أمامي، دخلت مُحملة بنظرة برود غير محتملة، تحمل في يديها شنطة بلاستيكية تفوح منها رائحة طعام شهي.

- إزيكم يا جماعة عاملين إيه؟ والله ماعرفتش أنام من القلق إمبارح.

أجبتها في استهزاء.

- لأ ما هو واضح!

- والله كنت قلقانة جدًا، بس إنتي عارفة يا مريم الشقة مقدرش أقعد فيها لوحدى.

- واكتشفتي دلوقتي إن الشقة متقدريش تقعدي فيها لوحدك؟

نظرت إلى دون أن تجيب سؤالي، ثم دخلت لترى هند وياسمين، ونادت بصوت عالٍ.

- ياللا يا بنات أنا جايبلكم فول وطعمية.

استيقظت ياسمين وهند على صوتها، كان جسد هند المريض يحتاج أن يتغذى بشدة، قامت هند من مضجعها وأسندتها ياسمين على وسادة،

أفسحت ليلى مساحة على سرير هند لتضع الإفطار لنأكل جميعا، أخذت هند تأكل وتعاتبها بالكلام أحيانا وبنظراتها طول الوقت، لم تهتم ياسمين بما يدور بينهم وأخذت تأكل بنهم، بينما أفرغت شدة غيظى فيما أكلت، أمضغ الطعام وأنظر اليها في غيظ غير مُستتر، بينما أنهى طعامى ومع آخر قضمة، تنبهت أني رأيت شيئا يلمع من طرف عيني، تسمرت يدى للحظة وقررت أن أنظر ما هذا فوجدتها ساعة يدى، الساعة التي وضعتها على رف السرير بالأمس قبل أن أنام أرتديها في يدى الآن دون أن ألمسها أو أنظر اليها مرة واحدة! نظرت إلى البنات في صمت وترقب، لاحظتنى ياسمين فسألت.

- في إيه يا مريم؟

- لأ لأ لأ... أنا مش قادرة أعيش هنا، مش هقدر كده، الساعة أنا قلعاها امبارح كالعادة على رف السرير، إيه اللي جابها في إيدي؟ إيه اللي جابها في إيدي؟ اطلعوا بره.. اطلعوا بره.

انتابتنى حالة هستيرية غير مسبوقة، وقعت على الأرض فجأة دون أن أعى وفرغت ما ملأت به معدتى للتو على الأرض، لم أدرك أني لطمت خدودى وقتها وأنا أردد عبارة «ليه أنا بس.. اشمعنى أنا؟» وبحركة تلقائية خلعت الساعة وألقيتها على الأرض، وقفت وأخذت أدوسها بأرجلي في هيستيريا، حتى تكسرت تحت أرجلي لآخر قطعة فهى الآن ممسوسة، هذا ما اعتقدته حينها، وبعد أن انتهيت من تكسيرها غبت عن الوعي.

عندما أفقت كنت قد فقدت إحساسى بالزمن، لا أريد أن أعرف

الوقت، لكن أريد أن أعرف ما هذا الذي يحدث معنا ولماذا؟ حينها وجدت جسدي ملقى على سريري، فتحت عيني لأرى من يختبئ النور خلفه فوجدت ليلى وياسمين ينظران إلى واجمتين مترقبتين لحظة استيقاظي، هند مازالت في حالة إعياء تتابعني من السرير المقابل، لطالما اعتقدت أن غرفتي بأمان، لا أدري حقا لماذا ساورني هذا الاعتقاد وأنا علم يقين أنه كذبة أكذبها على نفسي.

لكنه وحده كان يطمئنني ويعينني على تحمل كل هذا كلما تذكرته، كلما تذكرت كلماته أستعيد قوتي من جديد، كلما رأيت عينيه وصلابة إيمانهما خجلت من ضعفي، سامحني يا شيخي العزيز فسرعان ما تتغلب على أفكاري وأحداث الحاضر بكل آلامها وغموضها.

ياسمين تنظر إلي دون كلام وتمسك بالمصحف مفتوحًا، من الواضح أنها مكثت بجانبي تقرأ القرآن، طلبت مرآة فأعطتها لي ليلى، نظرت في المرآة لأجد وجها شاحبًا أصفر اللون، تغطي الهالات الشديدة السواد جزءًا لا بأس به من محيط عيني، يضرب اللون الأزرق أطراف العين من شدة ارتطامي بالأرض، لم تنبس إحدى البنات بكلمة واحدة فهن متفرجات مذعورات، هذه هي المرة الأولى التي يرونني بهذه الحالة البائسة، كانوا قد اطمئنوا أني بخير على الأقل جسديا الآن، فظلت هند وليلى جالستين تسندان رأسهما على خدهما كأنهما في مأتم بينما تقرأ ياسمين القرآن بصوت خفيض.

هذه أيضا هي المرة الأولى التي نجتمع بها نحن الأربعة في غرفتي لمدة من الزمن لا أعرفها ولم أريد أن أعرفها حينها، فلازالت حالة

الهياج والهيستيريا مستمرة معي، لماذا الساعة تحديدًا بعد ما مررت به من أحداث؟ لماذا بعد رؤيتي الشيخ القنائي؟ هل هناك من يريد أن يذكرني بالوقت؟ لا أدري، هل ما حدث لي حقيقة؟ أيكون اختبارًا لقوة أعصابي؟ لصلابة إيماني؟ أم أنها علامة لأحداث قادمة متعلقة بالزمن؟

- أسترها يا رب.

نطقتها هند في وهن، لكنى صرخت فيهن.

- حد يجيب لي موبايلي.

نظرت كل واحدة على حدة إلى في ذهول، مُتعجبات أسلوبى فصرخت مرة أخرى.

- بسرعة..

قامت ليلى منتفضة فأحضرته إلي.

- خلاص يا مريم أهو أهو..

أحسست من نظراتهن أني قد أُصبت بمرض عقلي، أم أنهم يُقدرون حقًا ما حدث بالفعل أمامهم؟ ظللت أردد في صوت عالٍ جدًا «يا رب.. يا رب.. اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا».

- ألو.. أنت بتاع وصلة الدش؟ إحنا الطلبة اللي ساكنين في بيت «الحجة سعاد»، فاكرنا؟ كنت عملتلنا الوصلة بتاعة الدش، هي قناة القرآن الكريم فيها مشكلة ولا أنت شيلتها ولا حاجة؟

- فاكركم طبعا يا أبلة.. أنا مشيلتش حاجة وقناة القرآن والقنوات الرياضية ثابتين.

- طيب ممكن تيجي عشان الوصلة فيها حاجة؟

- ربع ساعة يا أبلة وأبقى عندك.. يمكن العيب في التليفزيون؟

- لأ.. كل القنوات الأرضية شغالة والفضائية كمان ماعدا القرآن!

- طب يا أبلة أنا جاي.

كانت حالتى النفسية مُنعكسة على مظهري الخارجي بقوة، أبدل ملابسي بسرعة غريبة وكأني في مسابقة سُرعة، أرتدى البيجاما الوحيدة التي لا أعرف لماذا لا أبدلها، أرفع بنطلون البيجاما إلى أقصى ارتفاع ممكن، أضع بداخله الجزء العلوى من البيجاما وكأني أحمي جسدي من شيء لا أعرفه، شعري يرسم دائرة غير متنتظمة معقودة فوق رأسي، ولا أدري لماذا أرتدي حقيبة يدي ذات اليد الطويلة في البيت، معلقة ما بين الكتفين لتصل قريبة من الرُكبة، وأحمل باستمرار سكينًا كنا قد نسيناه خارج المطبخ قبل الأحداث الأخيرة، أعصابي المنفلتة ترافقنى ليلا نهارًا، الأهم من هذا كله أني لم أعد أصلي وخلفت وعدي لنفسي بقراءة سورة البقرة يوميًا، ربما كانت زيارة القنائي تذكرة لي.

لا زالت البنات في حالة ذهول وربما خوف من حالتى، أو على حالتى في أحسن التقديرات، ظلوا ينظرون لي ولا يبدأون الكلام معي أبدًا، نظرات تُوجه لمن فقد عقله حديثًا، أو أنهم ليسوا على تمام التأكد من هذا بعد، نظرات تملؤها الحيرة والشفقة، أنهيت الاتصال الهاتفي مع صاحب المحل لأصرخ في وجوههم.

- شوفتوا.. مفيش مشكلة في الوصلة أهه؟

مرت دقائق من الوقت حسبها أخمن فقطعت ليلى الصمت الشديد.

- أنا معاكوا إن فيه حاجة في الشقة، بس فاضل على الامتحانات أقل من أسبوعين دلوقتي هنروح فين؟ وما تنسوش كل السكنات مليانة.

دق جرس الباب فقامت ليلى لفتحه، ثم اصطحبت صاحب محل الدش إلى مكان التليفزيون، انضممت وياسمين لنرى ما هو عيب التليفزيون، بمجرد أن فتحه ظهرت قناة القرآن الكريم واضحة وضوح الشمس بأحسن صورة وبأحسن صوت، بعد أن تفقد الرجل والوصلات والتركيبات والتليفزيون نظر إلى في ريبة.

- ما هي يا أبلة كل القنوات شغالة.. والقرآن شغال زي الفل، إحنا وصلتنا محدش اشتكى منها الصراحة غيركم!

- طيب شكرا ولو حصل حاجة تاني هكلمك.

أعطاني نظرة مُريبة وانصرف الرجل إلى وجهته، بينما جلست أنا في غرفة الاستقبال في عصبية وترقب شديد، رأيت هند تستند إلى ليلى متجهين لغرفتهما، دخلت ياسمين إلى غرفتها، لم تُغلق الباب، بقيت تقرأ القرآن وتبكي في صمت.

لم أبال بأى منهن، ما يشغلني هو تعاملي مع غير المرئيين، أترى خوفنا وعجزنا مع الجن يأتي من التخفي؟ إنه التخفي بلا أدنى شك الذي يعطيهم القوة والرهبة، لكن ماذا لو رأيناهم؟ هل تزول الرهبة وينمحي الخوف؟

جلست على الكنبة بالخارج وأخذت قرار صعبا فكرت فيه طوال

فترة الأحداث الماضية، سوف أقيم حوارا مع الجن، سوف أتحدث معه لأفهم ماذا يريد بالضبط فيريحنى ويستريح، ألا يتعب من هذه الألاعيب؟ ألا يهتم بشئونه الخاصة ويتركنا نحن الآخرين لشئوننا؟ ما هذا الفراغ؟ أنا لا أملك ما يكفي من الوقت حقا لهذا المزاح السخيف؟ سوف أتكلم معه أو معها أو ربما معهم لا أدرى؟ لكن كيف؟ أنا لا أعرف الطقوس المتبعة؟ سوف أكلمهم بطريقتى، ببساطة.

فجأة سمعت صوتًا غريبًا عننا يندهنى بصوت خفيض، «مريم... يا مريم...»، لا يمكن أن تكون البنات، انهم يغلقون أبواب غرفهم، حتى ياسمين أغلقت بابها منذ دقائق، فكيف أسمعهم وأنا بغرفة الاستقبال؟ للمرة الأولى في حياتى لم أخف ولكن تملكنى إحساس التحدى والعصبية وربما الفضول والثأر معا فصرخت.

- اطلعولى.. اطلعولى.. ياللى هنا... أنا عاوزة أتكلم معاكوا.. اطلعولى نتفاهم.

قلت هذا بينما أنا في طريقى إلى غرفتى مرة أخرى، ثم أكملت بصوت عالٍ.

- انتوا فاكرين إني هخاف؟ لا خلاص زمن وعدى، أنا مبقتش أخاف، أنا معايا ربنا، وكفاية إن اللي أنا معلقاه على الحيطة ده مخوفكم، انتو طبعا أجبن من كده؟

كان صوتي في علو مستمر وأنا أقول هذه الكلمات إلى أن ختمت كلامى بآية الكرسى بصوت عالٍ، لم أعرف من قبل أني أملك هذه الطبقات في حنجرتي، فتحت ياسمين باب غرفتها وجاءت لي باكية.

- بس بقى يا مريم.. بس.. بس.

جلست على سريري أتنهد وأنهج من فرط الإرهاق، ثم نظرت إليها فوجدتها تقول لي بصوت عالٍ غير مبالية وكأنها تريدهن أن يسمعن كلامها وهي تشير باتجاه غرفة هند وليلى.

- أنا مفيش حاجة معكننة عليا قد البلوى اللي جوه دى، عاملة نفسها خايفة وأراهن إنها معاهم أصلا.

كلانا كان يعرف أنها تقصد ليلى، فكثيرا ما وجهت ياسمين أصابع الاتهام نحوها في كثير من المواقف، مرت لحظات حاولت كل منا أن تهدأ نفسها كى نمارس حياتنا الطبيعية، كنت أنظر خلالها للعدم، شاردة متأملة في اللا شيء.

- إنتي مش رايحة الجامعة يا مريم؟

- أنا لا رايحة ولا جاية، أنا عشان معاد القطر ميفوتنيش وإنتي عايزة تيجى معايا تعالى مش عايزة إنتي حرة.

- بس روحى النهارده آخر يوم وخلاص.

جاء ردي في حدة.

- لأ مش هروح.. مش هروح.

ربما أرادتني أن أريح عقلى قليلا لأستريح، إن هيئتى العامة وتصرفاتى لا توحى بالخير على الاطلاق، ولكنى لا أستطيع إلا التفكير فيما يحدث الآن، ونسيت إحساس نفسي المطمئنة إثر زيارتى لفاطمة والقنائى، ظلت هند وليلى بغرفتهما، وياسمين واقفة في غرفتها تارة، ومعي تارة أخرى لا تدرى ماذا تفعل،

احسست بانكسارها نتيجة ما يحدث كما لم أشاهدها من قبل، انتابتنى حالة شديدة من العناد وقتها، ظللت أفتح التليفزيون لتطل على قناة القرآن ويأتينى صوت القرآن مجلجلًا، لا تمر دقيقة ويُطفىء التليفزيون دون أن لمسه! رأت ياسمين المرة الأولى فجزعت وهرولت إلى غرفتها تبكي، بينما لم أيأس ولم أبكى أنا هذه المرة، فتحته مرة ثانية وما أن أسمع صوت القرآن حتى يُطفىء مرة أخرى، وكأن من يفعل هذا بى تتملكه نفس حالة العناد.

فتحت التليفزيون للمرة الثالثة فشاهدت زر لوحة التحكم الخاصة به تطفىء هذه المرة، رأيت الزر وهو ينضغط إلى الأسفل مطفئا الجهاز! أسرعت إلى غرفتى وأحضرت هاتفي المحمول لأشغل ما به من آيات قرآنية، فتحت الهاتف وجاءتنى آيات الله العظيم لمدة دقيقة أحسست خلالها بالانتصار حتى توقف الهاتف ولم يعد يعمل بعد ذلك! نظرت إليه في حدة أكثر عنادًا من ذي قبل وصرخت.

- أنتم فاكرنى كده هستسلم يعنى؟ طب أهو.

ثم أخذت في قراءة آية الكرسى بصوت عالٍ آخذ في التصاعد، سمعت حينها بكاء ياسمين آت من غرفتها في حين فتحت هند وليلى باب غرفتهما وأتوا.

ليلى تنظر إلى في ذهول.

- بس يا مريم.

أردفت هند في تحدى.

- سيبيها يا ليلى.. يا ريت يطلعوا نشوف هما عايزين إيه؟ لو حد طلعلك يا مريم قوليلي أنا قاعدة، ساعتها لو قرينا قرآن هيتحرقوا.

خرجت ياسمين من غرفتها لترد كلام هند.

- لأ يا حبيبتي.. هما قبل ما يتحرقوا إحنا هنكون موتنا من الخضة.

قررت أن أفتح التليفزيون مرة أخرى ليطفئه هو بدوره مرة أخرى أيضًا، ظللت أضربه بعنف وأنا أردد آية الكرسي وضغطت رقم قناة القرآن الكريم ولم ينطفئ مرة ثانية، أحسست للمرة الثانية بالانتصار، ظللت واقفة لدقائق أراقب ما يحدث فلم يحدث شيئًا، إزداد احساسي بزهو الانتصار ومشيت رافعة رأسي متجهة نحو غرفتي.

دخلت غرفتي فوجدت الأربع ورقات اللاتي كنت قد كتبتهم من قبل «الله» و» لا إله إلا الله» و»محمد رسول الله» و»ألا بذكر الله تطمئن القلوب» في وضع مقلوب على الحائط، لقد تركوا الورق مُعلقًا بعد أن قلبوه معكوسًا، إذن لم أنتصر بعد.

وفي أثناء تأملي للجدران التي علقت عليها الورقات إذا بصليب كبير يرتسم بجانبهم أمام عيني بخط قلم رصاص خفيف، تزداد قوة وضوحه تدريجيًا على الجدار، تماما كأني أشاهد رساما يرسم لوحته حتى أتمكن من رؤيتها مُكتملة! كنت في حالة مُزرية من اليأس في هذه اللحظات، وتوقف صوت القرآن بالخارج، فرميت شنطتي على الأرض هي والسكين البلهاء التي أحملها كالمجانين، جلست مكاني على الأرض، وأدركت أن الحوار آت قريبًا جدًا، ولما لا وقد عرضته أنا من قبل؟ وسعيت إليه، كان القرار لابد منه

فقررت أن أتحدث معه، من جلستى اليائسة على الأرض تحشرج صوتى من شدة الخوف، ثم تذكرت نصيحة القنائي لي بعدم الخوف فتشجعت ونطقت وكانت المفاجأة.

- انت مين؟

كُتب على الحائط بخط كأنه رسم «تعرفين من أنا..»، شاهدت ما كُتب وأنا في شرود تام كأننى في كابوس مُفزع.

- بسم الله الرحمن الرحيم.. والله ما أعرف.

كُتب على الحائط «من انتعلتى حذاء زفافها بدون إذن»

سقطت دموعى في صمت وقد أحسست بشئ من الظلم المجهول.

- أنا عمري ما لبست جزمة حد... مش جزمة فرح كمان.

أحسست ببرودة غمرت الغرفة وغمرتنى فجأة، ومرت لحظات سكون لم يُكتب فيها شيء، فجأة طارت كتبي وأوراقي في أرجاء الغرفة، خبأت وجهي داخل كفوف يدي، لحظات مرت كأيام، هدأت العاصفة ثم كُتب بخط كبير عريض ملأ جزء لا بأس به من الحائط ..... «كـاذبـة»!

هذا الذي يحدث أصبح واقعاً، لسنا وحدنا ومن يفعل هذا سوف يظهر بلا شك في مرحلة من المراحل، من السهل عليه أن يتلبس جسدى الضعيف، هذا يسير فأنا لا أصلى ولا أذكر الله في انتظام، ستكون مقاومتى هشة، ولو شاء لتلبسنا جميعًا أنا وياسمين وليلى وهند، أو على الأرجح يتلبس أي جسد منا ويدعها تقتل الباقى في غفلة؟

ما لا أفهمه الآن هل يحتاج كل هذا كى يقتلنا؟ لو أراد ذلك لظهر بصورته الحقيقية لنموت من الخضة كما تقول ياسمين، لا أدرى ولا أفهم شيئًا.

حاولت أن أتشبث بروح «القنائي» التي حاورتنى كالحقيقة، أو ربما كانت حقيقة، بكلماته وما ورائها، ربما تكون حصني المنيع الآن، لابد أن أهزم ضعفي لينتصر إيماني، أين ذهبت مريم المثابرة العنيدة.

لكننى بدلا من أن يحيطنى نور ايمانى، أحاطنى ظلام نفسي ورأيت السواد يملأ داخلي، ويملأ من حولى وما حولى، ولا حول لي ولا قوة، قفز إلى ذهنى عُمر فجأة فأردت أن أكلمه وكأن أعماقي تستغيث به، أخذت هاتفي وذهبت إلى ياسمين في غرفتها.

- ياسمين.. اديني رقم عمر.. أنا عاوزاه.

- ماشى.. أهو

- ألو.. أيوة يا عمر أنا مريم.

- أيوة يا مريم.. مال صوتك؟

حين سأل عن تغير صوتى انفجرت في البكاء.

- مش قادرة أقعد في الشقة يا عمر.

- طب البسى يا مريم وأنا هعدى عليكى.

تبسم وجه ياسمين واقترحت.

- ما تقعدوا مع بعض ربعاية كده وتعدوا عليا؟

هززت رأسي بالموافقة فلا وقت لدى لأشاهد غراميات الآن،

حان وقت المغارب فخرجت أنتظره بالخارج، أتى عمر مُسرعًا شهمًا كعادته، نظر إلى في شفقة وهو ينزل من سيارته.

- إيه ده يا مريم مالك؟ إنتي شايفة شكلك بقى إزاي؟ أنا بقارن بين شكلك أول مرة شفتك فيها ودلوقتى، ده إنتي كنتى أشيك واحدة فيهم، اهدى يا مريم مفيش حاجة مستاهلة.

- عمر.. أنا مش عاوزة أتكلم في الموضوع ده، وبعدين أقولك.. خلاص مش خارجة.

دخلت الشقة مرة أخرى وتركته مثل المجانين، لم أكن في حاجة إلى مزيد من اللوم أو الشكوك، فالموضوح أصبح يقينا الآن لا جدال في ذلك، كانت ياسمين ترتدى ملابسها استعدادا للقاء عمر.

- إيه ده؟ انتوا ما خرجتوش ولا إيه؟

- إحنا أصلا ماتحركناش، أنا مادخلتش العربية أصلا، وهو بره مستنيكى على فكرة.

لم أدرك وقتها تحديدا ماذا أريد.. أردت شيئًا لا أعرفه، أحسست أني تائهة أتلمس خطواتي نحو الأمان في سواد قاتم فلا أرى الطريق.

- أنا ماشية ومش هتأخر خالص وبالمرة أجيب لنا حاجة ناكلها.

- ما تعمليش حسابى يا ياسمين.

لاحظت أن هند بدأت في التقرب الينا مرة أخرى، أو بالأحرى بعد محنتها، سمعتها تتحدث إلى ياسمين وتحكى عن علاقاتها السابقة بعمر وتعتذر انها لم تخبرنا من قبل، لكنها كانت نصيحة ليلى لها بعدم إخبارنا بأى شيء عنها لكي لا نحسدها!

خرجت ياسمين مع عمر وظلت ليلى بغرفتها تذاكر، طلبت من هند أن تجلس معي فأنا لا أريد أن أبقى وحيدة، دخلت هند غرفتي ورأت الصليب المرسوم وما كُتب على الحائط فتسمرت لبرهة في مكانها، أحضرت هند المصحف وظلت تقرأ القرآن بصوت عالٍ، ثم أتت بأدوات النظافة وأخذت تنظف الحائط وتقرأ القرآن وبقيت مكاني أشاهدها متعجبة لجرءتها وبقيت أيضا آثار الرسم والخط الرصاصي قابعين مكانهم، من الجائز أن الرسامة ترانا الآن وتضحك من ضعفنا في سخرية، فعلى الرغم من أن أدوات النظافة كانت حادة وقوية، إلا أن ما على الحائط بقى أقوى، واضحا في تحدٍ، لم نتحدث في أي شيء على الإطلاق ولكني قطعت الصمت.

- بس برضه يا هند انتو أغراب جدًا! هو إنتي خايفة بجد؟ أنا بقيت أخاف منكم ومن برودكم أكتر من الشقة!

تركت هند المصحف جانبًا والتفتت إلى في ثقة كأنها تعلم ما بى مُسبقا.

- بصى يا مريم.. الجن مذكور في القرآن، ووارد جدًا طبعًا يكون فيه حاجة، لأ هو أكيد في حاجة بعد كل اللي مرينا وبنمر به، وكمان وارد تحصل لأي حد على فكرة مش إحنا بس، أمال إحنا ليه رُحنا للشيخ ماهر؟ بس أنا مش بخاف، إنتي متخافيش يا مريم.. دايما قولى «الله أكبر»، الله أكبر من كل حاجة.

كلامها كان منطقيا ومعقول، بالإضافة إلى أن أهل الأقصر معتادون على مثل هذه الأمور، فهمت أني أعقل ما تقول فاستطردت قائلة.

- وإنتي مكبرة الموضوع برضه.

- طيب واللي على الحيطة يا هند دى مش حاجة كبيرة؟

- بس خلاص، فهمت يا مريم، ده يا بت جن مسيحى راكب الشقة، يا اما راكب واحدة فينا؟ مين بقى؟ ده شغلة الشيوخ مش شغلتنا.

رجعت ياسمين مبكرا كما قالت وأحضرت الطعام لكنى لم آكل شيئًا، أحسست بإرهاق شديد، كنت في حاجة إلى نوم عميق أكثر من أي طعام، ولكن كيف أطمئن حتى أنام؟ فنعمة النوم مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بنعمة الأمان، وهي نعمة قد سُلبت مني، والله وحده أعلى وأعلم متى أستردها.

***

(١١)

كانت الساعة الحادية عشرة مساء، تركت باب الغرفة مُواربًا وأغلقت نورها، بينما كان نور غرفة الاستقبال ضاربًا أشعته في غرفتي، كنت أسمع حينها القرآن يُفتح ويُغلق في التليفزيون من تلقاء نفسه بالخارج، وكأن أحدًا يستفزني أو يفتعل مُشاجرة، أو يُعلن عن وجوده فأريني ماذا أنت فاعلة؟ افتعلت البرود حتى يمل، لكنه لم يفعل.

فتحت نور الغرفة من جديد وأحضرت شنطة صغيرة وضعت فيها بعض الملابس القليلة فغدا سوف أسافر إلى أسوان لا محالة، كانت هند منشغلة بشيء ما فظلت تجيء وتذهب أمام غرفتي طوال الوقت، ليل ما زالت تذاكر في غرفتها، بينما يصلني صوت ياسمين تتحدث في التليفون مع عمر، أغلقت نور الغرفة مرة ثانية وفتحت شباك غرفتي كي أشعر بونس الشارع رغم هدوئه إلا من عابر أو اثنين كل دقائق معدودة.

وفجأة توقف صوت القرآن ولم يفتح مرة ثانية وسمعت صوت المطبخ المعتاد، أحد ما يبحث عن أدوات المطبخ في صوت عالٍ فيقرع بعضهم ببعض ويفتح ويغلق الأدراج في عصبية، صوت الثلاجة يُفتح، صوت الأكياس التي بداخلها، الزيت المغلي، وصوت

التحمير «تششششش» ليتصاعد الدخان إلى خارج المطبخ فيملأ غرفة الاستقبال برائحة الدجاج المقلي، ومنها إلى غرفنا واحدة تلو الأخرى، هذا الفيلم السخيف لن ينتهي، لكنى سوف أنهيه على الأقل مع نفسي عندما أسافر غدًا.

تمددت على سريري على الضوء الخافت القادم من الخارج، فرأيت خيالًا أسود يقوم ويتشكل من الأرض إلى أن أصبح رجلا نحيف جدًا طويل جدًا يقف عند ركن الغرفة! أخذت أفرك عينى فرأيته محددًا بقوة، رأسه تنظر باتجاه باب الغرفة ثم التفتت رأسه نحوي لثوانٍ، واتجه خارجًا من باب الغرفة المُوارب دون فتحه ونفذ منه للخارج، أحسست قلبي قد عجز عن الخفقان وأنني أمُر بحالة لا وعي أو هذيان فهذا الذي أراه مستحيلًا، ثم أقنعت نفسي أنه شيء من الهذيان.

بعد دقائق قليلة جاءني صوت كعب عال يدق الأرض في انتظام، بالتأكيد ليست هند؟ أم أن عمر قد أتى مرة أخرى ليقابل ياسمين؟ لا أحد منا يخرج في مثل هذا التوقيت من الليل، استجمعت ما تبقى من قوة وخرجت لأرى من من البنات التي سوف تخرج الآن ولماذا، فربما حدث شيئًا لا يُحتمل معها، ليلى وهند بغرفتهم وياسمين لازالت تتشاجر مع عمر في الهاتف.

دخلت غرفتي وأغلقت بابها، ونظرت من مكان المفتاح، انضم صوت آخر لكن كأنه حذاء رجل، وبدا كأنه يلاحق صاحبة الكعب العالي، لازلت أسمع صوت الكعب العالي والحذاء الرجالي مع اقتراب ظل نحو غرفتي، وسمعت صوت ضحكة لامرأة! ضحكة

عالية! وفجأة سكتت الأصوات كلها وأظلم مكان المفتاح الموجود في الباب، إنها بالخارج... أمام باب غرفتي مباشرة!

كتمت أنفاسي من شدة الخوف ولم أستطع الوقوف أكثر من هذا ولكن جسدي التصق بالباب، كنت في شدة الرعب من أن أتركه فيدخل أو تدخل وكأن الباب هو المانع وقد رأيت بعيني من نفذ منه منذ قليل؟ كان حقيقة ولم يكن هذا هذيانًا!

تذكرت حديث هند الأخير فرددت بصوت يريد أن يعلو «الله أكبر.. الله أكبر» فبدأ صوت الكعب يذهب بعيدا وبدأ النور يأتي تدريجيا من مكان مفتاح باب الغرفة، ثم سمعت من تنتعل الكعب تتجول بكل حرية في غرفة الاستقبال والمطبخ، تجيء وتذهب كيفما تشاء، ظللت أنظر من مكان المفتاح فلم أستطيع تحديد شكله أو شكلها، فقط خيالات تمر، وأصوات الأرجل، الرجل والمرأة واضحة وقوية ومسموعة، تارة تقف وتارة يلاحقها الرجل، كأنه يهدئها أو يعنفها لا أدري، صوت ضحكات خافت وعالٍ، مرت الدقائق كسنوات ثم اقترب الصوت مرة ثانية، واختفى النور تدريجيًا إلى أن وقف أمام باب الغرفة مرة أخرى، فتذكرت، حديث هند وكيف أن آية الكرسى تحرقهم فهممت أن أقرأها بصوت عالٍ.. «بسم الله الرحمن الرحيم... الله... الله.. الله...»، ماذا حدث لي؟ لقد نسيتها! كيف أنساها؟ «بسم الله الرحمن الرحيم.. الله لا إله.. الله.. الله..» لا أستطيع أن أتذكرها! يعلو صوت الضحكات، ماذا أفعل الآن؟ «الله أكبر.. الله أكبر».. يجرى الكعب مسرعا إلى الخارج ويأتينى النور وتسكت الضحكات. أصمت فيأتيني الصوت والظل تدريجيًا

مقتربًا، «الله أكبر.. الله أكبر» فيجرى الصوت مرة أخرى يتبعه الظل، يأتي صوت الكعب متأنيًا هذه المرة لا أعلم لماذا أتخيله يحمل سكينا لذبحى؟

تخيلات من وحي الطفولة لو كان يريد قتلى لجعلنى أفعلها بنفسى، يقترب الصوت أكثر في تحدى..آه.. لقد تذكرت « بسم الله الرحمن الرحيم.. ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم»! لكن هذا الجزء الأخير من الآية فقط، ماذا حدث لي؟

يجرى الصوت فأسمع صوت الحذاء الرجالي يمشى في ثقة، والكعب يجرى ثم صوت كأنه كعبلة ويقع شيئا ما على الأرض!

تذكرت هدية عمر السلسلة الفضة التى تحمل آية الكرسى لكي أقرأها، لكنها في الدولاب وأنا مازلت ملتصقة بالباب لا أقوى على تركه، فلا أنا قادرة على الخروج منه ولا أنا قادرة على التجول داخل الغرفة.

اقترب الصوت والظل مرة أخرى مسرعين نحو باب الغرفة.. هب هواء بارد فجأة نحو الباب كأنه يدفعه! عندها عرفت أني هالكة لا محالة فقررت أن أردد الشهادة: «أشهد أن..لا...اله...إلا الله... وأشهد أن...محمدا...رسول... الله»، كنت أتلعثم وكأننى أتعلم النطق حديثا! كيف؟ لا أعرف!

تذكرت حديث هند للمرة الثالثة «لو حد طلعلك نادينى»، كان الهاتف قريب منى لحسن الحظ فأخذته، بينما أقلب في الأرقام أتانى الصوت مسرعا هذه المرة فرددت الشهادة في تلعثم فسمعت صوت الكعب يجرى، وهكذا كلما أبحث عن هند في التليفون يأتينى الصوت،

أردد الشهادة فيجرى الصوت، إلى أن اتصلت بياسمين بدلا من هند لا أدرى لماذا؟ ربما لن أحتمل مشهد الحوار بينهما وبين هند حقيقة مثلما كنت أدعى شجاعة محاثتهما؟ مهلا، أنا التي أردت هذا من البداية! ألم أقل لهما إني أريد أن أتفاهم معهما؟ ها هم قد أتوا لي، ماذا أريد؟ ما طلبته يتحقق الآن!

أنا التي أحضرتهم إلى هنا بفجاجة وجهل وعلى أن أعالج الأمر بحكمة، لكن من أين تأتى الحكمة الآن؟ الحكمة والخوف لا يجتمعان.

- ألو.. ياسمين... تعالي بسرعة بسرعة.

لم أعطها فرصة للرد، أغلقت الخط وأنا أردد الشهادة في تلعثم، جاءت إلى ياسمين وقد غطى وجهها الغضب والحمرة معا، أتت ياسمين في أقل من دقيقتين وكان من الواضح أنها لم تمر بأى مما مررت به أنا.

- عمر ده زفت وشكاك جدًا.

- ياسمين.. هما شكلهم جايين عندى الأوضة.

- إيه؟ جايين عندك الأوضة؟ إنتي شكلك عامل كده ليه؟

- أنا مش هاحكيلك.. اسمعي إنتي بنفسك.

مرت ربع ساعة دون أن يأتي أحدا، لكن الكعب العالى والضحكات بدأت في الاقتراب من جديد مرة ثانية، ما أن سمعت ياسمين ما يحدث مختلطاً برائحة الدجاج المقلى الآتى من المطبخ حتى امتقع وجهها خوفا وأخذت تردد بصوت عالى «يا لطيف يا لطيف..

الله أكبر الله أكبر» فيجرى صوت الكعب مبتعدًا مرة أخرى كما كان يفعل معي، الحمد الله أنها تمر بنفس التجربة لئلا يقولون أني أفتعل وأضخم الأمور، ثم سمعنا صوت الحذاء الرجالى يلحق بها كالعادة، كان وجهى يغطيه عرقًا يكفي لملأ الغرفة بأكملها، حاولت جاهدة أن أقرأ آية الكرسى لكن حالتى كانت في تدهور مستمر.

- اسمها إيه يا ياسمين الآية اللي كنت باقراها؟ اسمها إيه بسرعة؟ اللي ادهانى عمر؟

لم تجبنى فقد كانت منشغلة بترديد «يا لطيف يا لطيف.. الله أكبر الله أكبر» ليجري صوت الكعب الآخذ في الاقتراب والبعد مصاحبا ظله معه، وفجأة وأنا أحدثها رأيتني أرتدي ساعتي الثانية التي كالعادة أضعها على رف السرير! في هذه الحالة أحسست أني اعتدت بعض الأشياء التي كنت أنهار بحدوثها سابقا، ربما فقدت شيئا من الخوف برغم تبولى اللاإرادي في أوقات صعبة مررت بها، أو فقدت جزء من احساسى وربما عقلى، نظرت إلى الساعة وقلت في هيستيريا.

- أهلا وسهلا.. إنتي هنا؟ طيب كويس كنت هاشيل همك لو نسيتك.

علقت ياسمين في تعجب.

- بس يا ظريفة مش وقتك خالص.

كانت ياسمين تقف ملتصقة بالباب مثلي تمامًا تتنصت تارة وتنظر من مكان مفتاح الباب تارة أخرى، لكن وجودها بجانبي أعطاني شيئًا من الاطمئنان، تصنتت آخر مرة ثم زفرت نفسًا عميقا.

- بقولك إيه.

- إيه؟

- الصوت راح.

***

«إلى أسوان»

لا أعرف كم من الوقت مضى ليلتها ليأتى الصباح، فقط استمريت في الدعاء «يارب طلع نورك.. يا رب طلع الصبح» إلى أن جاءنى صوت آذان الفجر عذبًا شافيًا، لكنى مازلت لا أجرؤ على الخروج في مثل هذه العتمة لابد أن أنتظر النور، عندها وجدت ليلى حاملة حقيبتها، وياسمين تحضر باقى الأشياء المهمة التي سوف تأخذها هي الأخرى، سبقت كلمات ليلى.

- أنا هروح عند قرايب جوز أختى.

فعقبت هند بملامح تكسوها الهزال والارهاق.

- أنا كمان هروح عشان محتاجة راحة وغذا.

ارتديت ملابسى في عجالة بعد أن رتبت الصندوق الخشبي بما فيه وما استطعت حمله من حاجياتى بجانب باب الشقة، الأولوية عندى للصندوق وان لم آخذ شيئا من حاجياتى، وذهبت أخيرا إلى موقف تجتمع فيه أصناف السيارات الأجرة فلن أحتمل أن أنتظر ميعاد القطار، لا أحبذ ركوب الميكروباص العادى لما أراه من حوادث يومية على الطريق، سوف أبحث عن سيارة أجرة مخصوص، تقلنى

أنا وياسمين من البيت إلى أسوان لكثرة ما نحمله من أمتعة لكنى لم أجد بعد عدة محاولات، نظرت حائرة إلى الأرض فجاءنى شاب ينظر إلى وكأنه يعرفنى..

- صباح الخير.. هو في مشكلة ولا إيه؟

- حضرتك مين؟

- شكلك مش واخدة بالك منى، أنا الدكتور اللي كان هيعالج صاحبتك في المستشفى العام، مش حضرتك أخت الظابط اللي اتخانق معانا؟

جاء صوت أحد السائقين جهورًا.

- يا أبلة لو عايزة تروحي أسوان دلوقتي مش هينفع، لازم تستنى إحنا بنكلملك سواق معاه عربية بيجو يوديكي مخصوص، بس استنيه بقى.

- أنا هروح أسوان النهارده يعني هروح أسوان النهارده.

تدخل الطبيب مرة أخرى.

- هو إنتي من أسوان؟ أنا من أسوان على فكرة.

- أووووف.

- هي صاحبتك العيانة عاملة إيه؟ على فكرة إنتي كمان شكلك عيان قوي! هو في حاجة؟

كنت قد سئمت هؤلاء المتطفلين الجهازين، بعد أن أرهقنى تطفله، أشرت إلى تاكسى عائدة إلى الشقة، يبدو أن خطتى فاشلة في ايجاد ما

يريحنا حتى ولو كانت سيارة أجرة، رأيت البوابة الحديدية مفتوحة على غير العادة وهند وياسمين جالسين على السلم ينتظرونى حاملين حقائبهم وحقيبتى التي كنت قد أعددتها بجانبها الصندوق الخشبى، تبكي ياسمين بكاء حارًا رافضة الكلام، حاولت أن أعرف وقد أخذتنى حالة موقفهم.

- إيه ده يا بنات؟ إيه اللي حصل؟

ياسمين تبكي في هلع، بينما كسا وجه هند اصفرار ووجوم لم أعهدهما من قبل، تمتمت الأخيرة.

- لا إله إلا الله.. ياللا ياللا عشان هيثم مستنيني.

سألتها بتلقائية.

- هيثم! هو انتو مش سيبتوا بعض؟

- مش وقته مش وقته.. ياللا سلام، خدي ياسمين وامشوا.

انهارت ياسمين ترجونى أن نرحل.

- ياللا يا مريم من هنا.. نروح المحطة نقعد فيها.

- نقعد فيها من دلوقتى؟

ظلت تبكي دون توقف.

- آه.. ده آامن مكان... ياللا..

- طب فين بقية حاجتي.. شاحن الموبايل وال..

قاطعتنى ياسمين في حدة غير مسبوقة.

- أنا مش داخلة تاني الشقة دى!

- إيه اللي حصل؟

قالتها هند مُسرعة.

- أنا ماشية يا بنات.. ياسمين هتقولك.

- إيه اللي حصل يا ياسمين؟

ظلت تبكي ولم تجب هذا السؤال إلى الآن!

كانت الساعة الثانية ظهرا عندما وصلنا إلى محطة القطار، ما هي إلا دقائق قليلة حتى رأيت عمر يقترب منا ينظر إلى ياسمين في غضب شديد، يتكلم بصوت عالٍ.

- هو إنتي فاكرة هيخيل عليا الفيلم العربى ده؟ أنا عمر الشافعي.. إنتي تنزلي من ورايا يا ياسمين؟ إنتي فاكرة إني مش هعرف؟ الفيلم ده تشغليه لحد تاني.. قال جن وعفاريت قال؟

لم تجبيه ياسمين، كأنه لم يأتِ من الأساس، نظر جميع من سمعوا حديثه بالمحطة الينا في فضول، منصتين لباقى القصة، فنهرته.

- بس يا عمر.. وطى صوتك بس.

- بس إنتي يا مريم.. طلعي نفسك بره الموضوع ده خالص، جن إيه يا بنت الناس، ده انتو تجننوا بلد.

- خلاص والنبي يا عمر وطي صوتك.

- لا يا مريم إنتي ماتعرفيش، أنا مش عارف إيه اللي مشاها مع الأشكال دى، التلاتة بيكلمونى في وقت واحد.. التلاتة! الست هند بتاعة الجن دى بعد ما رجعت من المستشفي فضلت تكلمنى وأنا

مابردش عشان خاطرها، والتالتة اللي اسمها ليلى مابطلتش رسم من أول يوم، وأنا مطنش وفي الآخر تصرفاتها غريبة، وتبكي لي كل يوم قال إيه الجن أكل أكلي وخزعبلات!

استمريت في تهدئة عمر إلى أن تركنا وانصرف، بعد أن سمع جميع الركاب قصتنا، واستمرت ياسمين في تجاهلها وكأنه يتحدث إلى شخص آخر غيرها.

ركبنا القطار أخيرا وتعاهدنا أننا لن نخبر أهلنا بما حدث، وسوف نذهب سويا لشيخ من أسوان نعرفه موثوق فيه.

* * *

(١٢)

وصلت البيت في تمام الساعة الثانية عشر صباحاً، كانت جدتى تلازم أمى في فترة الحداد على أبى في هذه الأثناء، فتحت جدتى الباب، دققت النظر لتعرف من الطارق، استبينت حفيدتها ففزعت، من نظرتها أدركت أننى قد تبدلت، فلم أعد أذكر على أي شكل كنت قبل ذلك، فقدت خمسة عشر كيلو جرامات من وزنى في خمسة عشر يوماً فقط! وجهي مصبوغ باللون الأصفر والأسود معا، لم أستحم منذ أن إحتدت الأحداث في الشقة، لم أكن أجرؤ لأفعلها، عيناى زائغتان شاردتان طوال الوقت، لم أكن أعير أي شيء أي انتباه فقد كنت دائمة التفكير فيما حدث.

يُفتح باب بيتى بأسوان.. توجد غرفة الاستقبال التي تتكون من طقم صالون على اليمين وكرسيان تتوسطهما منضدة صغيرة عليها أباجورة وبعض الصور الفوتوغرافية، ومنضدة سفرة أمامه على جهة الشمال يتوسطهم تليفزيون على منضدة صغيرة، تملأ حوائط غرفة الاستقبال صور آثار النوبة القديمة والمعابد الفرعونية داخل براويز زجاجية، في مواجهة الباب ممر طول على يمينه المطبخ أولا ثم الحمام ثانيًا، وعلى الشمال تقع غرفة أخي الشاغرة لظروف لعمله خارج أسوان، ثم غرفتي أنا وريهام وفي آخر الممر غرفة والدتى التي

تتشاركها مع جدتي الآن، نظرت جدتي في لهفة وقالت بلهجة نوبية أصيلة.

- إيه يا بتي مالك؟ وايه اللي جابك دلوقت؟ وإيه الصندوق اللي شايلاه ده؟

لم أجيب تساؤلاتها، كنت في شدة الإرهاق وما أحتاجه حقا الآن هو النوم، استيقظت أمى وريهام على صوت جدتى، ألقيت سلاما باردا واتجهت إلى غرفتى مباشرة، نظرت إلى ريهام وكأنها تتفحص شخصًا غريبًا عنها ثم أردفت.

- شكلك...

- خاسة مش كده؟

- بصراحة شكلك زي..

وصلت بيتي أخيرا ووصل القلق إليهم، لم يناموا ليلتها، يأتينى صوت جدتى وهي تحُث أمى على معرفة ما لحق بى من ضرر، تحدثها بصوت عالٍ تظن أنه وشوشة، انها على يقين أننى أصابنى مكروه، وتريد أن تعرف ما هو، ظلت تردد ما تقوله لأمى.

- قومى شوفي بتك... البت مش عاجبانى..

بعد أن تأملت غرفتى التي اشتقت إليها كثيرًا، بدأت أخلع ملابسى في أمان، دخلت أمى فجأة وأنا أُبدل ملابسي، فشهقت وصرخت.

- إيه يا بت الخرابيش والتعاوير والكدمات اللي مالية جسمك

دى؟ كأنك مضروبة علقة! وايه اللي جابك دلوقت؟ وشكلك عامل كده ليه؟

نظرت إليها وأجبت في برود من شدة الإرهاق.

- مفيش.

استفذ برود أعصابى أمى فضربتنى في كتفي ودفعتنى إلى الخلف في غيظ.

- انطقى يا بت إيه اللي عمل فيكى كده؟ إنتي هتفضلى طول عمرك كده مجننانى؟

كانت ريهام تعض على أصابعها في خوف وهي تنظر لي، ولأول مرة أحسست أن خوفها منى أنا، تركتنى أمى الآن وذهبت إلى جدتى، فعاد صوتها يُكرر الكلمات على أمى.

- شفتى بتك؟ إيه يا ربى اللي بيحصلنا ده؟ هاتولى الموبايل أكلم العطار يعملنا «كناسة عطار».

أردفت أمى.

- يا ماما بخور إيه دلوقتى الساعة داخلة على واحدة بعد نص الليل!

رغم صعوبة الأيام وما مررت به، إلا أننى كنت في سعادة غامرة هذه الليلة، أحسست بالأمان يغمرنى وسط أهلى وبين أحضان جدران بيتى، ها أنا أدخل الحمام لأستحم أخيرًا، لكن ما هذه الكدمات التي رأتها أمى؟ نظرت في المرآة وتأملت جسدى، فإذا بى أرى كثيرًا من الجروح الحديثة وكأنني ضُربت بسوط

لأيام متتالية! متى حدث لي هذا؟ لم أرى هذه الأسواط والجروح على جسدى بما أننى لم أستحم منذ أيام، ولم أكن لأتأمله أبداً وأنا أبدل ملابسى بسرعة البرق في قنا، لكِ كل العُذر يا أمى، ولها كل الحق في قلقها فقد تفاجأت أنا مثلها تمامًا، انتهيت من الاستحمام في ساعتين، وقفت تحت المياه وأغمضت عينى في سلام.

لا أصدق يقينا أننى الآن في بيتى، لعلى أحلم؟ سوف نرى. فقط ليتهم يكفوا عن الأسئلة الليلة، أريد أن أنام.. أريد أن أغلق عينى دون قلق، هل هذا بالأمر العسير؟ أخذتنى نفسي بعيدًا متسائلة: «ياه.. أخيرًا أنا في بيتنا؟ لا هييجى صوت الكعب العالي، ولا الصور هتتقلب ولا صور تترسم، وناس تتقلب ناس تانية، ولا ساعتى هتيجى في إيدي ولا التحمير بالليل يشتغل، الحمد لله، دى أول خطوات التخلص من الأذى لو كان العيب فيا، او حتى لو كنت اتلبست ولا كنت ممسوسة، البيت آمن وأنا جنب أهلى اللي ما يعرفوش حاجة غير ربنا».

خرجت من الحمام إلى غرفتى، فوجدت أمى تحاصر ريهام بأسئلتها في حين تردد الأخيرة «والله يا ماما ماعرفش»، أمسكت أمى بهاتفها المحمول بعدها.

- ألو أيوه يا ياسمين.. بقولك مريم مالها؟

- ....

- بتضحكي عليا يا ياسمين؟ هو أنا مش هعرف بنتي؟

صرخت غاضبة.

- إيه يا ماما بتكلمي الناس ليه؟ عايزة تفضحيني؟ في إيه؟ مالي يعني؟ لو سمحتوا اطلعوا بره بقى عشان أنا عاوزة أنام وتعبانة مش فاضية للحوارات دي.

- مفيش نوم إلا ما تقوليلي مالك خاسة كده ليه وإيه اللي في جسمك ده؟

- مافيش يا ماما، اتصلي بمازن اسأليه قد إيه إحنا مطحونين في المواد؟

لم تقتنع أمي، نظرت في غضب وقلق وخرجت، كانت ريهام ثابتة على نظرة الخوف المتفجرة من عينيها ولا تتكلم، كان ما يشغلنى وقتها هو شعورى بالأمان فقط، أريد أن انام، نظرت إلى بيتى وغرفتى وكأننى في حلم، تتكون غرفتنا من سريرين في مُقابل بابها، يتوسطهما منضدة مستطيلة عليها أباجورة وبعض صورنا، كتب تقرأها ريهام قبل النوم، فوقها شباك ودائمًا يتوسطها المُصحف الشريف، على يمين الغرفة وعلى يسارها دولاب دائرى كبير، عليه عدة مرايا من الخارج نستخدمها أنا وريهام وقت الزينة، لم أتخيل بعد كل ما عانيته أن أصل إلى بيتى مرة أخرى، أخيرًا تكلمت ريهام ولكن بصوت ضعيف خائف.

- هو إنتي شكلك عامل كده ليه؟

نظرت إلى احدى المرايا المعلقة في الدولاب، فوجدت وجه يشبه الوجه الآدمى لونه أصفر، يغطى عيناى الجاحظتين من جميع الاتجاهات هالات سوداء عظيمة، يخيل اليك أن «نن العين»

أصبح أعلى من جفونها، عينين فيهم من الغموض المُرعب ما يكفي لاثارة شكوك ريهام وامى وجدتى وأى انسان يرانى، أضف إلى ذلك آثار الضرب والخرابيش المتناثرة بقوة وكثرة على جسدى، جزعت من شكلى، لكنى تجاوزت الأمر من أجل ساعات نوم أتمناها بقوة.

استجديت النوم بعدما أطفئت ريهام اضاءة الأباجور لكنى لم أستطيع، استمر عقلى يسألنى «هو ممكن أكون أنا السبب إني أجيبلهم الحاجات دى هنا البيت؟»، جفلت عينى لدقائق فأتانى صوت جدتى عاليًا والتى تحسبه هى منخفضًا كعادتها..

- قومى يا بنتى شوفي بتك، إنتي هتنامى وتسيبى بتك كده؟ إنتي مسمعتيش كلامى من الأول، هم البنات ليهم غربة؟ حد يسيب الجامعات الخاصة ويروح لتعليم الحكومة؟ البنات ماتتسترش في الغربة، البت مالهاش غربة.

كان حديث جدتى وأمى التي كان صوتها منخفضا بحق يدور حول شكهم ان ما حدث لي بسبب علاقة غرامية! أردت أن أسرد لهم قصتى، آلام لا تتوقعونها ولا تحسبون لها حسابات، وأخيرًا علا صوت أمى باكيًا.

- يعنى أعمل إيه بس يا ماما؟

- قومي جيبى بتك تنام هنا وتقولنا مالها، تلاقي واد ضحك على عقلها ولا أخد فلوسها ولا عملها مصيبة! أمال البنات بينضحك على عقلهم إزاي يا ختي؟

- استرها يا رب، استرها يا رب.

«استرها يا رب» كانت آخر ما سمعته في هذه الليلة، وقدر الله لي ان أنام من الوقت عددا من الساعات، قليلة كانت أو كثيرة، لا أبالي، المهم أننى أستعيد احساسى بالأمان مرة أخرى الآن، أحمد الله اللطيف بعباده.



(١٣)

الساعة السابعة والنصف صباحًا من صباح يوم جديد. قامت ريهام تصلي قبل أن تذهب لعملها. جاءت أمي وجدتي وفتحوا مفتاح النور وشباك الغرفة سويًا وأخذوا في إيقاظي بالقوة، تظاهرت أني نائمة ولكن باءت محاولتي بالفشل.

استيقظت فوجدت جدتي تجلس مستندة على عصاها في آخر طرف السرير وأمي بجانبي صامتة.

- قومي اصحي قولي لي مالك؟

- ماليش.

- انطقي قولي يا مريم.

- ماليش.

نغزتني جدتي بعصاها في غيظ وصاحت هي الأخرى.

- انطقي يا بت قولي قامت قيامتك.

كانت ريهام تتزين في مرآة الحمام وهي تتابع ما يحدث وتنظر إلي نظرة ذات مغزى إلى أن فاض بها فأتت إلينا.

- ما تقولي يا مريم بقى.. ساكتة ليه؟

كنت أحترم وعدي لياسمين ونحن في طريق عودتنا بعدم التحدث عن شيء، لكني استسلمت إلى إلحاح أمي وجدتي، وتحفيز شقيقتي بالإفصاح، فبدأت أقص عليهم ما حدث، أحداث غير متابعة، إنما شيء من هنا وشيء من هناك من الذاكرة المتاحة، لم أكن أجرؤ على ذكر سفري إلى «الدجال ماهر» لكني ذكرت انقطاعي عن الصلاة والذكر وقراءة القرآن، تبدلت ملامح أمي تمامًا، فلابد أنها كانت مهيأة لرواية الولد الذي غرر بي كما ظنت جدتي، لكن ما تعرفه الآن أخطر على ما أظن، تجمد وجه أمي على ملامح اللاشيء، عينيها مفتوحتين عن آخرهما، تنهمر دموعها في صمت كأنها شلال لا ينقطع، بينما خلعت جدتي نظارتها من فوق أعينها وتركت عصاها جانبًا وأخذت تنظر لي في ذهول! ما أن انتهيت من حديثي حتى جذبتني جدتي من ذراعي بقوة تجاه الحمام.

- اتوضي.. اتوضي يا مريم.

دخلنا الحمام سويا، فتحت جدتي النور، ثم فتحت صنبور المياه وأخذت تمسح بيديها في كل مكان في جسدي بالماء في كل ركن من أركان الوضوء وهي تسمي، إلى أن حان آخر أركان الوضوء الخاص بالأرجل، فأحسست بأن جسدي يستقر فوق جبلين لا يطيعان إرادتي، راودتني ذكرياتي مع الوضوء في «قنا» فبكيت بصوت عالٍ، أجزم أنه أفزع أمي التي لازالت تبكي بالخارج.

- مش قادرة.. رجلي كأنهم مربوطين بحديد يا تيتة.

- استعيذي بالله وارفعي رجلك يا بتي، دول ماسكينك.

قاومت لأرفع رجلى الثانية، نظرت إلى أمى التي كانت واقفة تبكي في صمت وذهول، كأنها تحضر فيلم كئيب، جلست جدتى وأمى على سريرى مهمومين، ارتديت اسدال الصلاة واتخذت اتجاه القبلة في الاتجاه المعاكس لهما، أعطيتهم ظهرى وأقمت الصلاة، انتهيت من صلاتى وسلمت، التفت إليهم فوجدت الرعب والدهشة قد ملأت وجوههم وأعينهم فزع!

ظلوا هكذا ذاهلين مُحدقين في وجهي، بحركة تلقائية لطمت أمى وجهها وهي تتفحص وجهي، بينما أحسست بجدتى خائفة من شيء في وجهي، استدرت ونظرت إلى المرآة، فوجدت دماء ساخنة قد غطت وجهي كله! دماء طازجة كأنها آتية من مخلوق ذُبح للتو!

دماء ذات رائحة نتنة، لم أصدق ما أرى، أخذت مناديل ورقية وأخذت أمسحه حتى أتمكن من رؤية عينى، وأحدد الاتجاه الذي يأتي منه؟ بقيت أزيله في جنون حتى أعرف مصدره، ربما نزيف مفاجئ بأنفي؟ لكن اذا كان كذلك كيف وصل إلى جبهتى وجميع وجهى؟ وكيف سالت هذه الكمية الغزيرة؟ وما هذه الرائحة الكريهة؟ نظرت إلى سجادة الصلاة فلم أجد أثرا لبقعة واحدة من الدماء، اذن فقد جاء في لحظات التسليم من الصلاة! هل هذا معقول؟ صرخت أمى.

- قومى بسرعة إغسلى النجاسة دى.. ريحته وحشة.

أمسكت جدتى بهاتفها حينها.

- ألو.. أيو يا شيخ، أنت مش عارفنى؟ تعالى الحقنى، تعالى الحق أختك، بت بتك يا شيخ، راكبها الجماعة، أيوه أيوه.. لابسنها

الجماعة.. لأ.. لأ.. مش بالليل تجيلها دلوقتي، دي بتنزل دم وتقيلة على الصلاة.

انهت المكالمة مع الشيخ ثم نظرت لنا تطمئننا.

- خلاص الشيخ جاي دلوقتي.

حاولت أمي الاتصال بياسمين فلم تجبها، فاتصلت بأخواتها الأكبر «يسرا» و«هبه» وقصت عليهما كل شيء.

تأخر الشيخ كثيرا على موعده، فاتصلت جدتي به كثيرا تحثه على أن يُعجل، ثم أدارت جهاز الكاسيت لنستمع إلى سورة البقرة، احسست كهرباء تسري في أذني وجسدي عند بدأ التلاوة، تؤلمني إيلاما شديدا لا أتحمله، سددت أذني في ظل مراقبة جدتي، صرخت فيهم.

- وطوا الصوت ده شوية.

أكدت جدتي في ثقة.

- أهو...شفتي؟ أهو اللي راكبك ده هو اللي مش عاوزك تسمعيه ولا تصلي، قاوميه يا مريم.. قاوميه.

كنت مُمدة على فراشي، تجلس جدتي بجانبي ممسكة بيدي طوال الوقت، تقرأ القرآن، للمرة الأولى في حياتي لا أريد سماع القرآن، من شدة ألم الكهرباء التي احسستها في أذني وفي رأسي! أبدًا لم أُصدق هذه القصص من قبل، لم أفهم معنى لها، والآن أختبرها بنفسي، لا أدرى هل ما تعتقده جدتي حقيقة؟ تجيء أمي للأطمئنان فأنظر إلى عينيها الحزينة وأشعر بالذنب تجاهها، ألا يكفيني حزنها على فُراق والدي؟

الآن أزيد من همومها، تولت جدتى مهمة وضوئى عند كل صلاة، عادت ريهام من عملها مع اقتراب صلاة المغرب، وسمعت عتاب أمى لها على عدم اخبارهم بما حدث، فاعتذرت ريهام مبررة أنها كانت قد وعدتنى بعدم التحدث في هذا الشأن إلى أن أعود إلى أسوان.

بعد أن انتهيت من صلاة المغرب مباشرة رن جرس الباب، فتحت أمى الباب ورحبت بالشيخ، ثم اتصلت بيسرا وهبه للمجئ مصطحبين ياسمين معهم، بعد دقائق حضر الجميع، جلسوا جميعًا في صالة الاستقبال فارتديت ملابسى وخرجت إليهم مع جدتى التي كنت استند اليها بدلًا من أن تستند هي إلى.

جلس الشيخ في المنتصف نحوطه نحن من كل الجوانب، جلست أمى أمامه بنفس حالة الصباح ذاهلة دامعة صامتة، كنت أنظر إلى الجميع وأتجاوزها كى لا أزيد احساسى بالذنب، هبه وجدتى وأنا نجلس على صف واحد، ويسرا على كرسى منفصل، بينما كانت ياسمين تجلس على يسار الشيخ، فكرت أن أبعث برسالة لها كى لا تبوح بقصة ماهر ولا أي شيء يتعلق به، نظرت إلى يديها فوجدتها لا تحمل هاتفها معها فوجمت، لم تتحرك ريهام من غرفتها، قطع صوت أمى الصمت.

- أهلا يا شيخ، دول بقي..

قاطعها الشيخ.

- ثوانى.

بدأ في قراءة سورة البقرة حتى انتهى من الجزء الأول منها، ثم نظر الينا في عطف صادق.

- مالكم يا بابا؟

أرادت أمي أن تتحدث نيابة عنا فقاطعها برقة وأشار لي.

- خليها هي تتكلم.

بدأت أقص عليه بعض الأحداث بايجاز شديد، فإذا بوجه ماهر يطل من جميع الصور المعلقة فوق الشيخ، صورة باهتة ثم تبدأ في الوضوح تدريجيا، حتى أني لم أستطيع أن أزيح عينى عن الصور، وهو الشيء الذي لاحظه الشيخ وركز عليه معي وربما أزعجه؟ بعد أن اتضحت صورة ماهر تمامًا على جميع الصور المُعلقة على الحائط، شهقت شهقة خاطفة تلتها رعشة في يدي لاحظها الشيخ ولم أقدر على إيقافها، سألنى في حزم.

- هو ده بس اللي حصل؟

أجبته بشرود.

- آه...

قد ملأنى إحساس بالذنب يحثني على الاعتراف بما فعلته، حتى أشفى تماما وإحساس آخر خائف لا يريد أن يزيد من حزن أمي، أخذا يتصارعان وأنا أنتظر النتيجة.

نظر الشيخ متشككا فيما أقول.

- متأكدة؟ انتوا معملتوش حاجة تانية؟

نظرت إليه متوقعة عواقب انتصار إحساسى بالذنب، لقد أغضبت رب العالمين بلجوئي إلى ساحر مشعوذ، وسفري دون علم أهلي رغم ثقتهم بي، فلو أن مكروها أصابني تلك الليلة لكان اختفائي غامضًا، نعم لقد أخطأت ولابد أن أتطهر الآن وأصلح ما أفسدته، فاعترفت باكية.

- لأ مش هو ده بالظبط اللي حصل.

كان بكاء الخلاص كما أحسسته، بكاء غير مُتقطع صوته عالٍ، والجميع يرمقوننى في ذهول وترقب، أكملت حديثى.

- بصراحة.. إحنا بعد ما حصلت معانا الأحداث الأولى، واحدة معانا قالت نروح لواحد اسمه ماهر.

ثم قصصت كل الأحداث التى حاولت اخفائها ونسيانها، في ظل هدوء ما قبل العاصفة، انتابت أمى الغضب والدهشة.

- كده يا مريم دي آخرتها؟ تروحي لدجالين؟

هنا هاجت كل من يسرا وهبة يؤنباننا أنا وياسمين، التي لازمها الصمت من أول الجلسة إلى آخرها، قام الشيخ من جلسته مهدئا لهما فلم يسمعوه فاضطر إلى رفع صوته.

- لو سمحتم مش كده.. اتفضلوا جوه على الأوضة لو سمحتم.

مازالت ريهام تغلق غرفتها عليها وكأنها تحصن نفسها من شيء لا تقوى حتى على السماع عنه، قامت جدتى مستندة على عصاها ويسرا وهبه متجهين إلى الغرفة وهي تبرطم «آدى آخرة الدلع.. البت مالهاش غربة.. سفر وتنطيط، عايزة لبس.. تروح مصر نجيبه!

تقولك عايزة توب (تقصد اللاب توب) تجيبلها أدى أخرتها.. البت ماهاش غربة»، نظر الينا الشيخ في رأفة.

- قولولى يا بنات.. لما الرجل ماهر ده بدأ يقرا حاجات في المطبخ وهو على الموبايل.. لما سمعتوا صوت الطبخ.. كان بيقول إيه؟

- ياسمين.. فكرينى كده.. أنا مش فاكرة بجد؟

رفضت ياسمين الحديث تمامًا ولم تُجب! فأردت مساعدتها.

- يا ياسمين.. قولى إيه اللي كان بيحصلك؟ فاكرة يوم مارجعت من الموقف لقيتك لامة الشنط إنتي وهند، وقاعدين بره وكنتى بتعيطى؟ ساعتها قلتيلى أنا مش داخلة الشقة دى تانى.. إيه اللي حصل؟

نظرت إلى ياسمين في حزن وأصرت على صمتها، حاول الشيخ حثها على الكلام.

- وإنتي يا ياسمين، إيه اللي بيحصلك؟

- مفيش.

صحت غاضبة.

- كدابة، لما كنت بحكيلها عن الوضوء كانت بتقول وأنا كمان، وفي مرة كانت خايفة تنام في أوضتها وكانت بترتعش ونامت عند رجل هند ولا انها تنام في الأوضة، ده غير سلسلتها الفضة اللي اختفت من رقبتها، وآخر يوم كانت قاعدة على السلم مرعوبة وبتعيط.

نظر اليها الشيخ متأملا في حين تأملت أنا موقفها، صحيح انها ليست بجرأة هند، أو حدة ليلى، لكن قدرتها على التحمل تفوقنى بمراحل،

لقد تحملت أصوات المطبخ، وقاومت الكعب العالِ، والظل والمرأتان واليد الثالثة في الحمام! ما الذي حدث ليهزمها هكذا وترفض الحديث عنه بتعنت؟ لابد أنه كان شيء أكبر، أكمل الشيخ.

- قصة البووت يا مريم، من امتى تقريبا؟

- من حوالي شهر وكام يوم تقريبا، أنا ممكن أجيبلك نمرة ماهر ده لو عايز تسأله على حاجة؟

- أعوذ بالله، مالى أنا وماله؟

تسللت أمى وتساءلت في ترقب.

- هما خلاص كده لبسهم جن؟

أجابها الشيخ في أسى.

- من اللي بتشكيه مريم، البنات متبهدلين خالص.

بدأت عينى تدمع ولم أرى أحدا من دموعى مع أذان العشاء، قام الشيخ ليصلى ثم يُكمل ما بدأه، ذهبنا إلى الغرفة بالداخل، يحدنا الصمت، بعد أن انتهى نادى علينا وأكمل معنا، أو بمعنى أدق معي.

- إنتي عارفة يا بابا إنتي عملتى إيه؟ إنتي عارفه إنتي وقاعدة كده منجسة المكان حواليكى؟ عارفة صلواتك مش محسوبة لمدة قد إيه؟ عارفة كده ولا مش عارفة؟ استغفرى ربنا يا بابا استغفرى.

بكى قلبى بكاء توبة من كل ما فعلته، خرجت ياسمين عن صمتها المدهش هنا وشاركتنى البكاء، وهو الشئ الوحيد الذي تشاركناه بعد ذلك إلى الآن، استطرد الشيخ.

- إحنا بنستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وإنتي بتروحى له برجلك؟ هو ماهر ده إيه غير شيطان من شياطين الانس والعياذ بالله؟ تعالى يا بابا اقعدى جنبى هنا.

كان شيخا صادقاً عطوفا حنونا رئيفا بنا إلى أقصى الحدود، سمح الوجه والأخلاق، أزهرياً يسمع ولا يحكم، انما يرشد بتعاليم الإسلام ومنهج القرآن ولا يقبل نقود أو هدايا عينية.

جلست على يمينه وظلت ياسمين على يساره، قرأ علينا كثير من الأيات القرآنية سويًا، ثم قرأ آيات معينة على رأس كل واحدة منا على حدى، تلاها بالرقية الشرعية ثم بعض الأدعية، كنت خلالها مغمضة العينين أستغفر الله، مر كثير من الوقت لتصبح الساعة الآن العاشرة والنصف مساء، كانت أمى تعامله كطبيب تنتظر تشخيصه لحالة مريض.

- إيه الكلام يا شيخ؟

- أنا هجيلهم بكرة تانى.

كان الشيخ مرهقا بعد أن أنهى جلسته معنا، لكن أمى حاصرته بالأسئلة.

- هي عشان كده خاسة؟

- أنا قريت عليها مفيش حاجة فيها إن شاء الله.

أوضحت سبب نُقصان وزني.

- أنا خاسة عشان مكنتش باكل في المطبخ، والأصوات اللي فيه ولا كنت بقدر أنام من اللي بيحصل في باقي الشقة.

نظر إلى الشيخ وقال لي مُشفقًا.

- كتر خيرك يا بنتى أنا مش عارف كنتى قاعدة كده إزاي؟

- مش عارفه يا شيخ.. كنت حاسة متقيدة في المكان!

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

نظر الشيخ إلى أمي متوجسًا.

- أنا تعبت.. هجيلهم بكرة، النهارده يا بنات مفيش نوم إلا لما تصلوا كل الصلوات، وتناموا على وضوء وتستغفروا وتقروا سورة «ياسين»، «ألا بذكر الله تطمئن القلوب»، ومع كل أذان فجر تقروا أواخر سورة «البقرة»، لما تحصلنا حاجة نلجأ لمين؟ لله سبحانه وتعالى.

- بس أنا تعبت منهم يا شيخ.

- بعد اللي عملناه النهارده ومجهوداتك في الاستغفار والذكر وارد حد يطلعلك منهم! لو حد طلعلك أو حسيتى بشعور غريب أو دم نزل تانى لازم تكلميني، بس إنتي خليكى دايما في ذكر الله.

كان الشيخ يوجه كلامه إلى فقط دون ياسمين وكأنها غير موجودة! ربما لأنها لم تتحدث منذ البداية! ثم لمحت نظرات يأس وحزن عميق في عيني أمي وهي تتحدث مع الشيخ وتوصله إلى الباب، بعدها خرجت يسرا وهبه وجدتى من الغرفة لينضموا إلينا قلقين بينما ريهام مازالت تجلس على سريرها منكمشة خائفة، سألت هبه.

- إيه الأخبار يا جماعة؟

رددت أمى ما قاله الشيخ.

- والله هو بيقول مفيش حاجة ظاهرة عليهم بس لو حسوا بحاجة نتصل بيه على طول.

هنا خرجت هبه عن اتزانها وعلى صوتها.

- تسافروا من بلد لبلد من غير اذن أهاليكم؟ ده لا أدب ولا دين ولا تربية تقول كده! أخص عليكم.. دى آخرة الأمانة؟ ولمين؟ لدجال!

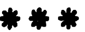
لقد أنبت نفسي وعنفتها بما يكفي ولم أكن أستطيع تحمل المزيد فتركتهم جميعا دون استئذان ودخلت غرفتى لريهام، نظرت اليها فوجدتها على حالها منكمشة توشك أن تبكي.

- قالك إيه؟

سألتنى ريهام في خوف.

- مفيش حاجة بس لو حسيت بحاجة أكلمه.

- ممممممم.



(١٤)

جلست على سريرى وأمسكت بالمصحف وبدأت في قراءة سورة ياسين، كانت قراتى هنا تتسم بالخشوع، كانت جدتى تجىء وتذهب متكأة على عصاها تتحدث إلى نفسها والى في غضب، كانت توجه لي كلامتها وتضربنى ضربات خفيفة بعصاها في كتفي فأضطر إلى قطع قراءتي وأنظر اليها في عطف، ما أجمل هذه السيدة، تعيش من أجل أولادها وأحفادها فقط، تهتم بأدق تفاصيل حياتهم، تخاف عليهم وتحميهم بكل ما استطاعت من قوة رغم ضعفها وقلة حيلتها، أحضرت كرسيا تحمله في مشقة ووضعته بجانب سريرى وجلست تتكئ على عصاها وتؤكد صحة ما قالته من قبل.

- واحدة في سنك تشيل موبايلين ليه؟ وايه لازمة التاب توب (تقصد اللاب توب) تاخديه معاكى الجامعة؟ نايمة طول النهار وصاحية تجمعي الصلوات وليلك كله على التاب توب! ربنا قال كده؟

كنت أحاول الرجوع إلى القراءة لأني أعرفها جيدا ستظل تؤنبنى طوال الوقت، رجعت إلى القراءة فأخطأت وزدت ألف ولام على الآية، كانت جدتى تحفظ كثير من السور عن ظهر قلب، فنغزتنى في كتفي بعصاها.

- غلط، غلط، جبتي الألف دي منين؟ طبعا ما شياطينك هي اللي بتقولك!

أردت وقتها أن أضحك بشدة، لكن إذا فعلتها قد يرجموني حتى الموت من فرط الغيظ، فتغلبت على هذا الشعور وأظهرت العكس.

- يوووه يا تيتة، سيبيني بقي شوية؟

- لأ مش هسيبك، أسيبك ياخدوكي مني؟ والله أبدا.

نظرت اليها في حب وشفقة مما سببته لها ولأمي والجميع من في البيت، وحمدت الله أن أخي لم يحضر كل هذه الأحداث، لا أعلم ما كان سوف يفعله تحديدا. جاءت أمي أيضا مشفقة على أمها فأرادت أن تستريح.

- قومي يا أمي نامي.

- أنا هنام هنا جنبها، أنا مش هخليهم يخدوها، روحي إنتي نامي.. إنتي اللي فيكي مكفيكي يا بتي، كفاية قطمة وسطك عليهم.

أبت جدتي بعد محاولات أمي المستميتة أن تتركني بمفردي لئلا يخطفني الجن على حد اعتقادها! كانت الساعة الثانية عشر صباحا وكانت هذه هي المرة الأولى حقا التي أنام فيها مطمئنة، أشعر بسلام عميق يغمرني رغم كل ما مريت به من خوف وشكوك.

فتحت عيني ورأيت ساعة الحائط تشير عقاربها إلى الساعة العاشرة صباحا، هل غفوت كل هذه الساعات حقاً، مرت في سلام كأنها دقائق، نظرت بجانبي فوجدت جدتي مازالت على هيئتها! بجانبي تنظر لي في حب متكأة على عصاها! هل زار النوم هذه السيدة؟ سألتني بحب.

- حاجة حصلتلك؟

- لا يا تيتة والله، الحمد لله، أول مرة أنام مطمنة!

- طب تعالى معايا.

ذهبت بى إلى الحمام توضئنى كالعادة، ولأول مرة تخف حركة الأرجل في الوضوء وتعود إلى نسبة كبيرة من طبيعتها، أحسست بفرحة داخلية ولكنى تذكرت الدم الذي نزفته من أنفي والذي انتقل إلى جميع وجهي لا أعلم كيف والذي لم يترك أثرا على سجادة الصلاة! فتمنيت من الله ألا أراه مرة أخرى، افترشت السجادة متأهبة للصلاة في حين جلست جدتى تنظر إلى في ترقب، هل سأنزف دما أم لا؟ أنهيت الصلاة والتفت إلى جدتى في خوف وكأني أسألها هل بى شيء؟ فرأيت وجهها البشوش يضحك فعرفت الجواب، أحضرت لي جدتي فاتح شهية وإفطارا فخمًا كان كافيًا لفتح شهية أي إنسان، لكنني لم أكن لأحتمل أكثر مما أتقوت به فقط، سمعت صوت أمى تتصل بوالدة هند وليلى وتقص عليهم ما حدث، توقعت ردة فعلهم لكن لم أعرفها.

أحمد الله كل لحظة على وجود هبته الغالية جدتى خاصة في مثل هذه الظروف، كانت فترة الحداد تقتضي أن تمكث أمى بالبيت أربعة أشهر وعشرة أيام كاملة، حدثت هذه الأحداث بالطبع في أثناء فترة الحداد فاعتمدت أمى على أخوات ياسمين لمصاحبتى لقنا مرة أخرى من أجل الأيام الأخيرة بها، ذلك لأنها تعرفهم كعائلة منذ زمن وتثق بهم، وعلى والدة هند وليلى من باب الأمانة فلم تكن صلتها بهم

قوية، فقط بعض الاتصالات للاطمئنان وتقديم الواجبات والتهنئة في الأعياد وما شابه ذلك.

اقتحمت أمي الغرفة وأصدرت تعليمات صارمة.

- إنتي سامعة طبعا؟ أنا قلت لكل الأمهات عشان يبقوا عارفين المصيبة اللي انتوا فيها، وبعد كده لما تروحى تجيبى بقية حاجتك اللي في قنا مش هتروحى وحدك، هيكون معاكى أخوات ياسمين وأمهات البنات.

هنا تذكرت قنا من جديد وتذكرت الامتحانات التي سوف أرسب فيها بلا شك، خرجت أمي إلى المطبخ فرن هاتفي، انه عمر.. ترددت أأجيبه أم لا؟ ولما لا؟ كنت قد نسيت واقعة محطة القطار وما فعله عمر بياسمين فما نحن فيه أكبر بكثير من التفكير في مثل هذه الأشياء الآن، أخذت الهاتف لأتكلم بعيدا عن جدتى، التي كانت تلازمنى وترافقنى كظلى حتى إلى الحمام خوفا من أن يخطفني الجن، دخلت غرفة أمي لأرد عليه بصوت منخفض.

- أيوه يا عمر.

- مريم.. أنا مش عارف أقولك إيه؟ أنا بتصل عشان أعتذر لك، بس الحيوانة التانية دى مش هتأسف لها.

- لو سمحت يا عمر، من غير غلط، وكفاية قوى اللي عملته في المحطة!

- أنا مش هبرر اللي عملته، أنا آسف.. بس طمنينى عليكوا.. عملتوا إيه؟

بدأت أحكى باختصار ما مررنا به مع الشيخ ورويت له كيف ظهر لي وجه الشيخ ماهر على البراويز المعلقة على الجدران تدريجيا وما قاله الشيخ، لم يعلق عمر حينها لكنى أحسست أنها المرة الأولى التي ينصت فيها عمر باهتمام وجدية دون أن يسخر منا أو يكذبنا.

- إنتي جاية قنا امتى؟

هنا سمعت صوت جدتى يأتي في الخلفية «ولاد مين اللي بتحكيلهم على فضيحتك؟»

- مش عارفة بس ماما عاوزانى أجيب بقية حاجاتى، ومش عارفة أتكلم دلوقتى يا عمر، البيت كله قالب عليا وجدتى زى ما انت سامعها أهو، لازم أقفل.. باى.

أنهيت مكالمتى معه فجاءتنى منه رسالة «ماتشيليش هم حاجة في قنا خالص ولو عايزة فندق تأجريه أو شقة هبقى معاكى.. بس الكلام ده ليكى إنتي لوحدك!»

أرسلت رسالة ردا له «ربنا يخليك يا عمر.. ده برضه العشم، بس على فكرة ياسمين مش وحشة قوى كده! نتكلم بعدين»

رأيت أمى تتصل بمازن.

- أيوة يا مازن ازيك؟ كنت عايزة أقولك على مريم والشقة اللي كانت فيها.

- ....

- انت كنت عارف؟ طيب أعمل إيه فيها دلوقتي؟

- ....

- هتلحق تحصل دروسها؟

- ....

- طيب طيب يا مازن ماشي.. ياللا سلام.

جاءت أمي تنظر لي في شدة وحزم.

- إنتي هتسافرى بكره، فاضل على الامتحانات خمسة أيام بس ومازن هيشرحلك المنهج ليل نهار عشان تعوضي، هتقعدى في فندق وهشوف أختك ولا خالتك حد فيهم يعرف ياخد إجازة من شغله وييجي معاكي، أسوأ الفروض هيبقى معاكى ياسمين وأخواتها.

جاء الشيخ مرة ثانية في المساء لتكملة جلسته بحضور نفس المجموعة باستثناء ريهام طبعا، هذه الجلسة أهدأ كثيرا من الجلسة الأولى، فلم يظهر وجه الشيخ ماهر ولم أبكى أنا أو ياسمين، كانت مقتصرة على قراءة القرآن والأدعية، ثم أعطانا ماء زمزم لنقرأ عليه قرآن ونشربه أو نتوضأ به شرط أن لا تقع منه قطرات على الأرض، وجود جدتى بجانبى في حد ذاته هو قمة الأمان كما أنها تدفعنى لالتزم دينيًا أكثر من ذي قبل وأحافظ على صلواتي وأذكاري وقراءتي للقرآن.

* * *

(١٥)

تمكنت أخيرًا يسرا وزوجها وهبة من السفر معنا أنا وياسمين بعدها بيومين، أقمنا في الفندق الكبير الوحيد بقنا، ووصلنا بعد اتصال أمي بهازن بيوم ونصف على الأقل، لم ينقطع اتصالنا بعمر، كانت ياسمين تتصل به ونحن في القطار في طريقنا إلى قنا فيرفض أن يكلمها فتعطيني إياه كي أخبره بمسيرة الأمور معنا، أتحدث بصوت مُنخفض.

- أيوه يا عمر.. إحنا قربنا للشقة.

- أنا جايلك.

- لأ تيجي فين يا عمر؟ ده أمهات البنات وأهلهم هنا؟

- لأ يا مريم أنا جايلك، إنتي الوحيدة اللي مش معاكي أهلك، وإنتي لو بتعتبريني أخوكي بجد خليني موجود معاكي..

وصلنا الشارع فوجدت سيارته تقف أمام العمارة، وجدنا أناسًا كثيرة يطلون من الشبابيك وبنات من الجامعة يقفن بالخارج، ناظرين الينا يحدثن بعضهن في ريبة وحياء مُزيف، باب العمارة مفتوح وباب الشقة أيضا، لم أعرف إلى الآن ما الذي حدث ومن الذي أخبر الحجة سعاد، قبل أن أدخل هذه الشقة الملعونة تذكرت

أن أقرأ آية الكرسى فقرأتها واستعذت بالله من الشيطان الرجيم ودخلنا، رأيت شيخ يرتدى الزى الأزهرى ذو العمامة البيضاء والطاقية الحمراء الشهيرة يجلس في منتصف الحضور، كانت له هيبة واجلال تستشعرهما عند رؤيته، بمجرد دخولنا الشقة التفتت الينا الحجة سعاد ونظرت إلى في غضب شديد.

- أهلا يا هانم.. مين قالك تفتحى الأوضة؟ أنا قلتلك تفتحى الأوضة دى؟ أنا مش منبهة مية ألف مرة بلاش تفتحوا الأوضة دى؟ تلات أوض مش مكفينكم؟ انتوا متعرفوش الطلبة اللي في سكنات الجامعة عايشين إزاي؟ دى عنابر والبنات نايمة فيها.

- أوضة؟ أوضة إيه؟

كنت بالفعل قد نسيت تمامًا فتح الغرفة الرابعة، حدثتنى نفسي أن ما نحن فيه أسوأ بكثير، وهذه السيدة المخبولة تركت كل شيء وتحدثت فقط عن مخالفتى لأوامرها!

نظرت الي الشيخ مرة أخرى في تمعُن، فعرفت أنه الشيخ الذي أعطيته تبرعات الشتاء بمسجد «عبد الرحيم القناوي»، فاطمأننت وعرفته بنفسي.

- السلام عليكم، ازيك يا شيخ، أن اللي جيتلك مسجد سيدي القناوي وحكيتلك اللي حصل معايا ومع صحباتى.

نظر إلى وتبسم.

- فاكرك يا بنتى، هو إنتي اللي هنا؟

- ربنا نجانا يا شيخ والله، أنا شفت بلاوى.

- الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

هند ووالدتها وليلى ووالدتها والحجة سعاد جالسين، لم نلق السلام ولم يكلم أحدنا الآخر، كما تبادلت الأمهات والأخوات نظرات الازدراء والاتهام لبعض، كل بنت في نظر أهلها هي البريئة المضحوك عليها من قبل الآخرين وهي من تم التغرير بها لتسافر من بلدة إلى أخرى بدون موافقة أهلها، اذا كنا جميعا قد غُرر بنا فمن هي المُذنبة بيننا؟

نحن جميعا قد أخطئنا ولا نريد تحمل المسئولية أو رؤية عواقب خطئنا، الحمد لله إني أدرك هذا، فالادراك في حد ذاته نعمة كبيرة، استنطرت الحجة سعاد.

- الأوضة اللي إنتي فتحتيها؟ ليه فتحتيها؟

ألقت هند التهمة بعيدًا عنها.

- هي اللي قالت لنا نفتح الأوضة.

صرخت الحجة سعاد مُكررة.

- ليه فتحتيها؟ أموت وأعرف فتحتوها ليه وانتو أربعة بس والشقة تلات أوض!

نظرت إلى هند وسردت بإيجاز.

- هقول ليه، جت ليلى بتقولى أنا عاوزة أقعد معاكى في الأوضة عشان مابتعرفش تنام بالليل من مكالمات هند، فاقترحت عليها نفتح الأوضة دى ونعملها سنترال عشان تتكلم هند براحتها،

دي كانت خدمة ليهم أصلًا، أنا كده كده في أوضة لوحدي، ثم إن كلهم وافقوا وعلى فكرة هما اللي فتحوها مش أنا!

نظرت والدة هند إليها بحنق، وانتابت الحجة سعاد حالة من الصراخ فينا جميعًا وفي وجهي تحديدًا.

- ليييييييه؟ تعملوا كده ليييييييه؟

- اهدي يا طنط اهدي.

صرخت كثيرا في وجهي.

- تبوظولي الدنيا عشان تعرفوا تتكلموا في التليفون؟ أنا اللي غلطانة من الأول أموت واعرف فتحتوا الأوضة إزاي؟

أجابتها هند بعفوية.

- بالسكينة.

- ده أنتم عصابة بقى؟ بصوا يا جماعة، قصاد أهلكم أهو، أنا مش عايزاكم في الشقة تاني، أنا سلمتهالكم أمانة وانتو خربتوهالى جن وعفاريت وشعوذة، بعد ما يخلص الشيخ قدامكم ساعتين تلموا حاجتكم وتسلموا المفتاح.



(١٦)

كان أقارب وجيران الحجة سعاد على علم بالأحداث طبقًا لروايتها، فكنا نستقبل من حين لآخر شخصيات لم نرها من قبل، يلقوا السلام ثم يجلسوا ليطمئنوا عليها كما يدعون، تساءلت أين «عماد»؟ أين ابنها؟ بالرغم من خلافاته معها، إلا أن من واجبه أن يقف بجانبها الآن، حتى وإن كان الحق بعيدًا عنها، قامت الحجة سعاد لتدخل الحمام في شقتها، وسوف تعود بعد دقائق، الجميع يجلسون في انتظارها بينما الشيخ يقرأ القرآن، وباب الشقة مازال مفتوح، هنا نادتني ياسمين وهمست في الحاح.

- كلمي عمر.. كلمي عمر.

تعجبت مما تقول ونظرت إليها في دهشة.

- أكلمه أقوله إيه دلوقتي يا ياسمين؟ سيبيني باللي أنا فيه الله يخليكي.

- ما اللي إنتي فيه كلنا فيه يا مريم، ياللا خليه يدخل.

أجبتها وقد وقف عقلي عن التفكير.

- إيه؟ يدخل فين والأهالي دي نقولها إيه؟

- أنا هتصرف بس خليه يدخل بسرعة..

- طيب أنا هكلمه بس إنتي اللي تشيلي الليلة؟ أنا مش ناقصة.

- ماشي مالكيش دعوة، كأنه قريب الحجة سعاد.

- بالضبط، أنا ماليش دعوة.

اتصلت به فرد في الحال.

- أيوه يا عمر.. تعالى بسرعة.

سأل يسترشد بى ماذا يفعل في موقف كهذا.

- أقول إيه طيب؟ قريبك؟

- لا ماليش دعوة، ياسمين هاتظبط.. هى قالتلي كده.

جاء عمر في دقيقتين ودخل، صاحبته نظرات الأهالى مستفسرة «أنت مين؟» لكنه تجاهل تساؤل الأعين وألقى السلام.

- السلام عليكم، إيه الأخبار؟

قامت ياسمين إليه تحدثه في سلاسة، تظاهرت أمام أهلها أنه أحد أقارب الحجة سعاد، وأحد ساكنى العمارة، وتظاهرت أمام الباقون أنه قريبها، تطلب الموقف جرأة وثقة لم أكن لأتحلى بهما، قامت هند من مكانها وجاءت إلى تهمس في تعجب.

- إيه اللي ياسمين بتعمله ده؟ جاية عمر لحد هنا! فضحيتنا هتبقى بجلاجل.

نظرت إلى هند وكأننى أراهم جميعاً لأول مرة، ما تنتقده هند ليس حفاظًا على التقاليد حقيقة، إنها الغيرة فقط لا غير.

نزلت الحجة سعاد وجلست مكانها بجانب الباب، لم دار حوار بينهم بين يسرا ووالدة ليلى مُتعلق بفترة الامتحانات، سألت والدة ليلى.

- طب البنات دي هتروح فين دلوقتي؟

أجابتها يسرا.

- إحنا هانقعد في فندق مؤقتًا لحد مانشوف هنعمل إيه.

انتهى الشيخ من قراءته لجزء من القرآن الكريم، أخذ يدعو أدعية من القرآن، انتهى من الدعاء ونظر إلى والدة ليلى بعيون تملؤها الثقة.

- أصلا كده ولا كده كانوا لازم يمشوا من الشقة دي.

نظرت إليه الحجة سعاد واقتضبت حاجبيها، فبادلها نفس النظرة في غضب، ينهرها صوته مُستخفًا بها في استجواب غليظ.

- الأوضة اللي جوه دي يا حاجة فيها حاجات كبيرة جدًا! صح؟

لم ترتبك الحجة سعاد واستجمعت قواها وتجاهلته، واصل الشيخ كلامه ناظرا إلينا جميعًا وأشار إلى الحجة سعاد.

- الست دي كانت بتحضر فيها أرواح، وفي مشكلة كبيرة حصلت زمان معاها، صح يا حجة؟

أحمرت وجنتيها ولم تنطق، فتحت عينيها في ذهول وكأنها تسترجع ذكريات قديمة، مال الشيخ بجسده إلى الأمام باتجاهها ثم رمى هذه القنبلة في وجهنا جميعا ليسمع ردها، تحاصرها نظراته في تحد واستنكار.

- صح كلامى؟

لم تجبه بالنفي أو الايجاب، أكمل الشيخ.

- الأوضة دى كان محبوس جن كتير فيها بتعويذة، فلما فتحتوا الأوضة طلعوا في الشقة كلها، يبدو إن الحجة كانت بتحاول تحضر روح أحد الصالحين. استغفر الله العظيم، لما جاتلك المجموعة دول معرفتيش تصرفيهم، وبالكاد جبتى تعويذة قديمة من ماهر الساحر تحبسهم كلهم في الأوضة دي، غير أن في حدث مهم وخطير حصل في نفس الأوضة، صح؟

عندما ذُكر أمامى الاسم لم أستطع أن أتذكر إلا ماهر الدجال، فأنا لا أعرف ماهر غيره، سألت في دهشة واندفاع.

- الشيخ ماهر بتاع البياضية؟

نظرت إلى هند غير مصدقة ورأيت هند والبنات وقد انتابهم نفس حالتى ناظرين إلى لا شيء، نظر الشيخ إلى في غضب واسترسل.

- ماهوش شيخ يا بنتى ده مشعوذ، أعوذ بالله من الكفر.

نظرت الحجة سعاد إلى في حنق.

- عاجبك كده.. منك لله.

تذكرت ما قاله لي عماد ابنها فقلت كأني نسيت بُرهانًا لبراءتى.

- أنا مش فاهمة إيه اللي مضايقك قوى كده! إلا لو كان كلام الشيخ صح؟ وعلى فكرة بقى ابنك عماد هو اللي قال لي أفتح الأوضة لو عايزة، يعنى متصرفتش لوحدي.

التفتت إلى الحجة سعاد في بطء كأنها قادمة من عالم آخر.

- عماد مين؟

- عماد ابنك.

نظرت لي نظرة كلها شك وعدم تصديق ووقفت وساد الصمت لثواني، مرت كأنها ساعات، ثم بلعت ريقها ونطقت.

- شفتيه فين وامتى؟

- اتقابلنا صدفة في الجامعة كذا مرة، ومرة على السلم هنا، وهو اللي قالي إنه عادى لو فتحت الأوضة الرابعة.

ظلت تنظر إلى في بلاهة لكنى اكتشفت أن الجمع الغفير أيضا يعيرنى نفس النظرة، وهنا ظهر صاحب محل الدش في وسط الحضور مذهولًا كالباقى وقال في صوت خائف..

- سلام قولًا من رب رحيم.

نظرت إلى الحجة سعاد وتحدثت كأنها في عالم آخر ترى منه ما تريد.

- عماد ابني مات!

نظرت إليها في استخفاف.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، يعنى مش عشان متخانقة معاه تقولي مات حرام عليكي.

- أنا ابني ميت من أكتر من ١٥ سنة.

لم أصدق ما تقول.

- بتقولي إيه؟ أنا قصدي عماد.

- معنديش غيره، مات من أكتر من ١٥ سنة.

احاطت يداي بأذني، لا أريد أن أسمع.

- بس.. بس متقوليش كده، أومال مين اللي كان بيقابلني ويكلمني حرام عليكي.

نظرت البنات إلى وفغرن أفواههن، وبدأت أنهار ونزلت دموعى سيولًا في سابقة لم أعهدها، كما انهارت البنات أيضًا واضعات كفوفهن على وجووههن غير مُصدقات، جحظت عين عمر ولا أذكر حالة الباقين، لكن أتذكر تمامًا حالة الحجة سعاد، التى قامت إلى وضغطت على كلتا ذراعى وهزتنى في عنف.

- هو جالك؟ انطقي... جالك إمتى وفين؟ ومجاليش أنا ليه؟ أنا أمه؟ أنا اللي تعبت لحد ما جيبته وأنا اللي ربيته، أنا اللي بتمنى أشوفه... يجيلك إنتي ليه؟

ساد صمت مهيب، وبقيت أبكى بلا توقف وكأن الله لم يخلق إلا البكاء في هذه الدنيا، واصلت الحجة سعاد ما بدأته في هيستيريا وظلت تعنفني وتهزني بكل قوتها وكأنها تعاقبني.

- اتكلمى قوليلى حرام عليكى، قالك إيه ... لأ لأ إنتي أكيد بتكدبي.

- والله ما بكدب، هو لابس بدلة قديمة شوية ورفيع وأسمر، بأمارة إنك بتحبى الفراخ والبطاطس.. صح؟ هو قالى كده «هى بتحبهم».

- دى إيمان اللي كانت بتحب الفراخ والبطاطس مش أنا.

- إيمان خطيبته؟ كانت يعني إيه؟

صاحب محل الدش يقرأ القرآن بصوت شبه مسموع ويتمتم.

- سلام قولا من رب رحيم.

ثم تذكرت شيئا مهما يساعد موقفي، فسألت ياسمين.

- ياسمين.. فاكرة الحج أمين عامر؟

- لأ.. مين ده؟

- يا ياسمين البياع اللي وصلنى لعماد لما جينا نشوف الشقة.

- آه.. صاحب الدكان اللي على أول الشارع بره خالص؟

- قوليلهم.. هو اللي ودانى لمكتب عماد في الأول والاتنين وصلونى لعندك، والحج أمين فضل مستنينى تحت لحد ما طلعتلك واتفقنا.

أردفت الحجة سعاد

- مكتب عماد مقفول من يوم ما...

سكتت فجأة لثوانى ثم أكملت في إنكار

- إنتي كدابة.. طب ومقلتليش ليه ساعتها؟

قصصت عليها ما كان ثم أكملت.

- عماد قالى انه على خلاف معاكي، وإنه أحسن أقولك أنا شفت اليافطة اللي على أول الشارع... اسألى الحج أمين.

صاح في دهشة أحد أقارب الحجة سعاد وجارها.

- حج أمين مين يا آنسة؟

- صاحب المحل الصغير اللي بره على الشارع.

في ظل بكائي وبكاء الحجة سعاد وذهول الجميع، قالت الحجة سعاد.

- المحل اللي على طول قافل؟

أكدت ياسمين.

- فعلا من ساعة ما جينا والرجل مش بيبان.

تكلم الرجل مرة ثانية في استنكار.

- يبان إزاي وهو ميت من ييجى عشر سنين!

أردت أن أتأكد.

- يا جماعة الرجل حجمه قليل كده، قصير ورفيع؟

نظر إلى الشيخ في رأفة.

- الله يرحمه يا بنتى كنت أعرفه ومشيت في جنازته وكان عماد بيحبه جدًا الله يرحمهم ويرحم أمواتنا جميعًا.

نظرت إليه وصرخت باكية.

- لا.... لا.... لا يا ياسمين إنتي شفتيه معايا.. يا جماعة حرام عليكم إحنا مش مجانين.. أنا مش مجنونة.

انهارت ياسمين في البكاء ودفنت رأسها بين يديها، ولم ينطق أحد لثوانى أو ربما دقائق لا أدرى، تكلم الشيخ في حزم.

- عملتى إيه في ايمان يا حاجة سعاد؟

- أنا معملتلهاش حاجة.. إيمان انتحرت لما رفضت جوازهما وهددت ابنى إني هأذيها لو اتجوزوا لكن معملتش حاجة، كنت بهدد بس، هى اللي عملت، هى اللي كانت بتغير عليه بجنون، وكانت عايزة تاخده منى، وفوق كل ده كانت نصرانية، وكمان بحراوية ملهاش عوايدنا. تذكرت ما مر بى، فهمست.

- الصليب المرسوم!

نظرت الحجة سعاد في اللاشيء وأردفت في هوس بات واضح.

- المفروض يتجوز واحدة نقاوة عينى أنا، واحدة متاخدوش مني، واحدة أنا اللي امشيها على كيفي، مش تشتكيني له.

أكمل الشيخ مواجهته.

- وعماد ابنك مات إزاي؟

اعتدلت في جلستها حتى واجهته في غضب.

- ولو انه مش من حقك تسأل أصلا، لكن حاضر هقولكم كلكم، هرضي فضولكم اللي مش هيموت، عماد كان هيتجوز في الشقة دى.

ترقرقت دموع الحجة سعاد وشردت بعيدًا، نظر الشيخ اليها وكأنه يعرف الماضي.

- وبعدين كملي.

- كنت عارفة انه بيجيبها هنا علشان تختار لون الحيطة والحاجات بتاعة العرايس دى، كان معاها المفتاح وشايلة حاجاتها هنا، كانت بتيجى لوحدها معاه من الجامعة عادى، وأهلها عارفين برضه عادى! مشفتش فُجر كده.

في إيقاع سريع انقطع نور الشقة للحظات وسمعنا صوت السكون، ثم عاد النور من جديد، وسط همهمات واستعاذات بالله، اكتشفت أن نور النهار غير قادر على منحك الأمان في تلك اللحظات، فرغم أننا جميعًا نعلم أن توقيتنا الصباح إلا أنه قد بات ليلًا مُخيفًا في لحظات قصيرة.

نظر الشيخ إلى مصادر النور ثم أكمل في صوت يملؤه الإيمان.

- كملي أنا سامع.

- في مرة اتخانقنا خناقة كبيرة ووعدتها ان الجوازة دى مش هتتم، كنت دايمًا بقولها كده، تانى يوم بالليل وأنا قاعدة فوق سمعت الباب بيتفتح ويتقفل، بعدها بشوية سمعت الباب بيفتح ويقفل تانى وكان الوقت اتأخر فقلقت، وأنا بلبس سمعت صوت عماد بيصرخ ويعيط، على بال ما نزلت لقيته مرمى على الأرض دمه سايح وبيطلع في الروح خلاص، وهي مرمية جنبه قاطعة شرايينها وقاطعة النفس، يا حبيب قلب أمك ياخويا.

عقب الشيخ ليتأكد.

- الاتنين انتحروا هنا؟

جففت دموعها وقالت كأنها في كامل وعيها لكن نظراتها زائغة.

- هي انتحرت بس، عماد عايش.

ثم نظرت إلى نظرة شيطانية.

- كان بيطلعلك فين قولى؟

لم تجف دموعى، أتمنى أن يكون كابوسًا سخيف أضطر أن أجيب على أسئلته.

- في الجامعة، كنت بشوفه صدفة والله كل مرة.

انطلق بخور هائل في الشقة لا نعلم مصدره، نظر الجميع في ذعر، مرت لحظات كأنها الدهر، هدأ دخان البخور شيئًا فشيئًا، رأيناه قادم من خارج باب الشقة، خرج بعض الأقارب ليعرفوا مصدر البخور حتى وصلوا للشارع، لكن عادوا بلا إجابة مقنعة، لا أحد يسكن غيرنا في العمارة ولم يمر غريب أمامنا يحمل مبخرة! نظر الشيخ في ثبات إلى الجميع وأردف.

- اهدوا يا جماعة وأقروا قرآن في سركم، كملى لو سمحتِ أنا سامع.

كانت الحجة سعاد في عالم آخر، سيطرت على عينيها نظرات هيستيرية شيطانية وهي تنظر للبخور، كانت ملامحها تضحك وتبكي في وقت واحد.

هال عمر ما يسمع ويرى، نظر إلى لا يكاد يصدق وأردف في صوت خفيض.

- كل مرة! هما كام مرة؟ وازاى هو ميت؟

قاطعته الحجة سعاد في حدة.

- هو بيبقى جايلك دي مش صدفة، قولي فين جوه الجامعة أروح له؟

اضطررت إلى إجابتها غير مُصدقة لما أقول أو أسمع.

- في حتة كده ناحية كلية حقوق.

أكملت سؤالها وكأنها تعرف إجابتي.

- عند شجرة كبيرة؟

- أيوه صح وقالي إنه بيحبها مش عارف ليه.

صاح بعض الحاضرين «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»

تذكرت هند شيئًا فصاحت بدورها.

- يا لهوى علشان كده سارة قالتلي إنهم قلقانين عليكي، وإن في بنات شافوكي قاعدة بتكلمي نفسك هناك!

ثم أكدت ليلى.

- وقالتلي أنا كمان.. ده بجد بقى!

صحت في غضب.

- إيه؟ وليه مقولتوليش؟

أكمل صاحب محل الدش في ريبة.

- «سلامٌ قولًا من رب رحيم»، صراحة يا أبلة أنا كنت فاكرك في الأول تعبانة شوية، لأني أول مرة شفتك هنا كنتي واقفة في الشارع بتكلمي نفسك، دخلتي العمارة عند الحجة سعاد، وبعدين لمحتك بتكلمي نفسك تاني في مدخل العمارة، شفتك لن البوابة كانت مفتوحة على آخرها، قلت يمكن بتكلم الحجة، لكن ملقيتش حد برضه! قلت أكيد لا مؤاخذة بعافية شوية، مع إنك لسه صغيرة، بس لما جيتيلي بعدها إنتي والأبلة صاحبتك لقيتك بتتكلمي زيينا عادي،

قلت يمكن بتتعالجي وكده، ربنا يعفو عنك مكنتش فاكرك ملبوسة اللهم احفظنا، ما خطرش في بالي كل ده!

عقبت ليلى.

- بصراحة يا مريم إحنا قلنا أكيد أعصابك تعبانة من اللي بيحصل، حتى بعد كده إنتي في البيت مكنتيش طبيعية خالص.

أكملت حديثها الحجة سعاد بصوت مسموع شاردة في ملكوتها.

- عند الشجرة الكبيرة، ده المكان اللي كان بيقابل فيه ايهان، وده المكان اللي دفنت فيه حاجة تخصه، آآآآآآآه يا قلب أمك.

ثم انهارت وسندها الشيخ وعمر، أفاقت مرة ثانية في ثواني وظلت تبكي، وعندها تذكرنا جميعًا الدجاج والبطاطس! لم أكن لأربط بين عماد وما يحدث في البيت، تذكرت هند أحداث المطبخ.

- يا نهار أسود الفراخ والبطاطس لأن فعلا مفيش أكل تاني كان بيختفي! أنا مش فاهمة حاجة هو في عفاريت بتاكل؟

نظرت إلى ياسمين وتنبهت قائلة.

- الكعب العالي ده أكيد هي، تفتكري هي اللي كانت عايزة تأذيني؟ ياسمين إنتي شفتي الخيال وسمعتي الكعب معايا.. صح.

جحظت عيون ياسمين وتمتمت.

- صح.

نظرت إلى الحجة سعاد في غل وشماتة.

- كانت بتغير عليه موت.

تمنيت لو أن يمر الوقت فأفقد ذاكرة هذا اليوم، أو هذه الفترة.

- إيه الكلام ده؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، يا رب أكيد ده كابوس.

هند وليلى في حالة ذهول كما جميع الحضور، استكمل الشيخ استجوابه.

- والصندوق الأثرى جبتيه منين؟ لو متكلمتيش والله اتصل حالا بشرطة الآثار تيجى هنا.

- الصندوق أثرى بس مش أنا اللي سرقته، ومش بتهدد على فكرة، أنا اشتريته من واحد معرفوش ومش من نواحينا، ده كان لزوم تكملة الطقوس وكان لازم يكون صاحبه من الأتقياء الورعين، بعد كده عرفت انه بتاع «سيدي القناوي».

مسحت دموعي وانتابنى شيء من القوة عند سماعي سيرة صندوق «الشيخ القنائي»، تذكرت كلماته وتوجيهاته، الأمانة، عقبت في صلابة.

- جوه الصندوق سيف مكتوب عليه آيات قرآنية، لكن مش واضحة قوى وقماش قديم، ولمبة وشموع وورق وكتاب، كل الحاجات أثرية وراجعة للشيخ عبد الرحيم القناوي.

نظر إلى الشيخ كأنه يربط الخيوط ببعضها.

- تعرفي يا مريم أن الحاج أمين عامر كان متصوف من مريدي سيدي «عبد الرحيم القناوي»؟ لا إله إلا الله، واللى متعرفيهوش يا ست سعاد إن ابنك كان من مريديه هو كمان، وكل ليلة جمعة ونهارها كان بييجى يصلى ويتصدق، ده شيء غريب والله سبحان الله.

سكت الجميع وجحظت العيون ولُجمت الألسنة لا تتفوه شيئًا، أردت أن أعطيها معلومة لن تسعدها.

- عارفة يا حجة ان ماهر الدجال كان عايز الصندوق وأنا مرضيتش أديهوله.

- ماهر كان عايزه؟ ده قابض تمنه لأنه كان وسيط البايع، والكلام ده امتى؟

- وإنتي مسافرة وأنا مرضيتش أديهوله وشيلته في أوضتى.

- الحاجة الوحيدة اللي عملتيها صح، قومى هاتى الصندوق حالا.

- لا أنسي، الصندوق في أسوان، وهيروح شرطة الآثار خلاص.

- أنا هوديكى في داهية لو مرجعش.

- أنا اللي كريمة معاكى علشان مبلغتش، ويا ريت لو تبلغى الشرطة كده وورينى.

ثم نظرت إلى البنات في شك.

- بس الصندوق كان عليه قفل كبير أثرى مش لاقياه؟ مرة وأنا بتكلم في الأوضة ملقتهوش وقولتكلم عليه قولتولي منعرفش.

أقسمت ياسمين.

- والله ما أعرف.

تابعت ليلى الحوار.

- ولا أنا قلتلك.

- أنا اللي فتحت الصندوق.

اتجهت الأنظار نحو هند، وصُدمت والدتها وأردفت.

- إيه؟

أكملت هند اعترافها.

- كنت قاعدة لوحدي زهقانة، كنت بحاول مفكرش كتير فى موضوع معين، وبصراحة كان عندي فضول، فتحته بأعجوبة، بالسكينة اللي كنتى دايمًا ماسكاها يا مريم، وبعدها من غير ما أحس لقيت الأوضة بتلف بيا، كأن حد ضربني على راسي، افتكرت ضغطي واطي، لكن كان في خيالات رايحة جاية كأنها بتجرى وبسرعة جدًا، رجعت على أوضتى وقفلتها، سمعت باب من الأوض بيتفتح ويتقفل بعنف! وفجأة حسيت إني مخنوقة جدًا، وكل حياتى ماهاش لازمة ومفيهاش فايدة وقعدت أعيط وحدي كتير.

سألتها في حيرة منها.

- ليه مكلمتيش حد فينا؟

- مجاش على بالى أكلم حد منكم خالص، ببص جنبى لقيت دوا مريم بتاع الضغط رُحت واخداه كله من غير حتى ما أفكر، ومدريتش بحاجة إلا في المستشفي لما بدأت أفوق وروحنا تاني.

عنفتها والدتها.

- يا نهارك أسود يا هند، ليه محدش قالى حرام عليكم؟ ده إنتي حسابك معايا عسير، واستنى لما أقول لأبوكى هيولع فيكى، اصبرى.

همست ياسمين وكأنها تستكشف شيئًا لم يخطر ببالنا من قبل.

- يعنى ده كان السبب في محاولة انتحارك؟

لم تسمع همستها والدة هند، سألتها بدورى.

- وفين القفل يا هند؟

- القفل معايا لما جريت على الأوضة وقفلتها عليا اكتشفت انه في إيدي، أكيد مكنتش قصدى أخده يا مريم ده كان فضول بس.

جاء تعنيف والدتها أقسى.

- رجعى القفل إنتي عايزاهم ييجولنا البيت الله يحرقك، اديه لمريم توديه للشرطة مع الصندوق.

ردت الحجة سعاد في قوة وعند.

- الصندوق والقفل لازم يرجعوا، الصندوق ده كان بتاع «سيدي القناوي» وكل اللي كان في الصندوق استعنت به علشان أحضر روحه، وأسأله على ابني لأجل ما يدلني عليه، بعد ما فشلت أحضر روح ابني عشان يسامحني، لكن ماهر ضحك عليا وقالي تعويذة بتستدعى أرواح شريرة والله مكنتش أعرف، هو منه لله كان قصده يعمل حاجة في البيت علشان أفضل رايحة جاية عليه، والفلوس متتقطعش لكن اللي جه كان شديد عليا وعليه.

مرت لحظات سكوت وبكاء، ثم استطردت قائلة.

- وعماد حبيبى مجاش، بدل ما يطلع لي عماد ابني حبيبى تطلعلى إيمان منها لله كانت روحها خبيثة، ومعرفتش أحبسها ولا هى ولا اللي معاها، ووقتها واحد من أهل الخير جابلى حد يحبسهم في الأوضة اللي جوه.

كان الذهول هو القاسم المشترك بين كل الحضور دون استثناء أو مُبالغة، ثم أكملت في غير وعى.

- يا حبيبى يا عماد ياللى فطرت قلب أُمك عليك، مكنش قصدى تموت يا حبيب قلب أمك، كان قصدي أبعدها، ليه هى مامتتش قبل ما تاخدك منى، هى الحرباية اللي غوته لحد ما بقى مجنون بيها.

نظر إليها الشيخ في ازدراء وتعجب ثم سألها.

- يعنى إيهان خطيبته مانتحرتش لوحدها؟

* * *

(١٧)

هنا وقعت كل الصور المعلقة على الحائط مرة واحدة، وانطفأ النور من جديد، ونسينا أننا في نهار يومنا وقد تحول إلى ليل غطيس، وانتشر الرُعب بيننا، وبينما الجميع مأخوذ بما حدث، رأيت أمامي «عماد» و«إيمان» يدخلان من الباب، «عماد» أراه كخيال لكنه قوي واضح الآن، وإيمان شابة بيضاء طويلة، شعرها بني مسدول، لم أُميز ملابسها، فركت عيني غير مصدقة، لكن ما أراه حقيقي! نظرت إلى الوجوه فوجدتها مازالت متعلقة بالحائط، لا أحد يراهم، أنا فقط أستطيع.

«ايمان» تبدو منفعلة وتمسك بيديها علبة كرتون مثل علب الأحذية، «عماد» يرتدى نفس البدلة التى طالما رأيته بها، كُنت أحسبه غير مُهتم لهذه الشئون، لم أكن لأفكر في شيء آخر كالذى أراه الآن، لحق بايمان ثم أغلق الباب وراءه!

رأى الجميع الباب وقد أُغلق دون لمسه، هنا انطلقت «الله أكبر» من الحضور تُدوى المكان من جميع الألسنة، ولكن الحجة سعاد لم تخف ونظرت إلى الحائط يمينا وشمالا في تحدى ودموعها سائلة على خدها، صوت بكاء خافت هنا وهناك ولحظات رُعب كأنها الدهر كله.

جلست ايمان في احدى الزوايا البعيدة غاضبة تبكي ورمت بالذى تمسكه، فاتفتح الصندوق الكرتون قليلًا، فاذا بى أرى الحذاء الأبيض الذي كان بالصندوق الخشبى العتيق، والذي انتعلته يومًا ما! لقد كانت هى من تكتب على الحائط.. انها «ايمان»، قد سبق وتحاورنا ونحن في عوالم مختلفة، بطريقة مختلفة، والآن أراها! ثم سمعت حوار بينهما بكت فيه إيمان بحُرقة في وقت قصير لم أستطع إحصاءه.

- مامتك مش هتسيبنا نتجوز يا عماد دى بتكرهني، أنا مش عارفة عملتلها إيه لكل ده؟

- وبعدين معاكى مش بتقولي بعتتلك العشا لما شافتك موجودة؟

- استغربتها جدًا، أول مرة تبقى كويسة معايا، تخيل إنها بعتالى فراخ وبطاطس المحمرة اللي بحبهم.

- شفتى بقى، اصبري عليها، والله دى طيبة إنتي مش فاهماها، تعالى ناكلنا لقمة حلوة من أكل أمى بقى، أنا جعان.

- حاضر يا عماد، علشانك أستحمل أى حاجة، بس..

دخلا إلى الغرفة الرابعة، قمت من مكانى وراءهما لاستكمل حل اللغز، عقلي قد خُدر وبات في عالمها رُغمًا عنى.

أردف عماد في ضيق يحاول كتمانه.

- بس إيه تانى؟

- يا عماد الحاجات اللي بشوفها هنا بقت كتير قوي، وأنا صدقني مش خوافة ولا مجنونة.

- تانى يا ايمان؟

رأيت صينية الطعام أمامها، عليها دجاج وبطاطس محمرة، والسكينة! السكينة التى فُتح بها الباب، وأيضًا قفل الصندوق، والتى طالما أمسكتها بدون سبب واضح! والتى على ما يبدو استخدمها عماد في تقطيع شرايينه لاحقًا عندما انتحرت ايمان بها أيضًا.

- تانى وتالت ومليون، أنا بشوف حاجات وبسمع أصوات عجيبة كتيرة كل مرة وأنا بحط حاجاتى في البيت.

- يا حبيبتى تلاقيها ماما فوق بتعمل حاجات.

- لأ يا عماد لأ، ده كله في الأوضة اللي إحنا قاعدين فيها دى، وبالذات من ساعة ما مامتك جابت الصندوق ده هنا، حتى شكله غريب، آثار ده ولا إيه؟

- ايمان، إنتي بتقعدى هنا كتير لوحدك، طبيعي خيالك يهيئ لك حاجات، أصوات كتير حوالينا، صوت الثلاجة في حد ذاته ممكن يرعبك، عادى يا حبيبتى والله.

بدا عماد غير مُصدق لما تقوله، نظرت له ايمان تتمنى لو أصغى وصدق.

- يا عماد أرجوك حس بيا في اللي بقوله ده، أنا تعبت، كوابيس كتير، حاجات بتختفي ومش بتبان، ساعات كتير بسمع كركبة في الحمام وبطنش، وبقول الصوت جاى من المنور، ساعات بحس حد ماسكنى من رقبتى، بلاش كل ده، إمبارح الصندوق ده اتفتح واتقفل كذا مرة وأنا في الحمام، اتهيألي إن حد جرى على بره.

تحدث عماد في سُخرية.

- كمان حد جرى؟

- والمسيح الحي مش بكذب يا عماد، أنت المفروض أقرب حد ليا، المفروض تصدقني.

- أنا مش بكذبك، إنتي بنفسك قلتي اتهيألى، لكن نفترض ان فعلا كان في حد بيلعب في الصندوق، حد حرامى، أو حد عايز يخوفك، إزاي والقفل الكبير ده كله عليه.

- مش عارفة هتجنن، نفسي أخلص من الكابوس ده، نفسي أرتاح، أنا كاتمة في نفسي بقالى كتير، ومحدش حاسس بيا، نفسي أرتاح خالص بقى حتى لو هموت بس أرتاح.

- بعد الشر عليكي، إيه الكلام ده!

- الموت مش شر يا عماد، الموت راحة أبدية وسلام.

- مش عايز أسمع الكلام ده تانى بقى، أنا ما صدقت إن الموضوع اتحل من ناحية أهلك وكانوا في منتهى التحضر معايا، موضوع أمي هيتحل، وأوعدك هترتاحي وهرتاح وكل حاجة هتبقى تمام، حبيبتى إحنا مش أول حالة نتجوز، تعصب الناس بس هو اللي خلاه حرام، اهدى يا ايمان بس وأنا هقنعها ومتخافيش.

- يا ريت يا عماد، مش كفاية ان أهلى وافقوا وده كان مستحيل، وبعدين لو معرفتش تقنعها والله هموت نفسي أنا تعبت من الدنيا خلاص.

- متقوليش كده أبدًا، وريني جبتي إيه ياللا؟

- جزمة الفرح.

- شيك قوى الجزمة هشيلها معايا لحد يوم الفرح.

مرت ثوانى وأنا لا ادرى هل أنا يقظة أم نائمة أم أنه عقلى الباطن أم أصبت بالجنون،

تلاوشوا شيئًا فشيئًا من أمامى، تحركت كروبوت انتهت بطاريته، خرجت إلى الجمع في غرفة الاستقبال.

نظر إلى الشيخ في تمعُن وسأل.

- كنتي فين يا مريم؟ خليكِ معانا هنا أحسن.

حقيقة، لم أجرؤ على قول شيئا وأنا أرى الجميع خائفين من وقوع الصور المُعلقة وانغلاق الباب فقط، ما بالهم لو حكيت ما آراه، أنا الآن ملبوسة في نظرهم، سوف يوصموننى بأننى السبب وأننى من جلبت هذا كله لهم وللبيت، كنت أريد أن أثبت لنفسى أن من تحركت مشاعرى تجاهه يومًا ما حى يرزق، فهممت ان أناديه لكنه لم يرانى! كان كل تركيزه أن يُسعد «إيمان»!

دعوت رب العالمين أن ينقذنى مما أنا فيه راجية النجاة، ظللت أردد «يا مغيث أغثنى يا مغيث أغثنى»، لابد أن أخاطر وأكشف ما حدث لأتأكد منه، إنها الأمانة.

ظلت الحجة سعاد تبكي فنظرت إليها وأردفت في اتهام.

- ايمان وعماد متنحروش، الحجة سعاد عملت لها سحر لحد ما البنت زهقت من حياتها وانتحرت.

نظر إلى الشيخ في شك وتساءل، ونظر ناحية الطرقة سريعًا.

- تقصدي تقولي إن عماد انتحر بعد ما شاف إيمان ميتة؟

- ده الأرجح يا شيخ.

نظر الجميع إلى وسمعت همهمات الاستعاذة ونظرات الخوف تطل في وجل، جحظت عين الحجة سعاد لكنها لم تنطق بكلمة واحدة.

لم أجيب الشيخ وثبتت نظرى على الحجة سعاد، نظر إلى الشيخ وقد خمن شيئًا ما فنظر بدوره إلى الحجة سعاد وسألها في حدة.

- الكلام ده صحيح يا ست سعاد؟

تملكتها حالة هيستيرية مُريبة، نظرت إلينا وتحدثت وكأنها تصرخ وقد أصبحت عينيها بلون أحمر دموى حتى هُيئ إلى أنها تدمع دمًا.

- مكنش قصدى مكنش قصدى قلت، عايزين إيه.

أردفت في اصرار.

- عايزين نعرف الحقيقة.

صرخت بحدة.

- أيوة عملتلها عمل عند الشيخ ماهر، خلاص.. ارتاحتى، بعتلها العشا كمان فيه سحر تاكله، لكن عماد حبيبى رجع بدري يومها وأكل معها على غير عادته بالليل.

نظر الشيخ اليها وقد أمسك سبحته وشرع في الاستغفار ثم أردف.

- إيه اللي حصل بالضبط؟

لم تنقطع الحجة سعاد عن العويل لحظة واحدة، ثم نظرت له في سُخرية وتحدى.

- يعنى كنت فاكرنى هسكت لما أشوفه بيروح لها ويسيبنى؟ أكيد كانت عاملة له عمل، عملت لها عمل أقوى ولما مجابش نتيجة، عملت سحر أسود، يظهر كان قوى جدًا فعملها مشاكل كتير، لدرجة انها انتحرت، أنا مكنتش قصدى أموتها، كنت عايزة أبعدها عن ابني بس، لكن ليه عماد ابني يموت ليه ليه؟ ليه يروح علشان واحدة متساويش ومش من توبنا.

ثم جففت دموعها فجأة ونظرت إلى السقف وصرخت في صوت جهورى.

- ليه يا رب؟ ليه.. ليه؟

ثم نظرت لنا جميعًا وابتسمت في هيستيرية وقالت.

- بس عماد مامتش، عماد عايش، انا عارفة.

أحسست أنها لا تريد أن تفيق من حلمها، تارة تعترف بموته وتارة تؤكد حياته، ساد الصمت وسمعنا صوت الدموع، أردف الشيخ.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أنا كنت فاكرك ست وحشة، طلعتى شيطانة أعوذ بالله، تعملى كده في ابنك الوحيد؟! وفاكرة ربنا هيسيبك؟ إنتي ست مش طبيعية، بس جزائك لازم تاخديه، والناس دى كلها شاهدة، لا حول ولا قوة إلا بالله.

ظل الجميع في ترقب وذهول، وجوه غلب عليها الدهشة، قلوب ترتجف تستعيذ بالله العظيم مما ترى وتسمع.

جففت دموعي ونظرت إلى الشيخ الذي بدأ ينظر إلى الأرض لثواني، وفجأة نظر إلى الحائط في ريبة وقال في حزم.

- أنا لازم أقرا دلوقتي يا جماعة.

سكت الجميع فورا، بدأ في قراءة «سورة البقرة» حاملًا زجاجة مياه، ثم قام ربما في منتصف السورة لا أدرى مسترسلا في القراءة في المطبخ أولا ثم جميع الغرف بالتوالى يقرأ القرآن ثم يرش من المياه التي يحملها على عتبة كل غرفة وفي أركانها في تمهل عجيب.

بينما يقرأ الشيخ أواخر سورة البقرة ونحن نستمع في ذهول تام، هنا فقط بدأ عقلي يربط الأحداث، لماذا أهملت هذه السيدة الأحداث المهمة التى مرت بنا وركزت على الغرفة فقط؟ السكينة! التي كان قلبي يُقبض كلما رأيتها لا أعلم لماذا؟ ومع ذلك كُنت أمسكها بدون داعٍ، نفس السكين فُتح بها الباب، وفتحت بها هند القفل أيضاً، هل يُعقل أن تكون السكين هي من قطعت حذائي ومحفظة هند؟ هل يُعقل أن تكون هي الغرفة؟ ولكن غرفة «السنترال» كانت آمنه طوال فترة الأحداث؟! الحذاء الأبيض (الكعب العالى)! صوت ملاحقة الحذاء الرجالي للكعب العالي هو نفس الصوت الذي سمعته اليوم عند دخولها! ايمان الغاضبة وعماد المُحب.

وقف عمر مذهولا مكتوف الأيدى غير مُصدق ما يسمع أو

يرى، هنا فهمت مغزى أن تأتى ياسمين بعمر إلى الشقة مجازفة احتمالات كثيرة، أرادت ياسمين أن يستمع عمر لكلام الشيخ الوقور بعد أن ينتهي من قراءة القرآن، أرادت أن يصدقها بعد أن كذبها وشك في تصرفاتها مرارا وتكرارا! أرادت أن تراه يعتذر لها ولو بعينيه، كان تصرفا ذكيا لا يخلو من مخاطرة كبيرة، لابد أنها تحبه بشدة.

سكتت الحناجر وبدأت الأعين تتجه نحو الحجة سعاد مستفسرة ومُستنكرة، كانت هي الأخرى تشعر بالغضب وقد أيقظنا ماضيًا كانت قد طوته، فاذا به يعاود الظهور أمامنا الآن ويفضحها، نظر الشيخ إليها في حنق فانفجرت.

- إيه.. بتبصولى كده ليه؟ مكنش عندى غيره، جبته على كبر، ومات شاب زى الورد ملحقتش أفرح بيه، مكنتش قادرة أستوعب انه خلاص مشى وأنى هكمل لوحدى، حاولت أروح له معرفتش، حلفت لأجيبه تانى حتى لو هستعين بإبليس نفسه، خلاص عرفتوا وارتاحتوا؟ يا رب تنولوها كلكم عشان تحسوا بيا، وبعدين محدش له حاجة عندى، أنا طالعة البيت أرتاح، ساعتين زمن تكونوا لميتوا هلاهيلكم ومشيتوا، المفتاح عاوزاه بعد ساعتين اتنين.

تركتنا وانصرفت إلى منزلها ونحن لم نفق من ذهولنا بعد وعيوننا مازالت تراقبها إلى أن اختفت من أمامنا، عقب الشيخ.

- كلموها تانى خلوها تمدلكم كمان ساعة إضافية، عشان

تلحقوا تلموا كل الحاجات دى، لازم أبلغ البوليس ياخدوا اجراءاتهم دى أمانة هنتحاسب عليها، لا حول ولا قوة إلا بالله، وإنتي يا مريم ده تليفونى يا بنتى، أنا عايزك.

وعدت الشيخ بالاتصال، لم آخذ كل متعلقاتى، كُنت خائفة منها، فقط بعض الأشياء التى أعتبرها ذات قيمة، جمعتها وتركتها عند سمر زميلتى بالكلية، ثم تفرقنا كلٌ إلى وجهته، ذهبت أنا وياسمين وأخواتها وزوج يسرا إلى فندق «بسمة» وبالطبع رجعت هند ووالدتها إلى الأقصر ولم أهتم بالسؤال عن ليلى ووالدتها.

كنت شديدة التأكد أن عمر لن ينام ليلتها، سوف يعيد حساباته مع نفسه، إن عوالم الجن والسحر مذكور في القرآن الكريم وفي جميع الأديان، لابد من تحصين أنفسنا بالتقرب إلى الله، لكنه رغم مجازفة ياسمين لم يعتذر ولم يتقرب إليها أبدًا بعدها، لعله لم يكن يحبها حقا منذ البداية.



(١٨)

بعد غد تبدأ أول امتحاناتي وياسمين سوف تبدأ امتحاناتها غدا، تستغرق فترة الامتحانات شهرًا تقريبا، لم نذاكر أي مادة ولا نتذكر شيئًا على الإطلاق، اتصلت بمازن بعد أن وصلنا الفندق ثم ذهبت إلى بيته مباشرة، استقبلتنى زوجته بود وترحاب، شرح لي ما فاتنى تبعا لجدول الامتحانات.

كنت أستذكر بنصف عقل، النصف الثانى مازال يفكر فيما حدث شاردًا، كأنه كابوس طويل وأخيرًا عُدت لحياتى الطبيعية.

أذهب إلى الامتحانات مرتين في الأسبوع وياسمين مرتين أيضا بتبادل الأيام، كانت تكلفة الفندق باهظة، فما ننفقه في ثلاثة أيام هي قيمة ايجار ثلاثة أسابيع في هذه الفترة من السنة، حيث من الصعب إيجاد شقة للايجار أو مكان شاغر في بيت طالبات خاص.

ذات ليلة كنت أنا وياسمين في بهو الفندق نذاكر، فجاءنا عمر حاملًا عشاء، سلم علينا ولمحت نظرة اعجاب في عينيه تجاهى فتجاهلتها، ترك ما بيده وانصرف.

أخيرا وفي نصف فترة الامتحانات وجد لنا سمسار عقارات

«استوديو» يقع في منطقة «حوض ١٠»، وهي منطقة راقية وهادئة، وكانت الأقرب لبيت مازن فزادت ساعات المذاكرة يوميًا، ولكني قد أصبت برهاب السكن فاشتريت لوحة كبيرة عليها آية الكرسي وعلقتها بها قبل أن أسكن.

كان مازن يذاكر لي المواد عشوائيًا، أذاكر شيء بعينه فيأتينى في الامتحان بعدها، سألته إن كان يعرف الأسئلة مسبقًا؟ فأجاب لو أنه يعرفها ما كان ليساعدنى، إنها الأمانة.

كانت يسرا وزوجها وهبه قد استعدوا للسفر عائدين إلى عملهم بعد أن أعطونا الوصايا العشر. لا أنسى وقوف عمر بجانبى في هذه الأثناء مثله مثل مازن، كان يسأل يوميا ولا يتأخر عن فعل أي شيء يهون علينا، فقد لمس ما عانيناه طوال الفترة السابقة ولم يصدقه هو، كانت ياسمين تعرف ما يدور بيننا، فألحت على بالتوسط لإصلاح ما فسد، لكن عمر باعها أو فقد حبه ولهفته إليها.

هند تطمئن علينا بين الحين والآخر، استقرت في بيتها بالأقصر، تجئ وتذهب إلى الامتحانات يوميا، تشكي شدة الإرهاق من المواصلات يومياً، ليلى أيضا كانت على اتصال بنا ليس بغرض الاطمئنان بل لمتابعة الأخبار، ألم أقل لكم إني بدأت أنظر لهم من جديد وقد كشفت الحقائق ما خفي، ان شعار ليلى الدائم هو «مصلحتي مصلحتي»، كانت تمكث عند أقرباء زوج شقيقتها ومن الواضح أنها لم تنسجم معهم، فلما علمت بتأجيرنا هذه الشقة الصغيرة أتت لتمكث معنا مجانا!

استضفتها وتحملتها أنا وياسمين على مضض غير مُستتر إلى أن انتهت فترة الامتحانات في سلام وعادت كل منا إلى بيتها أخيرًا.

في تلك الأيام لم يكف مازن وعمر عن السؤال عنى ومتابعتي، فمازن صديق العائلة وأهل للثقة، وعمر قد منحته عيناى جوابًا شافيًا لما يفكر فيه فالتزم الصمت ورفع راية الصداقة.

أرسلت والدة هند قفل الصندوق، تولى أخى المهمة عندما جاء في إجازته بعد أن قصت عليه أمي وجدتى ما حدث، وسُلم الصندوق بكل محتوياته.

تم التحقيق مع الحجة سعاد في واقعة قتل ايمان وانتحار ابنها، وواقعة التستر على سرقة آثار، والآن هى مريضة بمستشفي الأمراض العقلية، أما الدجال ماهر فقد وجده رجال الأمن مقتولا قُبيل القبض عليه، مات الرجل مُخزق العينين، مقطوع اللسان، وقد قُطعت بعض أجزاء من جسمه ولم يُستدل على مكانها، الطب الشرعى أفاد أن عملية التقطيع تمت قبل تسليم الروح، أى أنه تعرض لجلسة تعذيب كُبرى! جارى البحث عن الجانى دون نتيجة.

بعد مرور شهر من رجوعى أسوان وإلى حياتى الطبيعية، جاءني اتصال هاتفي من سمر ذات يوم.

- ألو.

- أنا مش قادرة أصدق نفسي! إنتي عارفة إنتي جبتى كام؟

جاء صوت سمر لا يوحى بفرح أو حزن، سمعت صوتها

المصدوم جيدًا، أخفق قلبى كما لم يخفق من قبل، تخيلت أبى رحمه الله وهو حزين لرسوبى، تخيلت أمى وجدتى وأخوتى عند سماع الخبر فكادت سماعة الهاتف تسقط من يدي، فتمالكت نفسي وأجبت بتوجس.

- جبت إيه يا سمر؟

رقص صوتها فرحًا.

- جبتى أربعة جيد جدًا وواحدة امتياز!!!

عندها ألقيت الهاتف على الأرض، وعرقت عرقاً غزيرًا مفاجئًا، أحسست أني أمسك ثلج في يدي، لقد رأيت غفران ربي الآن أمام عيني، فما لاقيته من بداية السنة الدراسية إلى آخرها قد لقننى دروسا كثيرة لن أنساها ما حييت، لقد نصرنى الله الآن من أجل أهلى.

ناديت أمى بأنفاس متقطعة.

- ماما.. ماما... الحقيني.

جاءت أمى مسرعة فشاهدت الهاتف ملقى على الأرض ووجهى يغطيه العرق ففزعت.

- في إيه يا مريم؟

- أنا جبت أربعة جيد جدًا وواحدة امتياز!

لم تصدق أمى.

- بجد؟

جاءت جدتى مستندة على ريهام وعصاها من داخل الغرفة.

- سمر قالتلى إنها شافتها؟

أرادت أمى أن تتأكد وقد خالجتها مشاعر متضاربة.

- لا لا كلمى أي حد تاني اتأكدي.

اتصلت بكثير من زملائى ليتأكدوا، واتصلت أمي بمازن الذي أكد لها النتيجة مباركًا.

كانت الفرحة تعم البيت لأول مرة منذ وفاة والدي الذي كنت أتمنى أن يأخذنى في حضنه، الآن يا أبى أستطيع أن أهديك ما تمنيت، أتراك ترانى؟ هل أحسست بكل ما حدث؟ لا أريد إلا أن تفرح بابنتك، لا أن تتألم أو تقلق، فقد أصبحت كما أردنا سويًا.

اتصلت بياسمين وهند فأتانى صوتهم مباركا فرحا رغم أنهم رسبوا هذه السنة لكن ليلى لم تستطيع أن تخفي حقيقة شعورها كعادتها معلقة «مممم.. إزاي ده يا مريم؟ ده كلنا شايلين مواد وياسمين هتعيد السنة؟»

وفي ليلة لن أنساها ما حييت، وفي مُنتصف الليل كنت أقرأ رواية جديدة في غرفتى، في أمان تام قد اعتدته بعض الشىء، أحسست بحركة غريبة خلفي، خفت وميض النور للحظات ثم عاد كما كان، التفت فوجدت عماد يجلس على طرف الكنبة، ينظر إلى ويبتسم، سقط الكتاب من يدي وفغر فاهى عن آخره، دقات قلبى القوية المُتلاحقة منعتنى من إصدار أى صوت، قام من جلسته واتجه نحو الباب واقفًا، ابتسم في حنو وقال.

- مش هنسى جميلك يا مريم، الحقيقة كانت لازم تبان، والحق برجع لأصحابه، الأمانة حاجة صعبة جداً، لكن الإنسان اختار حملها بكل غرور، أشوفك على خير إن شاء الله، السلام عليكم.

خرق الباب واختفي، وأنا مازلت على نفس حالتي، تمتمت وعليكم السلام ورحمة الله، بقيت هكذا مدة من الزمن لا أعرفها، ليلتها وبعد أن هدأ قلبي توضأت، فقمت الليل لله حامدة مُستغفرة مُسبحة لعله يرحمني.

لم أنس شيخ مسجد «عبد الرحيم القنائي»، وهو الذي صدقني عندما عنفني المُستشيخ، بحثت عن رقمه وهممت بالاتصال وفعلت.

- السلام عليكم يا شيخ.. أنا مريم من أسوان.

- وعليكم السلام أهلا يا مريم، طمنيني عليكي، إن شاء الله خير؟

- خير الحمد لله يا شيخ ومفيش حاجة ونجحت كمان.

- الحمد لله على جميع الأحوال.

- أنا لسه بشوف حاجات يا شيخ، مش عارفة أقلق ولا اعمل إيه.

- أنا عارف إنك بتشوفي، أنا عارف إن ده مش حاجة سهلة، لكن روحك نقية، أنا عارف كمان إنك شفتى عماد وإيمان ليلتها، ودخلتى وراهم، لكن كنت واثق مش هتتأذى بأمر الله،

- يعنى حضرتك شفتهم زيى؟

ضحك الشيخ في عفوية ثم عادت نبرته قلقة بعض الشيء.

- طمنيني يا مريم، في أى أذى يا بنتي.

- لا الحمد لله مفيش وبنام عادي وبصلي وكله.

- الحمد لله رب العالمين، طيب قوليلي يا مريم.. اليوم اللي سألتيني فيه عن الشيخ اللي في منامك، عرفتي...

قاطعته وقد ملأ قلبي اليقين.

- أنا عرفت هو مين يا شيخ.

- محدش يعلم الغيبيات إلا الله وحده، اللي حصلك شيء جميل.

- أكيد هو يا شيخ، أنا مريت بحاجات غريبة وعمري ما حكيت عنها.

- ومتحكيش لأن محدش هيصدق، كل دى غيبيات يا بنتى، وربنا سبحانه وتعالى هو مُسير الكون وخالق الأسرار، لما سألتيني عليه في المسجد مجاوبتش لأني أنا كمان شفته زيك، وعايزك تعرفي إنها نفحة من عند الله للناس اللي قلوبها صافية، علشان كده أوصيتك تخلى قلبك صافي وعامر بالايمان، عموما الكلام في الموضوع ده ميخلصش، لو جيتى قنا زيارة معاكى رقمى تعالى زيارة للمسجد.

- أنا وعدت نفسي أزوه كل فترة وأصلى في المسجد ان شاء الله.

- طيب يا مريم خلى بالك على نفسك، داومى الاستغفار فإنه

كنزٌ لا يفنى، وقولى دايمًا «اللهم افتح لي خزائن فضلك، وأبواب رحمتك، وامنحنى مواهب بِرك، وواسع نُعماك، وأكرمنى بما أكرمت به أحبابك يا حى يا قيوم».

- اللهم آمين.

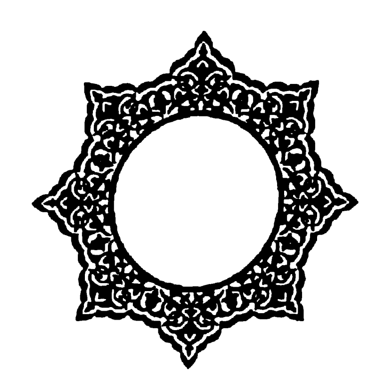
ودعت الشيخ في سلام نفسي لم أعهده من قبل، واستقبلت اتصال مازن مُباركا مُؤكدًا ان الله قد استجاب لدعوات أمى، وأنه قد علم من أمى بما حدث، واعتذر أنه لم يصدقنى من البداية، ولكنه على كل الأحوال درس من الله أن نلتزم طاعته، ونتخير أصحابنا.

لم أكن في حاجة لسماع نصائح مازن على الاطلاق، فقد تعلمت الدرس وأنفقت في تعُلمه الكثير من وقتى وصحتى البدنية والعقلية، وجازفت مجُازفة لن تُمحى من ذاكرتي ما حييت، يُوجد الكثير من الأشياء في هذه الدنيا نعتقد أننا أكبر منها ويُصور لنا فضولنا نحو المجهول وغرورنا أحيانا أننا نستطيع، عندما يسيطر علينا هذا الإحساس والغطرسة تُنسينا شياطيننا الله، وتجعلنا نعتقد واهمين أن أداء الفروض يغُنى عن تجديد الايمان والتمسك بحبل الله ، ولا ننتبه أننا في حقيقة الأمر نؤدى الفروض بأجسادنا فقط، فما أسهل حركات الجسد، والتواء اللسان بكلام لا نعيه ولا نعطيه حقه، فالعقل يلهو بكل شيء في دنياه، نهتم للماضى والمستقبل ولا نعطى الحاضر حقه، وتذهب قلوبنا تارة في حب زائف، أو كُره مُبالغ فيه، ويغيب الخشوع، نردد مع كل صلاة «الله أكبر» ولكن لا نتيقن حقيقة معناها، معناها الذي يعطى الحياة سلامها

وجمالها، نصوم عن الطعام والشراب فقط ولا تصوم شهواتنا، لا تبتعد عنا آثامنا الكبيرة لأنها أصبحت عادة، نحج إلى البيت الحرام ونعود إلى سابق عهدنا تمامًا، نبتعد تدريجيًا عن السلام، ويتلاشى الخلاص، عندها يصبح الحرام مُمكنًا ثم مُباحًا، فنُطلق عليه «حرية»، في تجربتك قد تخسر أعز ما تملك، قد تخسر نفسك، وقد تخسر عقلك وقد تخسر قلبك، أو تخسر هويتك ومبادئك إلى غير رجعة! لأننا ننسى احتمالات الخسارة عند التجربة.

تعلمت أن أعرف حدودى وأطوقها، وتعلمت أن علاقتى مع رب الكون ليست لها حدود، لقد كان الله رحيما بي أشد الرحمة، عصيته فسترني، وأيقظني من غفلتي فندمت، وأعلنت التوبة فنجاني.





كُنت بصحبته نستمع إلى خرير الماء الآتي من نافورة بوسط فناء البيت، جاءني صوته عذباً يختم تلاوته من القرآن الكريم ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ صدق الله العظيم.

انتهى والتفت إلى ورأيته يبتسم في عذوبة، بادلته الابتسامة وأنا أكاد أطير في الملكوت، وتمنيت أن أبقى معه، لا آبه أين أو متى، لاحت أفكاري بعيني التى تعودت أن تبوح له بكل شيء، وكما تعودت منه أن يفهمها دون بوح، فقال في ود وصفاء.

- نعم تستطيعين ما دام النقاء خليلًا، ونعم أستطيع ما دام شكُر الله على نعمه قائمًا.

إلى أن ألقاك يا سيدي.. سلام الله عليك وعلينا ورحمته وبركاته.

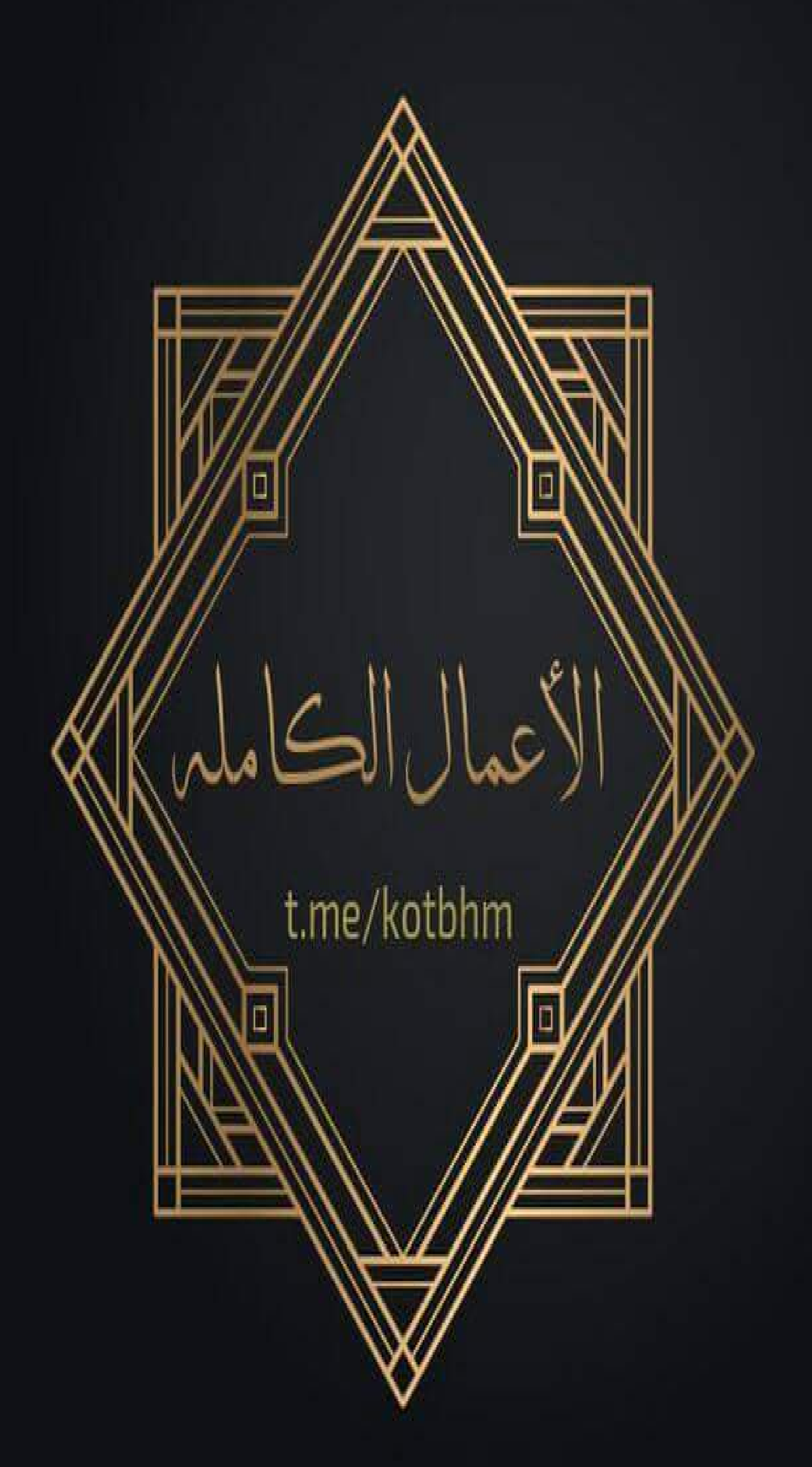
تمت

* * *

شكر خاص

عيد جوهر
أحمد عبد المجيد
وائل نيل
أحمد جوهر
أمينة أبا يزيد
أحمد حمدى

ياسمين الدنون
أحمد سلامة
محمد الجيزاوى
سمر موسى
إبراهيم أبا يزيد
شيرين إدريس


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

يحدث ليلاً في الغرفة المغلقة

تذهب "مريم" للدراسة في مدينة غريبة عليها في صعيد مصر، وهناك تستأجر شقة مع رفيقاتها، تؤكد عليهم صاحبة المنزل عدم فتح الغرفة رقم "4" في الشقة مهما حدث، أربع فتيات يمكثن في شقة واسعة كئيبة وغريبة مكونة من أربع حجرات، تضطر فتاتان منهما الإقامة في غرفة واحدة، ومع الوقت والملل واعتياد الشقة يفتحن الغرفة رقم"4" وبعد ذلك تبدأ كل اللعنات في الحدوث، كل التاريخ الأسود لتلك الشقة وما حدث فيها وتلك الغرفة والصندوق المغلق الموجود بداخلها وكل تلك الأشياء التي تمشي حولهن ولا يمكنهن مشاهدتها وكل تلك التواشيح والذكر والصلاة والخوف والرعب والإنهيار.

هذة رواية أدبية بديعة، كُتبت بإحساس صوفي وملامح إنسانية، لكنا لم تخلو من رعب وغرائب، هل ستتحرر مريم من أثر الغرفة المغلقة، هل سيأتي النهار على مريم مرة أخرى؟ وهل روح الإمام ستعود إلى حيث أتت في سلام ؟ والسؤال الأهم كيف سينتهى كل ذلك ؟!



مروى جوهر

كاتبة وروائية مصرية، عملت كمضيفة طيران، ثم تفرغت للكتابة، كتبت في جريدة الدستور ومجلة عين وتكتب بشكل دائم في عدة مواقع الكترونية، درست الإخراج السينيمائي بقصر السينما بالقاهرة وشاركت في العديد من الأفلام القصيرة والوثائقية، صدر لها كتاب بعنوان "هات م الآخر" عام 2013 وكتاب بعنوان "المضيفة 13" عام 2015، وتعد رواية " يحدث ليلاً في الغرفة المغلقة" هي روايتها الأولى والتي يجرى حاليا إنتاجها كعمل سينمائي.

تصميم الغلاف كريم آدم




ISBN 978-977-807-095-8